قصّة

الكفاح بين روما وقرطاجنّة

بقلم

توفيق الطويل

دار النشر الحديث
٧ شارع فؤاد الأول القاهرة

قصة

الكفاح بين روما وقرطاجنة

بقلم

توفيق الطويل

دار النشر الحديث
٧ شارع فؤاد الأول القاهرة

تقـــدمة

للاستاذ النبيل

محمد فريد أبو حديد

ما زال الناس يستلهمون التاريخ ويستمدون منه العبرة كلما ألجأتهم ضرورة فى حاضرهم إلى ذلك ، فان تجربة العصور فى حاضرها لا تغنى الناس إذا شاءوا التماس الحكمة الاجتماعية أو استبانة القانون الانسانى، وذلك أن حوادث السنين لا تتصل نتائجها بمقدماتها إلا بعد مضى القرون ولا تكمل عبرتها إلا بعد توالى الأجيال . وليس فى تكرار التمثل بِعَبر الزمان إعادة ولا فى تعدد النظرات إليها إباحة لها أو ابتذال، فان الحادثة الواحدة قد تنطوى على

مالا حد له من العظات . وقد يتناولها الناس فى كل عصر فيجد كل منهم فيها ناحية من المعنى مخالف لما وجده سواه من معانيها . ولقد كان النضـــــال بين قرطاجنه وروما أحد هذه المواقف التاريخية الفذة التى هزّت العـالم هزة قوية فى إبّانها، وما زالت العصور التالية ترجع إليه وتلتفت صوبه، وكل منها يشير إلى ما يبتغى من عبرة فيـه أو يتحدث عنه حـديثاً يوحيه إليه موقع الضوء عليه فى ناظره . وهكذا كان شأن الأستاذ «توفيق الطويل» مؤلف هذا الـكتاب عندما تناول بالبحث هـذا النضال

لقد نظر المؤلف الفاضل إلى تلك الحرب التى يسميها التاريخ بالحرب البونية كما نظر سواه إليها ووصفها ورسم لنا منها صورة خاصة لا أظن أنها تشابه صورة أخرى رسمها أحد فى لغة العروبة

فهو قد استدرج الذهن من موقعة إلى موقعة ومن صورة إلى صورة حتى بلغ به النهاية فأشار إليه

مومئاً إلى ما تحت قدميه فاذا بالعبرة التي كان يرمى إليها ماثلة واضحة لا يستطيع أحد أن يخالف فيها

ولقد كانت الشعوب الأنسانية منذ القدم ينافس بعضها بعضاً فى كل ميادين النشاط والمطامع، فلقد كانت تتنافس فى امتلاك الأراضى وفى الانتفاع بالمراعى. وكانت تتنافس فى القوة والمنعة ثم هى تتنافس اليوم فى كل هذه المعانى بوسائل سلمية تارة وحربية أخرى. غير أن ذلك التنافس الأنسانى كانت له مظاهر عدة، فقد كان يحدث بين وحدات القبائل الصغيرة فى دائرة محدودة كما كان يحدث بين الأجناس والشعوب فى دوائر أوسع. فانا لا نكاد نجد عصراً خلا من محاولة شعب من شعوب الأرض سيادة سائر الشعوب ونبوغ شعب آخر يتصدى له بالدفاع، فاذا بشعوب الأرض موزعة بين الزعيمين المتناضلين حتى ينتهى الأمر باذعان أحدهما أو انقراضه وضياع سلطانه. وقد

حاول بعض علماء التاريخ أو الاجتماع أن يخلصوا من استقراء ما حدث من ذلك النضال فى كل العصور إلى أن أجناس العالم بينها طائفتان كُبريان لا تفتأ تميل إلى النزاع والنضال على سيادة الأرض فيسمون طائفة من الطائفتين شرقاً والطائفة الأخرى غرباً. ويقول هؤلاء العلماء إن النضال بين هاتين الطائفتين دائب مستمر استمرار الليل والنهار فقد يحدث أن شعبين من طائفة واحدة يثوران حيناً للنضال ثم لا يلبثان أن يستقرا على نوع من التفاهم والتجاور، فى حين أن الطائفتين الكبريين لا يستقر بينهما النضال بل لا تزالان تتصاولان وتتصارعان فاما إحداهما سيدة غالبة والأخرى تناضل فى سبيل الحياة تجاهها، وإما أن تنقلب الآية فتصبح السيدة مسودة والمستضعفة سيدة . وهؤلاء العلماء يجعلون قرطاجنه ورومة رمزين لهاتين الطائفتين الكبريين فى العصور التى سبقت الميلاد

بقرنين أو ثلاثة . كما أنهم يجعلون حرب الفرس واليونان رمزاً لذلك النضال قبل ذلك وحرب العرب والروم ثم الفرنج رمزاً له فى العصور الوسطى .

ومهما يكن من أمر هذا الرأى فانا لا نستطيع أن نغضى عما فيه من الضعف والتعسف فالحقيقة التى لا شك فيها هى أن أمم الأرض تتنازع وتتناضل فيما بينها . وأن ما بقى بعد ذلك من التحديد ناشىء من الظروف والحوادث . ولقد كان نضال قرطاجنه وروما بغير شك من أروع مواقف النزاع العالمى . ولكن لم تكن روما لتمثل عند ذلك شيئاً اسمه الغرب ولم تكن قرطاجنه تمثل شيئاً اسمه الشرق، فقد كانت مصر عند ذلك تحت سلطان البطالسة العظام وما كانت قرطاجنه إلا مدينة نامية تستولى على المال وتستخدمه فى سبيل بسطة سلطانها بأن تسخر الجيوش لتنتصر لها فى حروبها وما كان لمثل هذه المدينة أن تكون زعيمة الشرق

أو الآخذة بزمامه فى نضال السيادةالعالمية . بل لقد كانت مصر أجدر منها بذلك وأحرى .

ويلوح لى أن المؤلف الفاضل لا يذهب مع أصحاب الرأى المتقدم فانه وإن علم أن قرطاجنه لها رحم بالساميين لم يجعلها ممثـــلة الشرق فى نزاع الأجناس بل نظر نظرة أخرى تختلف كل الاختلاف عن تلك الوجهة التى أشرنا إليها، فهو لا يتعصب لها ولا يراها تمثل مثلا من أمثلة الشرق العليا بل إنه لينظر إلى المثُـل العليا لرومه على أنها أقرب إلى تمثيل مُثل الأنسانية عامة . وهو يتحدث عن حوادث نضال قرطاجنه ورومه حديث من يريد أن يتغلغل دون السطح ليتخذ من بحثه عظة تنفعنا فى حاضرنا فهو يريد أن يوجه أنظارنا إلى أن قرطاجنه قد فنيت لأنها كانت جديرة بالفناء ، وأن رومة قد بقيت ونمت لأنها كانت جديرة بالبقاء والنمو، ثم هو يشير لنا وهو يسير فى حديثه إلى الأسرار التى أهلت كلا من المدينتين إلى مصيرها وجعلتها جديرة بما نالها .

خلفت الأساطير قصتين عن منشأ المدينتين المتناضلتين، وما أحرى هاتين الأسطورتين أن تكونا مختصراً لتاريخهما . فرومه تنشأ فى العراء وتغذوها الوحوش ثم ترويها الدماء ولكنها ترفض الاستكانة إلى الدعة ويطلب أهلها العيش فى ظلال المكاره فلا تزال مثُلها العليا الخشونة والقوة والقسوة . وقرطاجنه تنشأ هرباً من مطامع الطامعين لتنفرد فى مأمن تتمتع فيه برغد العيش وذكريات السعادة ولكنها لا تلبث أن تحرق نفسها دفاعاً لمطامع جديدة اتجهت إليها من ناحية أخرى . وما كان التاريخ ليحدثنا عن المدينتين إلا هكذا إذا شاء اختصار حكاية كل منهما فى كلمات قليلة .

وإنه لمن ألذ المطالعات أن يتتبع القارىء وصف هذا الكتاب لحوادث تلك الحقبة من الدهر ، فان فيه خصالا ثلاثاً تسمو به : دقة فى البحث، ونفوذ فى النظر ، وجمال فى الأسلوب.

وإنى لأنتهز هذه الفرصة لتهنئته تهنئة حارة على ما أصاب من إجادة وتوفيق ؟ *محمد فريد أبو حديد*

تاريخ الحوادث

الواردة فى هذا الكتاب

تناول الكثير من كتب التاريخ استعراض الحروب التى ثارت بين روما ، قرطاجنه.ولكن هذا الكتاب« يحكى » سيرة الكفاح بين هذين البلدين ، فهو لا يهتم بالحروب إلا من حيث دلالتها على الروح المعنوية في كلا الشعبين ، ولهــذا تعمدت الأيجاز فى سردها ، وحاولت الخروج عن نطاقها ، وتصوير آفاق أخرى لعل القارىء العربى لم يألفها فى كتب التاريخ . على أن القارىء الذى يريد أن يفهم الجو المعنوى الذى كان يتنفسه هذان الشعبان قد لا يقنع بقصة هــذه الحوادث التى تتعاقب أمام ناظريه، وتتسلسل مردودة إلى عللها وأصولها . وربما شعر بالحاجة إلى معرفة الزمن الذى وقعت فيه هذه الحوادث . ولهذا آثرت أن أذكرها في هذا الثبت ليرجع إليها من أراد :

	ق . م
نشأة روما	٢١ أبريل ٧٥٣
نشأة قرطاجنه	٨٥٠
أول معاهدة بين قرطاجنه وروما	٥٠٩
رحلة هانو وهميلكو Hanno & Himilco لاستعمار إفريقيا الغربية واستكشاف المحيط الأطلنطى	٥٠٠
إخفاق بيروس فى صقليه وعودته إلى بلاده	٢٧٦
موت بيروس	٢٧٢
سيادة روما فى إيطاليا	٢٧٠ — ٢٦٦
قطاع الطرق المتمردون يطلبون النجدة من قرطاجنه وروما . إرسال النجدة من كليهما	٢٦٥
بدء الحرب البونية الأولى (لامتلاك صقلية)	٢٦٤
هزيمة قرطاجنه فى ما يلى Mylae	٢٦٠
اندحار الأسطول القرطاجنى في :	
إكونومس Economus	٢٥٦
حملة رجيلس Regulus لفتح إفريقيا	٢٥٦
هزيمته على يد اكزانتيب	٢٥٦
مولد هانيبال Hannibal — حصار ليليبيوم	٢٤٩

	ق . م
انتصار قرطاجنه في دريبانوم Drepanum	٢٤٩-٢٤٨
توفيق الحملة التي قام بها هملكار برقه على شاطىء إيطاليا وصقليه	٢٤٣
هزيمة القرطاجنيين فى إيجيت Augates	٢٤٢
نهاية الحرب البونية الأولى (ضياع صقلية)	٢٤١
الحرب بين قرطاجنه وقطاع الطرق	٢٤١ — ٢٣٧
غزو أسبانيا : هملكار — هسدروبال - هانيبال	٢٣٦ — ٢١٩
موت هملكار Hamilcar	٢٢٩
مصرع هسدروبال Hasdrubal	٢٢١
حصار هانيبال لسغنتم Saguntum	٢١٩
بداية الحرب البونية الثانية (لامتلاك إيطاليا)	٢١٨
هانيبال يعبر الألب — ويتخطى الأبنين —	٢١٨
موقعة تريبيا Trebia	٢١٨
موقعة ترازمين Trasmenus	٢١٧
مجزرة كانى Cannae	٢١٦
فتح الرومان لسيراكوز Syracuses	٢١٢
استيلاء هانيبال على تارنتوم Tarentum	٢١٢
سقوط كابوا Capua ورحيل هانيبال إلى روما	٢١١
حملة سيبيو Scipio إلى أسبانيا	٢١٠

قصة الكفاح

بين روما وقرطاجنة

خريطة حوض البحر الأبيض

وفيها مختلف البقاع التي يحتاج اليها القارىء

نشأة قرطاجنة

آذن بالرحيل النصف الأول من القرن التاسع قبل الميلاد بعد أن استوفى مليك « صور » أنفاسه ، وخلف وراءه فتى يافعا تقلد الملك بعده فى فيض من الطموح والجشع ، وفتاة يتمشى الجمال الفتان فى كيانها ، وتشيع الأنوثة الناضجة فى جسمها . فبنى بها خالها أسرباس Acerbas وهو كاهن مهيب الجانب موفور الحظ من إكبار الناس لا يعلوه بين الشعب إلا المليك وحده ، وكان إلى هذا ثريا عريض الثراء تملكه الجزع على أمواله الطائلة ، فغيبها فى أحشاء الأرض بعيداً عن مسكنه حتى لا تمتد اليها يد أثيمة تبغى العبث بها . أو تقع عليها عين باغية تريد العدوان عليها .

وكان يشتد به القلق ويثور بخاطره الجزع كلما ذكر الملك وما يضطرم فى نفسه من جشع. فخافه خوفا شديداً وإن كان ابناً لأخته وأخاً لزوجته، لأن بريق الذهب كثيراً مايسف بحرمة الرحم إلى مرتبة النسيان. ويهوى بالنفوس إلى درك الاتهام، ويهبط بقداسة الأخلاق الى مواطىء النعال.

وطار نبأ الكنز المغيب فى جوف الأرض حتى اتصل بسمع الملك. فحرك لامتلاكه رغبته وإن تخطى فى سبيله ماتعارف عليه الناس من مُثل حسنى ومبادىء عليا. فأمر بذبح خاله «أسرباس» توطئة لأشباع نهمته.وإرضاءشهوته.

واستشاطت زوجة القتيل غضبا وأجنّها الألم لهذه الخطيئة التى أقدم على ارتكابها أخوها، فعافت مرآه وأشاحت بوجهها عنه، واستوحشت نفسها من نفسه. مرضاة لأنوثتها، واستجابة للعدالة حين تحتقر الزوجة التى ترى مصرع زوجها فتحتمل فجيعتها فيه، ولا تثور على قاتله ولو كان أقرب الناس اليها.. فان عاطفة الزوجية أحرى بالأعزاز وأخلق بالرعايةمن الأحساس بالأخوة، إن كان لابد من إيثار واحد على الآخر..!

وهكذا قضت « إليسا Elissa » ـ وكان هذا اسمها ـ أياما.ركدت فيها علاقتها بأخيها ،واكفهر بينهما جو المودة حتى عز عليها احتماله، فاصطنعت البشر وأقبلت عليه توهمه بأن خطيئته قد درست فى نفسها وعفى عليها النسيان . كانت تبتسم فى وجهه وفى جوفها بركان ألم يضطرم ويهم بأن يلقى ناره وحممه .حتى قالت له ذات يوم : لقد احتملت من أجل زوجى فوق ما أطيق من لوعة وألم، واعتزمت ألا أحرك فى نفسى الأسف على فائت ، وأن أستقبل حياة جديدة فى ظلالك، فأفارق مسكنى — مبعث القلق ومصدر الذكريات الأليمة التى لا تنقطع — وأفد على بيتك وأعيش فى كنفك وأستمد من حياتى معك ما يُنسينى لوعة الماضى وألم الذكرى .

فشاع الرضا فى نفس الملك . وتوقع أن يصيب — فوق مرضاتها عنه — ما خلفه لها زوجها الصريع .. واطمأن إليها حتى غفلت عينه عن رقابتها . وأرسل خدمه لمدوها بالعون فى نقل متاعها . فهيمنت على شعورهم وكسبت عطفهم حتى استحالوا عونا لها على تنفيذ الخطة التى دبرتها للفرار . . !

وأبحرت بما تملك من كنز ومتاع إلى « قبرص » مصطحبة فى ركابها من سرها أمرهم وأعجبها سلوكهم. ثم شدت رحالها من هذه الجزيرة حاملة معها فئة من حسان العذارى ليتزوج منهن رجالها.. فلما بلغ الملك فرارها اهتاج غضبا واعتزم أن يطاردها أنى حلت حتى يظفر بها ويطعنها الطعنة التى تلحقها بزوجها..! وقاتل الله المال — مبعث الطمع الذى لاترده صلات رحم. ولا يدفعه سلطان مبدأ..!

وتوسلت اليه أمه أن يعدل عن قتلها. والتمست عنده العفو عنها والرضاء عن مسلكها. فاستجاب لها مخافة أن تلحقه لعنة الآلهة ويدركه انتقامها — بهذا تنبأ له العرافون وأنبأوه نبأ المدينة التى ستنشئها أخته بعد حين. وحذروه من مقاومتها وأعلنوه بالشر ينتظره فى غده، إن مانع فى تأسيس هذه المدينة التى سيقدر لها أن تكون أعظم مدن الأرض حظا وأوفرها فى القوة نصيبا.

ثم تقدمت «إليسا» ـ أو ديدو Dido كما كانوا يسمونها أحيانا ـ إلى إفريقيا ووجدت أن الناس بها يميلون للأغراب ويحنون إلى لقياهم، ويقبلون على التجارة عن رضا وشغف.

فابتاعت قطعة أرض تربض على خليج تونس فى شاطىء إفريقيا الشمالى، وتعاقدت مع ملاكها — اللوبيين — على أن تدفع لهم ثمنها أقساطا سنوية حتى يتم سداده.

ووفدت على هذا المكان كثرة من أهل البقاع المجاورة واتجرت معه واشتهر بين الناس أمره وذاع نبؤه. ودرجت فى حجره مدينة جميلة أطلقوا عليها اسم « قرطاجنة »Carthage أى المدينة الجديدة.

وازدهرت المدينة بعد هذا وشاع أمرها طولا وعرضا. وكان الناس يتسابقون فى الحديث عن ملكتها « إليسا » ويتبارون فى الكلام عن فتنة جمالها وعذوبة صوتها ورشاقة قوامها وظرف حديثها ولدونة جسمها. وما إلى هذا بسبيل ولو لم يكونوا قد رأوها بعد...

واتصلت أحاديثهم بملك المغاربة فأرسل فى طلب الذين يتزعمون المدينة الجديدة، وقال لهم حين مثلوا بين يديه:

عودوا إلى مليكتكم وسلوها رأيها فى زواجى بها. فان أبت فقد وطنت العزم على أن أثير فى وجهها حربا ضروسا تملأ بالها قلقا وضيقا، وتنتهى بمدينتها الناشئة إلى الخراب العاجل.

فلما عاد الرسل احتالوا فى عرض هـذا المطلب على مسمع الملكة، وقالوا لها إن مليك المغاربة يبحث عن فرد أوتى القدرة على تهذيب شعبه، وتعليمه كيف يستقبل الحياة برفق. ويضرب فى زحمتها بدعة، ويتصل بأهلها فى وداعة. ولكن من ذا الذى يهجر وطنه إلى شعب بربرى يشبه أبناؤه الوحوش خشونة وجفافا، ليهذب مشاعرهم ويرقق طباعهم ويحمل نفسه هذه المشقة كلها . . ؟

وكانت الملكة قد أجنّها الفخر بوطنها الجديد، وملأ الاعتزاز به شعاب نفسها، فكانت تكثر من الحديث فى أمره. وتطيل التغنى بمستقبله. والترنم بالمجد الذى ينتظره. وتغتنم كل فرصة لتبث هذا الروح فى نفوس المتصلين بها، حتى يشيع هذا الاحساس فى شعبها. فلما سمعت حديث الملك الذى يبحث عن فرد يجعل شعبه أحسّ بالحياة وأشد تحركا لها واستعداداً لتلقى مؤثراتها، قالت لمحدثيها: إن احتمال الحياة العسرة الثقيلة ليهون فى سبيل الوطن، وما يعود على الأمم المجاورة من خير على يدنا، مردُّه لنا ومرجع فضله إلينا. ومن كَره الاستجابة لخير الوطن وضاق بها وإن كلفته العسر فقد أَثِمَ ولزمته الخطيئة.

فقالوا لها حكمت بلسانك ياملكة البلاد · ومن أشار بأمر كان أحرى باتباعه. ثم بسطوا لها حقيقة الأمر وأنبأوها بما يراد بها، فأحست بأن ردها قد أوقعها فى الشرك وأحاط عنقها بالأغلال. فهى لاتملك العدول عن ردها، لأنها كانت تكبر عهدها، وتحترم وعدها، وتعتبر نفسها مَثل الشعب الأعلى الذى به يقتدى وعلى هداه يسير . . . ولكنها لاتستطيع الاستجابة لهذا الاثم فما جشمت نفسها مشاق السفر واحتملت أخطار الاغتراب إلا مرضاة لزوجها فى قبره. وحرصا على حرمة ذكراه. وتكفيراً عن ذنبها فى عجزها عن الثأر من قاتله. والآن يراد بها أن تقدم على الزواج من غيره. وتستبيح لنفسها العدوان على ذكراه · فما أحرج المأزق وما أضيق السبيل إلى الخلاص منه . . ؟

والتزمت الصمت قليلا. ومر بخاطرها طيف زوجها الذى فجعها فيه جشع أخيها، فحركتها الذكرى إلى الحنين إليه والتأسى عليه. وشاع الحزن فى نفسها، ودب الدمع إلى عينها، فحاولت حبسه، ولكنها انفجرت باكية ترثى زوجها، وتندب مصيرها. وكل جارحة فى جسمها تنضح

لوعة وتفيض ألما . ثم طلبت إليهم أن يمهلوها ثلاثة أشهر تشبع فيها رغبتها فى التأسى وحنينها إلى تقديس الذكرى .

وقبل انتهاء الأشهر الثلاثة أقامت فى أحد الميادين كومة وقيد كبرى . وأشعلت النار فيها — على مرأى من شعبها — وقدمت لها القرابين من شياه وثيران . فلما التهمت النار ضحيتها تقدمت « إليسا » إلى كومة الرماد الذى خلفته النار وارتقتها والسيف إلى جانبها ، ثم اتجهت إلى الشعب الذى كان يحوطها ويلتف حولها وألقت عليه نظرة ملؤها الحسرة والألم وقالت :

« تطلبون إلىّ أن أذهب إلى زوجى .. فها أنذا ذاهبة ؟؟

ثم استلّت سيفها من غمده ، وغيبته فى صدرها . وخرت على الأرض جثة هامدة ملطخة بالدماء . !!

هذه هى نشأة قرطاجنة كما روتها لنا أساطير الأولين ، أدى إلى تأسيسها وفاء الزوجة لزوجها . والحرص على البر بوعدها والوفاء بعهدها . . . فلنمض إلى سيرة حياتها ومصير جهادها — كما يحكيه لنا علماء الاجتماع وأهل التاريخ — لنرى ما تُفضى اليه الجهود الجبارة عند من يُعوِزه احترام

النفس ، وينقصه إكبار الكرامة . ولتتكشف لنا نواميس البقاء فى تنازعه . وتتبدّى أمامنا قوانين الجهاد فى انتصاره وإخفاقه . ولتتضح لنا مكانة « البواعث » من مصير كل كفاح ، ولنعرف بعد استعراض هـــذه المأساة نصيب مصيرها من العدالة وحظه من الأنصاف .



كيف كان يحيا أهلها

تجارتهم — أسطولهم البحرى — صفاتهم رجالا ونساء —
بيوتهم — حضارتهم — اتصالهم بالمصريين والاغريق —
دينهم — ماديتهم — زواجهم — جيشهم
- نظام حكمهم -

شبّت قرطاجنة ودب النضوج فى جسمها. وراحت بحكم موقعها تتجر مع البلاد الدانية والبقاع القاصية. حتى أصابت الغنى الذى ملأها شعوراً بتفوقها على جيرانها. ومال بها إلى الجور على أملاكهم، والسعى لاستعمار بلادهم.. وقد دفعتها طبيعة حياتها إلى بناء أسطول بحرى هيأ لها سيادة الدنيا بأسرها فى فنون التجارة والملاحة. فترامى اسمها إلى سمع الناس فى مشارق الأرض ومغاربها. حتى أقبلوا عليها من مختلف البقاع وشتى الأجناس. ولو قدر لك أن تتجول فى طرقاتها

لرأيت أخلاطاً عجيبة من مصريين وسودانيين ويونانيين وقرطاجنيين وبرابرة وأسبان ... على أن فى وسعك أن تميز القرطاجنى من بين هؤلاء جميعاً من غير جهد ولا مشقة . فهو يطالعك بشعره القصير ولحيته الطويلة ووجهه الناطق بالطيبة . ويقبل عليك فتأخذك الروائح العطرية المنبعثة من جسمه . وتدهشك الجواهر الثمينة التى يحلى بها نفسه ..! ويزيدك معرفة به غطاء رأسه الشبيه بطربوش العمامة عندنا . وحذاؤه الذى يماثل « الصندل » فى وقتنا الحاضر . وثوبه الفضفاض المهلهل الذى كان يشبهه الرومان بلباس الحمام ..! كل هذه دلائل تنم عنه ، مشيرة إليه ، دالة عليه .وإن كانت طبقتا الأثرياء والعبيد تختلفان عن هذا الوصف اختلافاً يبرره التفاوت فى المال . فالأغنياء يتشبهون بالأغريق — والمصريين فى أول أمرهم — ويحتذون مثالهم . ويلتمسون عندهم وسائل الظهور بمظهر الأرستوقراطية والترف . ويترفعون عن الاتصال بغيرهم من عامة الناس . أما العبيد من أسرى الحروب فتنطق وجوههم بآيات الضنك ومعالم الضعة ..

أما النساء فهن فى مستوى العبيد والخدم أو ما يقرب من ذلك . فاذا استثنيت الثريات اللائى يحاكين الأغريقيات فى مظهرهن ويتاح لبعضهن العمل مع الرجال فى المراكز الملحوظة فى الكهنوت ، عرفت أن القرطاجنيات تثقلهن الواجبات وتعوزهن الحقوق — شأن النساء فى جميع الشعوب التى ينقص النضوج نهضتها — على أن أهم ما يلفت نظرك إليهن ، ويشغل ذهنك بهن : جواهرهن الكريمة وروائحهن الزكية .

فاذا تركت المارات والمارين فى مسيرهم ، وتيامنت بنظرك أو تياسرت ، لراعتك كثرة المحال التجارية والحوانيت الشبيهة بالصوامع تملؤها السلع وتكظها البضائع . وقد جلس فيها ملاكها متربعين يساومون عملاءهم فى تباطؤ وإسراف من غير ملل ولا يأس .

فاذا ضقت بهذه الشوارع الضيقة التى لا يكاد نور الشمس أن يهتدى إليها ، وتسللت إلى البيوت لتعرف ما تنطوى عليه من ناس وأحداث ، رأيتها مقامة من حجر تعلو فى الجو ست طبقات أو أكثر من ست فى سقوف مسطحة ونوافذ من خشب . وأدهشك ازدحامها

بالسكان وامتلاء الحجرة الواحدة بأسرة كبيرة يتكدس أفرادها بين جدرانها كما تفعل النمال فى جحورها . يفترشون أرضها كلما ناموا حتى يحين موعد العمل .

على أن البيوت تمايز فى مستواها بتمايز الأحياء — شأن سائر المدن فى مختلف العصور — فانك إن مضيت إلى حيث يقيم الأغنياء فى « حى مجارا » طالعتك آيات العز ومعالم الترف وروائع الفن . فترى فى البيوت آثار الحضارتين : المصرية والأغريقية . إذ كان أهل المدينة يفزعون إلى مصر أول الأمر يلتمسون عندها ما يشاءون من مظاهر الحضارة . ثم جنحوا إلى بلاد اليونان يستعيرون منها ما يلائم ثراءهم ويوافق ترفهم ويناسب عزهم . . . وعلى هذا عاشوا حتى قضوا نحبهم . فلم يعرف لهم تاريخ الفكر أدباً خلفوه ولا علماً تركوه . اللهم إلا وصف رحلة إلى المناطق الحارة فى إفريقيا وكتاب يتضمن معلومات عامة عن الزراعة . أما فيما خلا هذين الأثرين فقد كانوا ينقلون . . فى غير حماس فلا يحسنون النقل .

فان أقمت بينهم عرفت أن لهم ديناً يتمكن من نفوسهم ويتسلط على أرواحهم ويتحكم فى الكثير من مظاهر حياتهم .. كانوا يقدمون لمعبودهم الأكبر Moloch أو Baal Hamman الضحايا عن سعة لا تعرف تردداً ولا إبطاء . وقد سجل التاريخ كثيراً من هذه المآسى المروّعة . فقد قدموا للنار حين حاصر أمتهم أجاثوكل Agathocles قائد الأغريق مائتى طفل من أنبل الأسر وخف ثلاثمائة رجل إلى التطوع يومئذ فرحين لأنهم سيكونون قرباناً للمعبود الأكبر، عساه أن ينقذهم مما هم فيه من ضيق .. ! وتقديم الأطفال للنار على مذبح المعبود كل عام كان من أقوى العادات الدينية الشائعة بينهم (الصورة ص ٢٣) وثمة آلهة أخرى لا نرى بأساً فى إهمال الحديث عنهم ...

وستعرف قبل أن تبرح البيوت أن الزواج بالأجنبيات قد فشى بينهم، وإن غلبت عليهم عادة الاكتفاء بزوجة واحدة ، وأن الجو الذى يتنفسه الأولاد منذ الصغر كان يغريهم بحب المال. ويصور لهم الذهب كأعلا مُثل الحياة وأنبل ما فيها من مطامح .. ! فكان طبيعياً أن تنتشر الرشوة بينهم . وقد بلغ من شيوع هذه العادة عندهم أن



وكان الآباء والأمهات يقدمون للنار فى كل عام أطفالهم الأطهار الأبرياء راضين مختارين . . !!

كان العرش والقيادة بين ما يباع ويُشترَى من الوظائف فى مجلس الشيوخ — صاحب الحق فى الهيمنة على شؤون البلد كما ستعرف الآن ... بل أفضت بهم عبادة المال إلى الاستغناء عن جيش ثابت يحفظ كيانهم ويرد عادية أعدائهم،فان أكرههم نضال الحياة على قتال شعب من الشعوب استأجروا له من الجنود المرتزقة ما يقوم بقتاله، حتى يلزمه الطاعة ويكرهه على الخضوع. فاذا انتهت الحرب انحلّ الجيش ولم يبق فى الأمة إلا ثلة من الشرطة تتولى حفظ الأمن العام.. !!

وقد تهيأ لقرطاجنة بمرور الزمن نظام للحكم عرض له بالثناء أرسطو فى كتاب السياسة. فتولى أمرها :

(١) ملوك يرتقون الحكم بالانتخاب — لا بالوراثة ولا بالأقدمية. وإن كان شرطهم الأول أن يكونوا قد انحدروا من أسر ممتازة. وكانت سلطتهم ضيقة النطاق ونفوذهم خافت الصوت. وإن خلو تاريخ البلد من طاغية يحكم بأمره لشاهد صدق على ما نقول.

(٢) ويليهم فى المرتبة قادة الحرب. وكانوا ينوبون عن الملوك إذا خلا العرش منهم. بل كانوا يشغلون

الملكية والقيادة معاً فى بعض الأحايين .

(٣) ويليهم مجلس الشيوخ Senato بهيئتيه: البرلمان أو الهيئة التشريعية كما نسميها اليوم. ويأتلف من ثلاثمائة عضو بينهم رءوس الأسر الممتازة بالثراء . ومجلس آخر يمثل الوزارة أو الهيئة التنفيذية فى عصرنا . وهو خمسون عضواً ينتخبون من بين الهيئة الأولى — وتاريخ نظام الحكم فى قرطاجنة يقول إن مجلس الشيوخ كان لا يساير الزمن ولا يتكيف بتطوراته .

(٤) ثم مجلس عام للشعب يتولى النظر فيما قد يعرضه عليه مجلس الشيوخ من جلائل المسائل والمشكلات. وكانت سلطته محدودة ورأيه استشارياً .

وربما عرفت من هذا الوصف أن السلطة الفعلية فى حكم البلد كانت فى يد مجلس الشيوخ الذى تسلطت عليه طبقة الأشراف أى أرباب المصالح وأصحاب الأموال . وسنرى أثر هذا بيّناً فى توجيه السياسة أيام هانيبال . . .

هذا طرف من أساليب العيش وألوان الحياة عند أهل قرطاجنة . ذكرناه فى إيجاز لعله يعيننا على فهم هذا الشعب واستيعاب نفسيته . وتقدير المصير الذى ينبغى أن ينتهى إليه إذا اتقدت نار الكفاح

نشأة روما ونموها

أقبل النصف الثانى من القرن الثامن قبل الميلاد على مليك «ألبالنجا» Alba Langa — إحدى مدن اللاتين — وهو فى تأهّب للقاء ربه . فلما وافته المنون اغتصب مُلكه ابنه الصغير أموليوس Amulius وتولى الحكم على كره من أخيه الأكبر نوميتر Numitor . وكان لهذا الأخير ابنة قد تهيأ لها من الجمال الناطق ما أغرى بها أبناء السماء . رآها ذات يوم إله الحرب : مارس Mars فهويها وأحبها ولبث فى عشرتها حتى رزقت منه بطفلين : رميلس Romulus وريمس Remus . فأمر المليك بوضعهما فى سلة وإلقائهما فى نهر التيبر عسى أن يموتا غريقين . ولكن الأقدار شاءت أن يفيض النهر وأن تحمل مياهه السلة إلى تل على الشاطىء . وتستقر بالطفلين على أديم

الأرض على كتب من شجره تين . وأن تفِـد على هذا المكان ذئبة ظمأى فتحمل السلة إلى كهفها، وتقوم باطعام الطفلين وأداء ما تستقيم به حياتهما من مطالب . وهمَّـت الذئبة ذات يوم بارضاع الطفلين ، فمر بها راعى نوميتر (المليك الذى اغتصب حقه فى حكم البلاد) فانزعجت الذئبة وولّـت هاربة . فحمل الراعى الطفلين ، إلى بيته . وأودعهما فى رعاية زوجته وأبنائه . فشبّـا يحملان لهذه الأسرة الحب والعطف والتقدير ، حتى إذا اعتدى على رب الأسرة أحد رعاة المليـك أموليوس Amulius اهتزت النخوة فيهما ، واتقد الغضب فى نفسيهما، وانطلقا إلى الباغى ليسوماه العذاب . ولـكن ريمس Remus قد وقع فى كمين أعده لهما العدو وحمل إلى مدينة ألبالنجا ، ومثل بين يدى المليك الذى راعه نبل مظهره فسأله عمن يكون . وعرف منه أنه حفيد أخيه الذى أمر بالقائه فى اليم يوم وُلد . . ! وكان الراعى قد انطلق فى صحبـة رميلس Romulus وعدة من رجاله إلى إنقاذ الأسير من أيدى الأعداء . واشتبك الفريقان فى عراك عنيف أبدى فيه رميلس من البسـالة ما مكنه من أن يصيب

النصر ويأسر المليك ويستل أنفاسه من صدره . ويقيم على البلاد نوميتر — جده وصاحب الحق الشرعى فى حكمها — فلما استوى الملك الجديد على عرشه أخذ يهيء لحفيديه (رميلس وريمس) حياة تفيض بالخير والعز والهناءة . ولكن سرعان ما أحسّا الملل من هذا العيش الهنيء . وجنحا إلى حياة تحفها الأخطار وتحوطها المكاره . فوطّنا العزم على العودة إلى التل السالف الذكر — مدرج حياتهما الأولى ومهد طفولتهما الملأى بألوان الضنك والضيق — وشدّا الرحال إلى هذا المكان وعقدا النية على أن يقيما فيه مدينة تحمل اسم واحد منهما . فأصر كلاهما على أن يكون هو صاحب هذا الاسم . واتسعت بينهما فرجة الخلاف ، ثم عادا للاتفاق على أن يكلا الأمر لآلهة السماء . وانتظرا ما تشير به الآلهة . ثم زعم ريمس ذات يوم أنه رأى فى السماء ستة نسور تحلق فى الجو . وبينما رميلس ينصت لحديث أخيه إذ لاحت منه التفاتة إلى السماء فرأى فيها اثنى عشر نسراً تحوم فى فضائها العريض . فاعتبر هذا إذناً من الآلهة باطلاق اسمه على المدينة الجديدة . وهمّ ببنائها من غير

تردد ولا تباطؤ . فأقام أكواخاً فى مساحة تبلغ الستة أميال مربعة، وأحاطها بسور يحميها عادية الأعداء ، وأطلق عليها اسم «روما» وكان ريمس مغيظاً محنقاً فتخطى السور هازئاً وهو يقول : أهذا هو السور الذى أقمته ليحمى مدينتك ، ويقيها بغى المعتدين ويصد عنها عدوان المهاجمين . . ؟ فاتّقد أخوه غضباً واستحلّ دمه وطعنه طعنة أردته على الأرض قتيلا . . (الصورة ص ٣١) ودفنوه على كثب من شاطىء التيبر . فكان هذا أول دم أريق على أرض روما .

وتولى رميلس حكم مدينته ، واهتم بأمرها ، وبذل الجهود الجبارة فى تعميرها ، وإغراء الناس على العيش بين جدرانها ، فجعلها ملاذاً للمجرمين وملجأ للهاربين من عبيد جيرانه . فقويت المدينة واشتد بأسها وكثر أهلها . ووضحت الحاجة إلى وجود نساء بها . فأرسل ملكها إلى الجيران ينشد مصاهرتهم . فأبوا عليه ذلك إباء شديداً . وعافوا أن يكونوا أصهاراً لعصابة من اللصوص والمجرمين . فضاق الملك بهذا وخشى أن يؤدى خلو مدينته من النساء إلى خرابها العاجل . فهدته الحيلة إلى

خير وسيلة تمكّنه من الظفر بهذا الجنس الذى لا تحلو الحياة بغيره، ولا يستقيم العيش من دونه. فأعد حفلا يقوم فيه رجاله بضروب من الألعاب الغريبة الجذابة. ودعا إلى الحفل جيرانه من قبائل السابين Sabine فأقبلوا على مشاهدة هذا الحفل فى صحبة نسائهم كما كانت تقضى التقاليد عندهم. وأكرم أهل المدينة وفادتهم، وبالغوا فى الترحيب بهم والاحتفاء بمقدمهم، وساروا فى صحبتهم يطلعونهم على أسوار المدينة وبيوتها وسائر ما بها. حتى إذا فرغوا من هذا مضوا بهم إلى الحفلة ليشاهدوا الغريب من الألعاب. وبينما الحفلة قائمة تثير فى نفوسهم الأعجاب باللاعبين، وتستهوى أفئدتهم وتستوعب شعورهم إذ برميلس يشير إلى رجاله إشارة خفية فينقضون على المدعوين بسيوفهم، يثيرون الرعب فى قلوبهم، وينشرون الجزع فى نفوسهم حتى ولّى الضيوف الأدبار. فاستولى أهل المدينة على بناتهم ولاذوا بهن فراراً...

ثم جمع الملك كافة من أسر رجاله من فتيات. واعتذر إليهن عن قسوته فى الظفر بهن. مبرراً موقفه بكبرياء آبائهن الذين رفضوا المصاهرة فى تعنت



«فاتقد أخوه غضباً واستحل
دمه وطعنه طعنة أردته على الأرض
قتيلا . . . »

وإصرار . ثم أخذ يصب الاطمئنان فى آذانهن . ويغريهن بحياة الزوجية وما تنطوى عليه من ضروب النعيم وألوان السعادة . ويعدهن بالحرص على ما يكفل لهن الهناءة حتى انتزع من قلوبهن الجزع ، واستل من نفوسهن الوهم والفزع . .

ولكن آباء الفتيات كانوا يتميزون غيظاً لهذه الخيانة الفاجرة . ويهتزون من فرط الغضب لهذا الغدر الذى أفقدهم فلذات أكبادهم . فجيشوا جيوشهم وجمعوا جموعهم وانطلقوا إلى روما لاسترداد بناتهم ، وغسل الأهانة التى لحقت بهم . . وثارت الحرب فى عنف بالغ وقسوة فائقة . وانتصر الرومان فى بدايتها فحمل رميلس أسراه وغنائمه ومضى بها إلى الكابيتول ، وأقام معبداً للأله جوبيتر قدم له الضحايا والقرابين . . ولبثت الحرب قائمة تلتهم المقاتلين عن سعة حتى تهيأ النصر للسابين، واستولوا على قلعة روما فاشتعل رميلس من وقدة الغضب وانطلق كمن به مس من الجنون ينشد العون من جوبيتر ، ويميل على رجاله فى هياج بالغ ويبث الحماس فى نفوسهم حتى اتقدت الحرب ناراً حامية، تتأجج فى غير

رفق ولا رحمة . وبينما الرءوس تطيح والجثث تهوى على الأرض فى غير انقطاع أو اتئاد إذ بالنساء فى روما وقد انطلقن إلى ميدان القتال وألقين بأنفسهن وسط السيوف والخناجر ، ضارعات باكيات يلتمسن إيقاف الحرب لأن فيها قتل أزواجهن أو هلاك آبائهن . وليس فى أحد هذين المصيرين ما يرضى عواطفهن... وأخذن يوَلْوِلن قائلات للمقاتلين من كلا الجانبين: إنا لنؤثر الموت الزؤام على العيش الهنىء أرامل من غير أزواج. أو يتيمات من غير آباء . . . . وساد الصمت ميدان القتال ، ونشر السلام أجنحته . واستلّ من القلوب الضغائن والأحقاد . . . وكان شياطين الجحيم ملائكة رحمة وصفاء (الصورة ص ٣٥)

ثم استكان السابين للرومان . وخضعوا لزعامتهم وساروا فى ركابهم مختارين . فازدادت روما قوة ومناعة وتألق اسمها بين جيرانها . واستقرت على الأرض قدمها وامتدت إلى الأفق البعيد مطامحها وآمالها . ولبث رميُلس يتولى حكمها أربعين عاماً حافلة بغنائم الحرب وخيراتها . ثم جمع شعبه فى ساحة القتال ذات يوم فثارت ريح

صرصر عاتية أظلمت الجو وأحالت النهار ليلا داكناً . فولّى الشعب الأدبار حتى إذا سكنت العاصفة عاد إلى الميدان يلتمس مليكه رميلس فلم يعثر له على أثر . . لقد حمله أبوه « مارس » إله الحرب فى عربته إلى السماء . . .

ثم ظهر رميلس لأحد رجاله ذات يوم وقال له : قل لشعبي أن يكُفّ عن البكاء فى طلبى . وأن يعيش ما امتدت به الحياة يهوى الحرب ويعشق النضال . فبهذا وحده تنال المدينة حظها فى القوة ونصيبها فى العظمة وتضحى سيدة الدنيا بأسرها . . . فان رغب الشعب عن حياة الكفاح الممِضّ أفل مجده وغربت شمسه واضمحل بين الشعوب اسمه . . .

عرف الشعب أن زعيمه قد بات إلهاً . . فأقام له معبداً وراح يقدم له الضحايا والقرابين . ويسعى جاداً لتحقيق مطلبه فى سيادة الأرض فى شتى آفاقها . ومختلف ساحاتها . .

هذه هى نشأة روما كما روتها لنا بعض أساطير الأولين . أدى إلى تأسيسها ميل عن العيش الرغيد والنعيم الموفور . وإيثار حياة تحفها الأخطار وتهددها المكاره . . .



انفجر بركان الحرب من اجل
النساء . . . وبقدرتهن ساد السلام
ميدان القتال . . . فكان أبالسة
الجحيم ملائكة رحمة وصفاء . . !!

ويتبدى لنا من استعراض المرحلة الأولى من حياة روما ما كان عليه أهلها من بسالة وقوة . وما كان يضطرم فى نفوسهم من الحرص على وجودهم . والميل إلى العدوان على جيرانهم . والرغبة فى تهيئة الجو الملائم لمطامحهم وآمالهم . ولو تخطوا الحدود وامتهنوا الحقوق وانتهكوا الحرمات . ؟ ولم لا . . ؟ إن روما قد تولى بناءها ابن إله الحرب . . وكانت آخر وصية أوصى بها أفراد شعبه بعد أن رفعه أبوه إلى السماء أن يعيشوا عباد حرب وقتال . وأنذرهم بسوء المصير إن جنحوا عن التزام هذه النصيحة ـ وفى الحق لقد سجل التاريخ صدق هذه النبوءة . فقال إن روما قد تأهبت للغروب شمسها ، وتهيأ للمغيب مجدها ، ودبت إلى جسمها الشيخوخة حين شملتها رفاهية أدت بشعبها إلى احتقار الحرب والميل عن الانخراط فى سلك الجندية ، واعتبار مثل هذه الأمور من شأن العبيد والأسرى وحدهم .

على أن الرومان قد حرصوا على التزام الوصية التى أوصاهم بها زعيمهم مدة طويلة من الزمان . فلبثوا يثيرون العِثير فى وجوه جيرانهم . وينشرون الجزع فى بلادهم .

بين الرومان والغاليين

ولا يضير الاقطاع أن تبقر
البطون وتراق الدماء . .



حتى تمكنوا من الظفر بمقاطعة « اتروريا Etruria » فى شمال بلادهم . ثم قاوموا أهل الغال الذين زحفوا من شمال نهر البو وهاجموا روما وعاثوا فى أرضها فساداً
(وفى صفحة ٣٧ صورة تمثل مظهراً من مظاهر هذا العداء بين هذين العدوين)
ثم عاد الرومان إلى قتالهم وصراع من انضم إليهم من أهل اتروريا وبلاد الأغريق وغيرهم .

وكانت تارنتوم Tarentum بجنوبى إيطاليا لم تخضع للرومان بعد. واستعانت عليهم بالأغريق. فخفّ لنصرتها بيروس Pyrrhus مليك إيبيروس Epirus - إحدى مقاطعات الأغريق - (الصورة ص ٣٩) وصارع الرومان صراعا عنيفا تبدّت فيه شدة مراسهم وصلابة قناتهم ورصانة كفاحهم . فلما واتاه النصر فى موقعة هرقله أرسل إليهم رسله يعرضون الصلح ويطلبون إيقاف الحرب. وعرض الرسل هذا المطلب فى مجلس الشيوخ الرومانى . ومال بعض الأعضاء إلى التسليم به والرضا عنه . فروّع هذا الموقفُ «أبيوس كلوديوس كايكس » Appius Claudius Caecus وهمّ بالاعتراض فخانته قواه ولم يقوَ على النهوض، لأنه كان رجلا مُسِنا حلّت الشيخوخة جسمه. وأوهن

وبلغ « تارنتوم » قائد
الاغريق يحمل معه أطماعه التى
لا تحد . . .



لهرم عظامه . فحمله بعض الأعضاء إلى منصة الخطابة وانطلق فى شيخوخته البادية يستفز المجلس ويستثير نخوته. ويستنكر مرضاته عن مطالب العدو، ويطالب الأعضاء باثارة الحرب الضروس قائلا لهم : « ينبغي أن يكون ردنا على مطلب الأغريق : أن إيطاليا بأسرها ملك لروما وحدها، وروما لا تأذن لعدو من أعدائها ، أن يقدم على التفاوض مع نوابها ، وقدمه لا تزال على أرضها.. . » الصورة ص ٤١

فاستجاب المجلس لرأيه . وعاد النضال عنيفا قويا حتى انتهى باخفاق « بيروس » وسيادة روما على إيطاليا بأسرها

واتسعت رحاب الأمل وامتدت آفاق الطموح . وأحست روما بأن نبوءة معبودها (رميلس) فى سيادة الدنيا بأسرها قد آن لها أن تتحقق . . لا بل هى قد تحققت فعلا فليس على ظهر الأرض كلها أمة تعدلها الآن قوة وعظمة ونفوذاً . . وإن أهلها لعباد حرب وأبناء نضال . فلن يأذنوا لشعب تظله السماء أن يهدد سيادتهم أو ينازعهم سلطانهم إلا إذا باتوا كلهم جثثا هامدة وأشلاء متناثرة . .

فى مجلس الشيوخ الرومانى :

« أبيوس كلوديوس » الطاعن فى السن يحمله الأعضاء الى منصة الخطابة ليخطب قائلا :
« ينبغى أن يكون ردنا على الأغريق : ان ايطاليا بأسرها ملك لروما وحدها . وروما لا تأذن لعدو من أعدائها ، أن يقدم على المفاوضة مع نوابها ، وقدمه لا تزال على أرضها . »



وإذا لم يكن على سطح البسيطة كلها أمة تقوى على صراعهم حتى تفنيهم وتهيل التراب على أجسادهم ، فأى شعب هذا الذى سيقدر له أن يستجيب لوسوسة الشيطان الخناس ، ويلقى بنفسه إلى جحيم النضال مع الرومان .. ؟؟



هذا هو الشعب !

موقع قرطاجنة — زراعتها — ملاحتها — تجارتها وآفاقها — ملاءمة الشعر لطبيعة الأقوياء — بعثاتها لاستكشاف المناطق المجهولة — مستعمراتها فى افريقيا الشمالية — فى صقلية — احتكاكها بالاغريق فى صقلية — أجاثوكل — بيروس — طبيعة القرطاجنيين

وشاء ربك أن تكون قرطاجنة أجمل ثغر على شاطىء إفريقيا الشمالية يهيمن على اتصال الشرق بالغرب، فيبسط لأفريقيا يمناه، وينشر لأوربا يسراه. ويجمع من كليهما مافاض عن حاجته فتحمله سفنه وتمضى به إلى حيث يشتد الطلب عليه، وتمس الحاجة اليه .

وكان نهر مجردا Mejerda ينساب على كثب من المدينة ويتدفق فى أرضها، يسقى مواتها ويمد بالحياة أرضها، فاهتزت الأرض وربت وأنبتت من كل زوج بهيج .

ومضى أهل هذا البلد الأمين فى ركب الحياة. منشغلين بالتجارة منصرفين إلى الملاحة ، يشتد بهم الطمع ويتسع أمامهم أفق الأمل. فيضربون فى آفاق الأرض ويسيرون فى مناكبها وينتشرون فى فضائها حتى يبلغ بهم التجوال ساحل إفريقيا الجنوبى، ويستقر بهم عند ما نسميه اليوم رأس الرجاء الصالح وسيراليون جنوبا . وينتهى بهم التطواف إلى التوغل فى أسبانيا وفرنسا وانجلترا شمالا .. ! وقد استطاعوا بهذا أن يستوردوا العاج والجلود من ليبيا، والعبيد من السودان، والأرز من مصر ، والبخور واللبان من بلاد العرب، والنحاس من قبرص، والحديد من إلبا، والصفيح من كورنوول cornwall بانجلترا . والنبيذ من بلاد الأغريق ، والفضة من أسبانيا ، والذهب والأحجار الكريمة من جزائر ملابار Malabar والشمع والعسل من قورسيقه ، والراتينج من شمال إيطاليا ، والكهرمان من البلطيق ، والكبريت من صقلية . . .

وهكذا استغلت قرطاجنة خصوبة أرضها ووفرة منتجاتها وخبرتها بالبحرية ونبوغها فى الملاحة ومهارتها فى التجارة حتى أقبل عليها الغنى وأدركها الثراء ، ودفع طموحها للتحليق وحرك جناحيها الطيران .

وإذا دبت القوة فى شعب من الشعوب اندفع بطبيعته إلى الجور على حقوق الضعفاء من جيرانه، والسعى فى مناكب الأرض طلباً للاستعمار والعدوان، ورغبة فى الفتك بمن لا يقوون على احتمال هجومه، ليغتصب ملكهم ويتسلط على أموالهم وينعم فى ظلال خيراتهم. ولو حاول القوى أن يحرص على حقوق الضعفاء ويلتزم حياة الدعة والهدوء، لكلف أمراً لا تحتمله طبيعته ولا يتمشى مع فطرته..! فالطبيعى أن يوجد فى الدنيا بغى وظلم واستعمار وفتك وعدوان. وغير الطبيعى حقاً أن تخلو الحياة من هذه الظواهر الكريهة وفى الدنيا قوى وضعيف..!! وقد أحست قرطاجنة — بعد أن أصابت الغنى — بأن القوة تدب فى كيانها، فمالت بطبيعتها إلى الجور على الضعفاء من جيرانها.. وأرسلت بعوثها تعمل — بأمر الحكومة — على استكشاف المناطق المجهولة. وإقامة المراكز التجارية فى رحابها. واستعمار البلاد الضعيفة وامتصاص الرزق من نتاج أرضها وجهود أبنائها (الصورة ص ٤٧) وقد خلفوا فى معابدهم وصفاً لبعض هذه الرحلات وتحديد المواقع التى مروا بها، وأقاموا سلطانهم فى ميادينها.

وقد تمكنوا بعد حروب أثاروها فى وجه القبائل المجاورة لهم أن يسيطروا على شاطىء إفريقيا الشمالى كله — على وجه التقريب — وإن أقاموا على سداد إيجار الأرض التى أسسوا عليها مدينتهم حتى جاء عصر هسدروبال وهملكار — واستطاعوا أن يتخطوا البحر إلى صقلية وينشروا طيلسانهم على الجناح الغربى منها، فيدرّ عليهم الخير الوافر والرزق الواسع.

وقد كانوا فى استعمارهم قساة غلاظ الأكباد، لا يحتلون بلدا إلا فرضوا الذل على أهله، ووضعوا يدهم على كافة ما تنتجه أرضه. وأخذوا يمتصون ماله ويرتشفون خيراته حتى يصيبه الفقر ويدركه الضنك. فدرّت عليهم هذه الطريقة الذهب الكثير والمال الطائل — وإن دفعوا ثمنها باهظا حين شغلتهم الحروب مع أعدائهم الأقوياء فيما بعد.

وقد تهيأ لقرطاجنة هذا السلطان الواسع النطاق دون أن يكون لها جيش من أبنائها، يتولى الذود عن كيانها، والسعى لتحقيق أطماعها. فقد كانت تعتمد — كما ألمعنا من قبل — على الجنود المرتزقة تستأجرهم بالمال، وترسلهم إلى الميدان حتى إذا وضعت الحرب أوزارها، سرحت الجيش وعاشت قانعة بقوة من الشرطة تقوم بحفظ الأمن العام.



وانتشرت بعوث القرطاجنيين فى مناكب الأرض لاستكشاف المناطق المجهولة ، واستعمار البلاد الضعيفة ، وامتصاص الرزق من نتاج أرضها وجهود أبنائها . .

ولكن لاينبغى أن ننسى أن هذه الجنود المرتزقة كانت تواقة للدم نزاعة للشر محبة للقتال . ولهذا كانت خطرا يهدد الأعداء . . . وبقوتها سارت قرطاجنة فى مشارق الأرض ومغاربها حتى انتشر اسمها، وعلا فى الآفاق ذكرها، واستقر فى مختلف البقاع سلطانها .

وقد عرفت أن قرطاجنة قد عبرت البحر إلى صقلية واستقرت فى جناحها الغربى. ولكن الأغريق قد خفوا بعد قرنين من الزمان — إلى صقلية وراحوا ينشرون على أرضها عَلمهم. ويخضعون مدنها وثغورها لسلطانهم. ثم ساروا غربا وهددوا الجناح الصغير الذى تسوده قرطاجنة. فانتظرت هذه حتى إذا هاجم الفرس بلاد اليونان اغتنمت الفرصة واشتبكت مع الأغريق فى صقلية فى قتال عنيف، طال أمده واشتد عذابه بين انتصار واخفاق، ويأس ورجاء حتى تولى أمر الأغريق أجاثوكل Agathocles ولازمه النصر حتى فكر فى غزو قرطاجنة، فمضى إليها وقرع أبوابها وشدد الحصار على أهلها وكاد أن يلزمها طاعته . ولكن القرطاجنيين دحروه وأكرهوه على التفكير فى الهرب. وعلم بذلك جيشه فثار عليه وتولى قتله بنفسه

ثم قاومت قرطاجنة أقوى قادة الأغريق وأخطرهم شأناً: «بيروس» Pyrrhus الذى كان لا يقنع بما أصاب سلفه الأسكندر الأكبر من مجد وما استحوذ عليه من نفوذ، ويأبى إلا أن ينشر على الدنيا بأسرها سلطانه. ودامت الحرب بينه وبين القرطاجنيين فى ميادين صقلية حتى انتهت باخفاقه واضمحلال آماله، فعاد إلى وطنه إيبروس — إحدى مقاطعات الأغريق — مغيظا محنقا.

ودب الغرور فى قرطاجنة وملأ أهلها شعورا بالقوة واعتزازا بالنفس واطمئنانا من خبايا المستقبل.

***

وبهذا وُجد الشعب الذى تدفعه طبيعته وتسوقه ظروف حياته إلى نضال الرومان... حقيقة هو شعب تجارى يتخذ الحرب أداة لفتح الأسواق واستعمار البلاد وجلب الذهب وتهيئة الجو المشبع بالغنى والثراء. ولكنه يستطيع بأمواله الطائلة أن يستأجر من الجيوش الجرارة ما يكفل له السيادة ويضمن لسلطانه الذيوع، ويهدد الرومان بالويل العظيم والشر المستطير.. ولكن أين يكون احتكاك الشعبين..؟؟



والتقت عند أرض صقلية مطامع العدوين. . . . . فويل للمغلوب . .

أصلح الميادين للاحتكاك

اخفاق بيروس ـ خواطره يوم أقبل على صقلية ـ محاورته مع سنياس الفيلسوف ـ موقع صقلية بالنسبة لقرطاجنة خطورتها على روما معاهدات الود بين القرطاجنيين والرومان

انطلقت السفينة تمخر الماء وتشق العباب حاملة بيروس Pyrrhus بعد أن استنفد الجهد فى الظفر بصقلية، واستفرغ الوسع فى التسلط على موارد الرزق فى مدنها، والتمتع بخصوبة أرضها ووفرة نتاجها واعتدال جوها

والانتفاع بموقعها ، ولكنها امتنعت عليه فارتدّ إلى بلاده كسيح الأمل واهن الرجاء — على نحو ما عرفت من قبل .

مضت السفينة فى طريقها ورأسه يزدحم بذكريات جهاده وصراع أسلافه من حكام الأغريق وقادتهم . طافت بخاطره آماله يوم أقبل على هذه الجزيرة موفور الرجاء فى امتلاكها، والتسلط بعدها على قرطاجنة وروما ، والظفر بسيادة الدنيا وجعْلها فى حوزة الأغريق . . . وإنه ليذكر المحاورة الممتعة التى دارت بينه وبين ناصحه الفيلسوف سنياس Cineas ويذكر كيف حاول هذا أن يصور له الحياة أبسط مما يفهمها أهل الحرب وعباد النضال ، ليثنى عزمه عن السعى لتحقيق هذا الحلم الذى يطرف بخاطره ويشغل قلبه وعقله معاً (١)

إنه ليذكر هذا ويلتفت وراءه فتصافح عينه شواطىء صقلية وهى تهمّ بالاختفاء عن ناظريه ، فيردّ بصره وقد

---

(١) لا بأس من أن نورد المحاورة فى إيجاز :

سنياس ـ ان الرومان يامولاى أهل حرب وأبناء نضال . وان علمهم ليخفق على بقاع رحبة الآفاق . فلو قدر لنا أن ندحرهم ونلزمهم طاعتنا فماذا نستفيد من انتصارنا . . ؟

اهتز كيانه من فرط الأسى وفيض الألم ولذعة الإخفاق. قائلا لرفاقه : « ما أروعها من حلبة للصراع نتركها بين قرطاجنة وروما »

وكانت صقلية تمتاز — إلى جانب ما أسلفناه لك في مستهل هذا الفصل — بموقع لا نظير له في ربط

بيروس ـ سؤال سهل الجواب . لن يقو على الوقوف في وجهنا بعد اندحارهم اغريق ولا برابرة . فنسود ايطاليا بأسرها من غير منازع . ونصيب ثراءها الطائل ، ونحمل اسمها الذائع ، ونتمتع بعظمتها الفتية . .

سنياس ـ (بعد صمت قليل) واذا استولينا على ايطاليا كلها فاذا نفعل بعد يامولاى . .؟ . . ؟

بيروس ـ على مقربة من ايطاليا تقوم « صقلية » وهي تنشر ذراعيها لاستقبالنا . وهي على ما تعرف من عظمة وثراء . ثم هي في اضطراب واضح منذ مصرع أجاثوكل ـ تعوزها الحكومة وينقصها القادة . .

سنياس ـ واذا قدر لنا يا مولاى أن ندحر صقلية وننشر على أرضها علمنا . أتقف حروبنا عند هذا الحد . . ؟

بيروس ـ ن السماء لتبارك جهودنا . فما الذي يمنعنا من المسير الى افريقيا ، وننشر سيادتنا على قرطاجنة نفسها . . ؟ واذا تهيأت لنا سيادة هذا البلد عدت الى بلاد اليونان وفرضت سيادتي على الأغريق جميعاً . .

سنياس ـ من غير شك . . . ثم ماذا بعد . . ؟

فضحك الملك وقال : ثم نهدأ بعد هذا ونستريح . .

فأجابه الفيلسوف ـ وما الذي يمنعك يامولاى من أن تهدأ الآن وتستريح . .؟!

أوربا بأفريقيا وتيسير الاتصال بينهما . وهذا هو الذى استهوى قرطاجنة وملأ قلوب أهلها بالرغبة فى امتلاكها . ليتيسر لهم إقرار السلطان التجارى وتمكين السيادة البحرية . فكافح الأغريق هذا الكفاح الممض الذى ألمعنا إليه من قبل . ثم امتلأوا بعد النصر إحساساً بأنهم أحق شعوب الأرض قاطبة بامتلاك صقلية بأسرها . . ولكن صقلية لا تبعد عن شواطىء إيطاليا أكثر من ميل أو ميلين . فاذا استطاعت قرطاجنة أن تظفر بها وترفع العلم فى أرضها فقد هددت روما فى إيطاليا وأنذرتها بسوء المصير .

وحقيقة إن قرطاجنة كانت على وفاق مع روما منذ أواخر القرن السادس قبل الميلاد . وأن الصلة بينهما فى صقلية كانت تقوم على معاهدة من الود قد كفلت لكلتيهما الطمأنينة والأمان . ولكننا نعرف أن المصلحة وحدها هى التى تحدد آجال المعاهدات، وتتحكم فى علاقات الشعوب .

***

قرطاجنة فى مقتبل عمرها . وروما فى فتوة شبابها . وصقلية — مفتاح السيادة — لا تبعد عن الأولى أكثر من خمسين ميلا، وعن إيطاليا أكثر من ميلين.. فالنضال بين هذين الشعبين قد أصبح قضاء لا مفر منه ولا حيلة فى رده . . وكان بيروس على حق يوم قال لرفاقه :

« ما أروعها من حلبة للصراع نتركها بين قرطاجنة وروما »

عرفنا الآن أصلح ميدان لبقر البطون وفصل الرءوس وإزهاق النفوس وإهراق الدماء . وبقى علينا أن نعرف السبيل إلى احتكاك الشعبين . أو الظرف الطارىء الذى يهيىء الجو لهذا الكفاح المنتظر :



كيف احتدم العدوان

اللذة الفنية فى فعل الشر ـ قطاع الطرق فى مسينا ـ حصار «هيرو» لهم ـ انقسامهم حزبين ـ التماس النجدة من قرطاجنة وروما ـ روما بين التردد والاقدام ـ مسارعة قرطاجنة الى ارسال النجدة ـ اجتماع أهل مسينا للمشاورة فى أمرهم ـ القبض على قائد الأسطول القرطاجنى ـ انتصار الرومان ـ عودة القتال ـ انضمام «هيرو» لروما ـ حصار أجريجنتوم ونجدة قرطاجنة ـ بناء أول أسطول رومانى ـ بدء الصراع على أديم الماء

كان فى جزيرة صقلية آلاف من الجنود المرتزقة الذين انحدروا من أصل إيطالى . وقد كثر عديدهم واشتد بأسهم حتى خافتهم الحكومات ، وخشى الناس شرهم . لا ينتظمون فى الحرب عن فقر ومسغبة . بل رغبة فى إشعال نارها . وميلا إلى خوض غمارها . فلما عزّ عليهم إشباع رغبتهم فى أوطانهم، خفوا إلى القتال فى جانب روما أو فى صفّ قرطاجنة، فى سبيل أجر يتناولونه . أو أمل فى نصر

يصيبونه . فلما مات طاغية هـذه الجزيره « أجاثوكل » Agathocles الأغريق، أعلن الاستقلال منهم من كانوا فى خدمته . وانطلقوا يعيثون فى الأرض فسادا . ويتبارون فى إلقاء الرعب فى قلوب الناس. فهبطوا مدينة « مسينا» Messana ووزعوا شرورهم على أهلها فى غير شح ولا تقتير . ثم استبدلوا بها كل ما أصابته أيديهم من غنائم وأسلاب، وتقاسموه فيما بينهم . . . والدنيا للأشرار . . هم أقدر من الأخيار على ملاقاة التيار وخوض العباب ومكافحة اللجة الطامية، والضرب فى الزحمة المزهقة . وصيحتهم تعلو — وإن قلّ عديدهم — على صوت الأبرار . لأن الفوز فى الدنيا للجرأة والأقدام والتبجح . وحظ الأشرار من هذا أوفر من حظ الأطهار . . وقد تثور الأقدار على الأشرار فتعجل حسابهم وتسارع إلى تعذيبهم ولما تزلْ الدنيا مستقراً لهم .

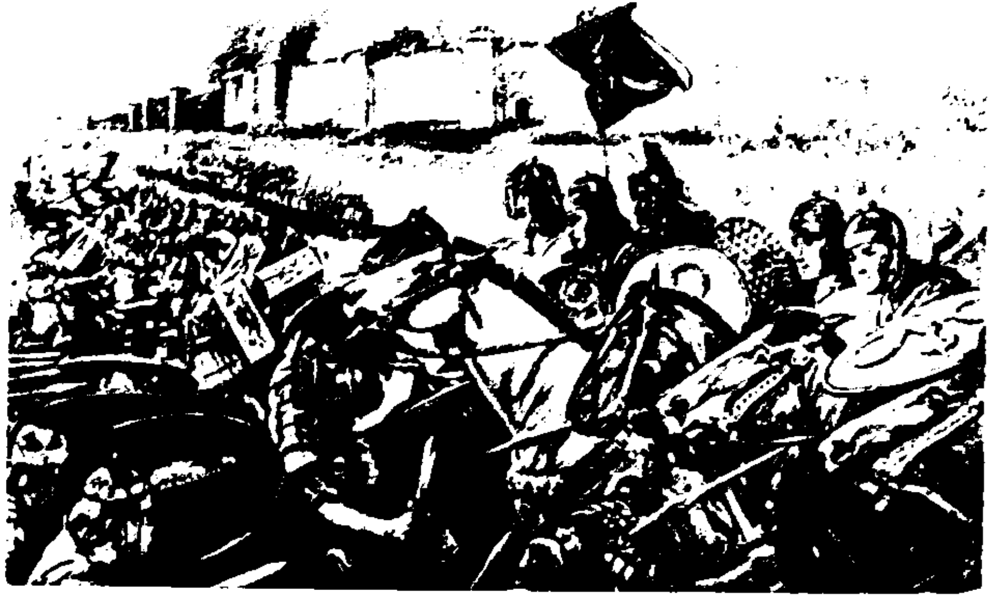
وهكذا قيضت الأقدار لقطاع الطرق الذين أنزلوا « بمسينا» شرهم، قائداً جريئا هو « هيرو » Hiero — حاكم سيراكوز Syracuse إحدى مدن الجزيزة — وسلطته عليهم فتطلعوا إلى النجدة — وكانوا حزبين يختصمان فى غير رفق: تجنح الرغبة بأحدهما إلى الاستغاثة بروما، ويميل ثانيهما إلى

طلب النجدة من قرطاجنة . فسارع الأول إلى الاتصال بالرومان وأعلن خضوعه لهم واستنجد بهم. فحار الرومان فى هذا المطلب الجديد، وترددوا فى الاستجابة له ، لأنهم كانوا قانعين بسيادتهم لأيطاليا، لا يرغبون فى التسلط على ما وراء شواطئها جنوبا، ولا يميلون إلى تعريض جيوشهم لأهوال الحرب فى صقليه . فكانت هذه القناعة من جانبهم غير طبيعية لا تتفق مع دولتهم الفتية ، ولا تلائم موقفهم الدقيق من قرطاجنه ، وإن كانت تتناسب مع طبيعة الاتزان الذى لازمهم فى شتى مراحل حياتهم . ولم يفارقهم حتى فى أمس الأوقات حاجة للتطير والجزع

فكّر الرومان فى أن يتجاوزوا حدود إيطاليا بعد أن بلغتهم دعوة الأشرار ، وخافوا إن هم رغبوا عن إجابة المطلب أن تسارع قرطاجنة الى التسلط على مسينا وتخطيها الى سيراكوز لتنشر طيلسانها على صقلية بأسرها، وتصبح مصدر الفزع للرومان ومبعث القلق الدائم . . ولكنهم — رغم هذا — لم يتسرعوا فى بحث المطلب وشغلوا به مجلس الشيوخ جلسات طوالا رأى فيها الأعضاء شبح قرطاجنة الرهيب ينذرهم بالشر. ويسلط عليهم الوهم والجزع.

ولما كانت روما فى هذه الأيام على مودة مع «هيرو» الذى يتولى حصار هؤلاء الاشرار . وكان مجلس الشيوخ لا يميل إلى التحالف مع شراذم من قطاع الطرق، فقد طال النظر فى إجابة المطالب حتى تخطت المسألة جدران المجلس، وساهم الشعب فى بحثها، فلم يتردد فى الموافقة عليها والدعوة لها . . وعلى هذا استقر الرأى العام فى روما . . وسارت النجدة إلى قطاع الطرق (الصورة ص ٦١)

أما الحزب الثانى من الأشرار فلم يسلم بموقف خصمه، وأرسل فى طلب العون من قرطاجنه . وسرعان ما رحبت بالدعوة وخفت إلى إجابتها، وأبحر أسطولها إلى الميناء، وحط جيشها على قلعتها قبل أن تبلغها نجدة روما . وعقد القرطاجنيون مع « هيرو » صلحا توقعوا بعده نصراً مبينا . . فعقد أهل المدينة اجتماعا للنظر فى أمرهم، والتشاور فى مصيرهم، والتعرف إلى وجه الحق فى موقفهم وموقف الشعوب المختصمة منهم . فحضر الاجتماع قائد الأسطول القرطاجنى رغبة فى صيانة الصلح الذى عقد مع « هيرو » وحرصا على سلامة نصوصه، إذ كان يخشى أن



تردد مجلس الشيوخ الرومانى فى
ارسال النجدة الى قطاع الطرق ،
ولكن الرأى العام فى روما
سلم بها وطالب بارسالها . . وسرعان
ما خفت النجدة لمعونة الأشرار . .

يثور المجتمعون به ويعلنوا احتجاجهم عليه ، وعصيانهم له ، وتطوعهم للدفاع عن أنفسهم . وبذلك يقوى جانب روما ويشتد أزر من تولى دعوتها من الأشرار . فهاج المجتمعون لمرآه . وثاروا فى وجهه وقبضوا عليه . . فأما زميله « هانو Hanno » قائد الجيش فقد قبل تسليم القلعة بشرط أن يأذنوا له فى العودة إلى وطنه على رأس جنده ..! وأثبت القائدان — بهذا الموقف ـ أنهما قصيرا النظر تعوزهما الحكمة ، وينقصهما العزم . .

وبسط الرومان سيادتهم على «مسينا » من غير ثمن ... باهظ أو رخيص . . .

فأحنقت هـذه الهزيمة أهل قرطاجنة ، وساءهم من قائدهم « هانو » قصر نظره واعوجاج مسلكه وسوء تقديره مما أدى إلى انتصار العدو من غير جهد ولا مشقة . فعمدوا إلى تعذيبه — وكانت هذه عادتهم مع من يخطئه التوفيق من قادتهم — ثم حاصروا المدينة حصاراً شديداً وكان الرومان يميلون للانسحاب لو وافق « هيرو » على إبقاء اللصوص الذين أسلفنا الحديث عنهم من غير إقلاق ولا إزعاج . فلما رفضت شروط الصلح الذى

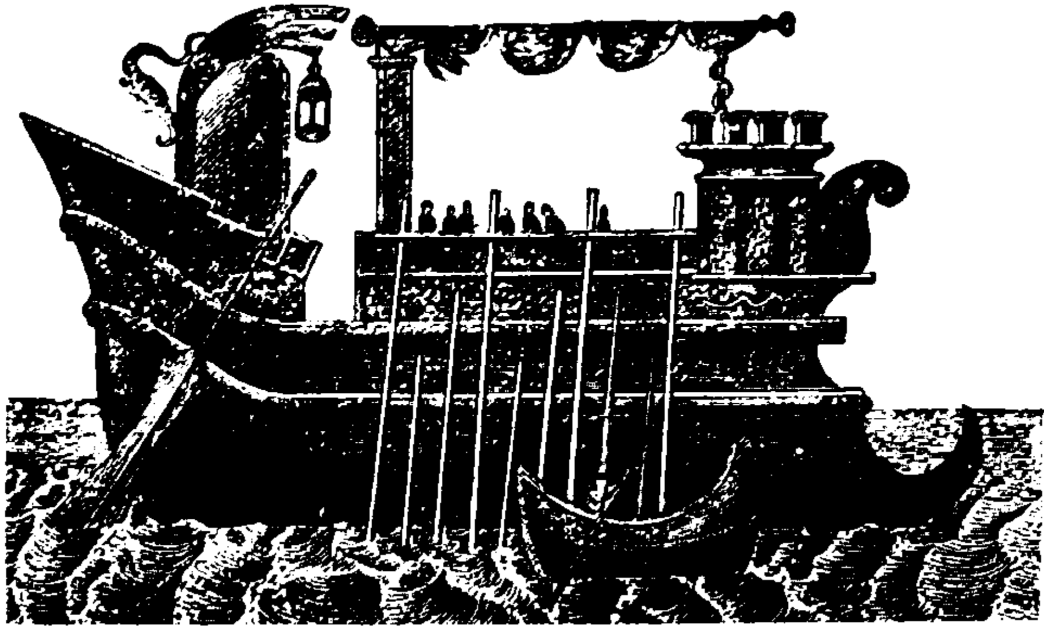
تقدموا به سارعوا إلى إعلان الحرب وأنزلوا « بهيرو » هزيمة شفعوها بنصر على الجيش القرطاجنى فاضطر إلى رفع الحصار . . .

ولكن قرطاجنة قد أبت الاستكانة للهزيمة، فأرسلت جيشاً لجباً وأشعلت النار من جديد. واختار « هيرو » الجانب الأقوى فسارع للانضمام إلى روما . وأضحى من أشد حلفائها تأييداً لها وانتصاراً لقضيتها . . ! وتبعه فى ذلك كثير من مدن قرطاجنة وصقلية . .

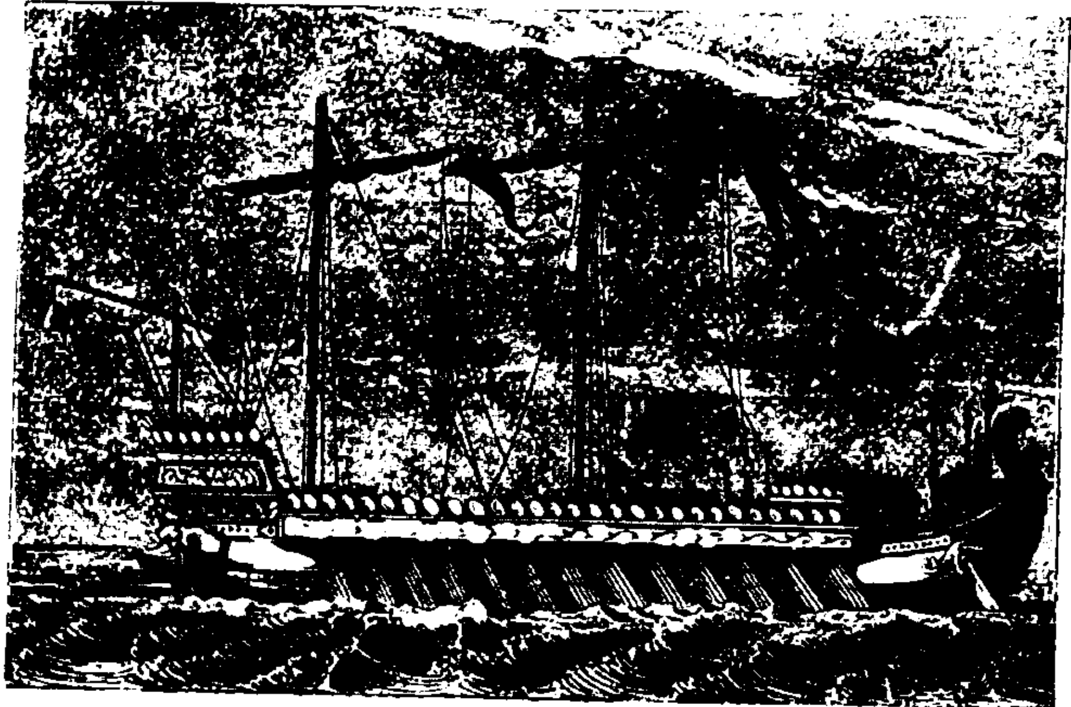
ومضى الرومان إلى أجريجنتوم Agrigentum— وكانت قرطاجنة قد جعلتها قاعدة أعمالها الحربية، ومستقر ذخائرها ، ومستودع آمالها — فحاصروها حتى أدرك جيشها القحط ولحق به السوء . فلما أرسل إلى قرطاجنة يطلب المدد أرسلت اليه الفيالق تترى، واشتعلت نار حمى وطيسها وطال عذابها وكثرت ضحاياها ثم خمدت بعد نصر أصابه الرومان على قلة عددهم . فأسكرهم النصر وحملهم على جناح الخيال، وحلق بهم فى فضاء الأمل العريض وأشرف بهم على قرطاجنة، وكشف لهم عن مدى الخطر الذى ينتظرهم على يدها . فأحسوا بأنهم لا يملكون

العيش الرغيد والمستقبل السعيد ما تنفس هـــذا العدو الحياة إلى جوارهم . فكم كانوا يخشون على شواطئهم وهى ملك لهم من هجمات أسطوله واعتداءاته . فكيف يفكرون فى استعمار جديد وهم لا يأمنون على أنفسهم عاديته . . ؟ فجنحت بهم الرغبة إلى بناء أسطول يقاوم قرطاجنة — أميرة البحر — وينزل بأسطولها الشر . ولكن أين هـذا الأمل العريض القلق من أسطول قرطاجنة الذى يلاطم اللجة الطامية، وينثر الرعب فى النفوس،ويلقى الرهبة أينما حلّ وأنىّ كان . . ؟ لقد كانت سفنه من النوع الضخم ذى الخمس (أو الثلاث)طبقات Five-Banked vessels (الصورة صفحة ٦٣) بينما لا يملك الرومان سفينة صغيرة .. !

وشاءت الأقدار أن تسوق عاصفةً شديدة عاتية إحدى سفن قرطاجنة إلى شواطىء الرومان ، فتقع تحت يدهم فى وقت قد اشتد فيه الظمأ إلى بناء أسطول ينشر طيلسانهم أنىّ اتجهت رغبتهم وحيثما مالت بهم مطامح الوطن. فاتخذ الرومان هذه السفينة نموذجاً يبنون أشباهاً لها (الصورة صفحة ٦٥) حتى توفرلهم فى بضع أسابيع — لعلها لم تتجاوز الأربعة — مائة سفينة من هـذا النوع



احدى سفن الأسطول القرطاجنى
ـ أمير البحر ـ

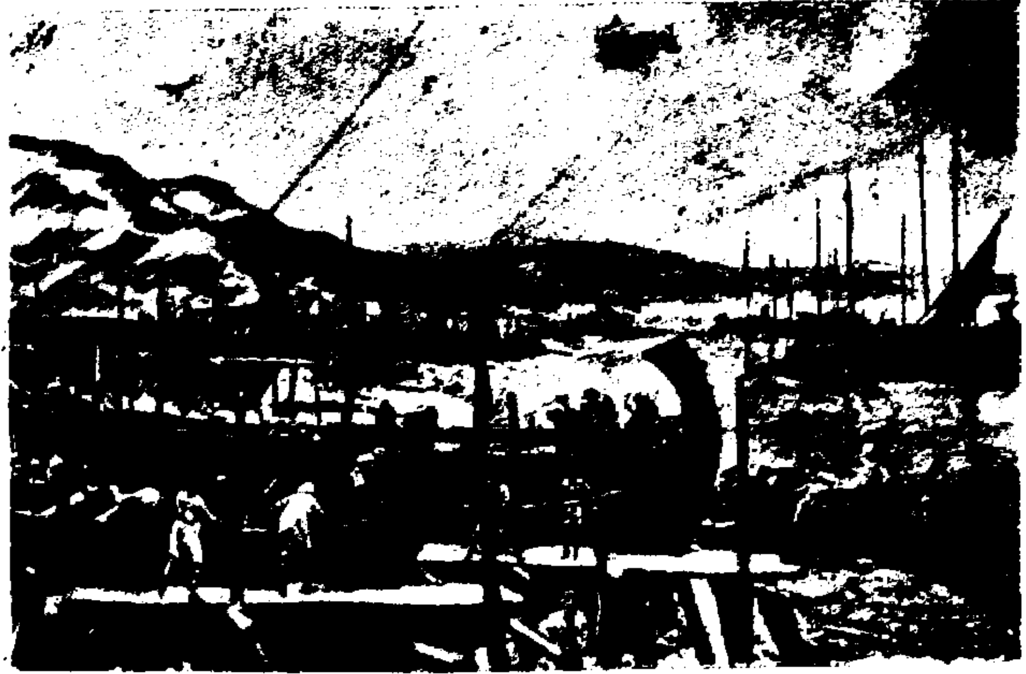


احدى سفن الأسطول الرومانى

الضخم (الصورة صفحة ٦٥) وعشرين من ذات الطبقات الثلاث . ـ ولم يكتفوا بتقليد النموذج ومحاكاة أجزائه بل أضافوا إلى سفنهم من الأدوات ما مكنها من تعطيل حركة السفن المعـادية ، والظفر بها إن اشتبكت معها في صراع . . !

وسرعان ما واجه قرطاجنةَ هذا الأسطولُ الجديد ، فألقى فى نفوس قادتها الدهشة وأشاع فى كيانهم القلق . . واشتبك مع أسطولها فى مايلى Mylae سـنة ٢٦٠ ق . م فاذا سفنها الأمامية فى قبضته تحاول الخلاص على غير جدوى (الصورة صفحة ٦٧) حتى التمس قائدها سبيل النجاة بما بقى له من بوارج، وعاد إلى وطنه حيث استقبله الشعب استقبالا يليق بهزيمته، فقبض عليه وصلبه وتولاه بعذابه ..!





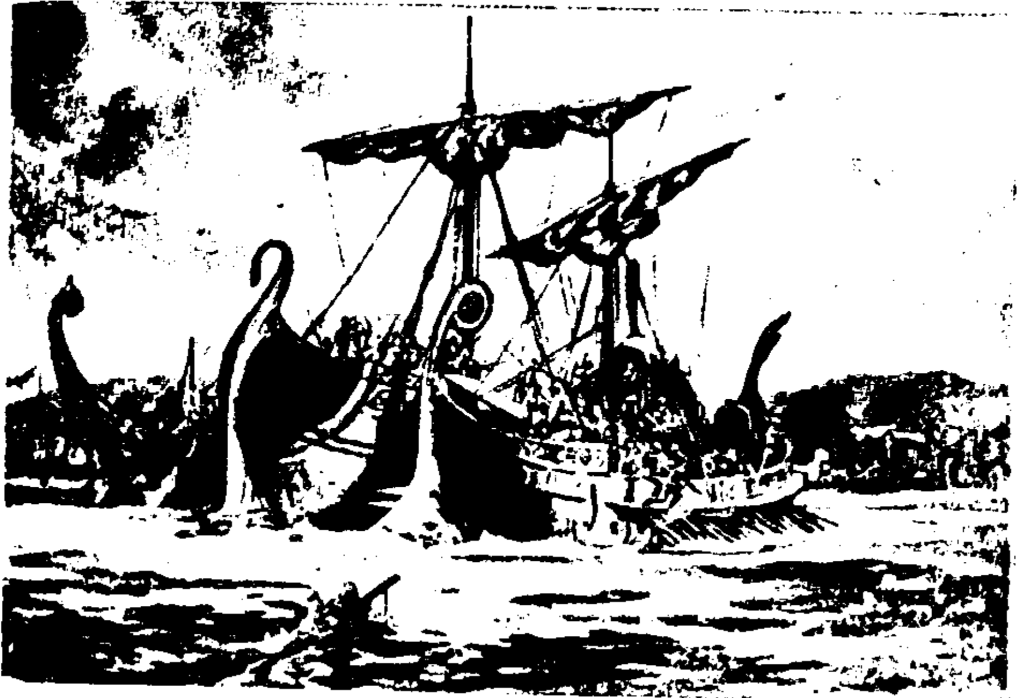
واستبان للرومان عجزهم عن نشر سلطانهم وقهر أعدائهم . بغير أسطول يمكنهم من أمارة البحر . فما وقعت تحت يدهم أحدى سفن قرطاجنة حتى اتخذوها نموذجاً يبنون على نمطه أسطولا حربيا يعمل على تحقيق مطامعهم الواسعة.

الرومان فى أفريقيا

إكونومس . «هانو» يطالب مواطنيه بالتأهب للقاء العدو ـ قيادة الأشرار لحركة الدفاع ـ انتصار رجلس Regulus ـ حلفاء قرطاجنة ورعاياها يتمردون على حكمها ـ شراء النصر بالمال . «رجلس» فى سجون قرطاجنة خمس سنوات . انتدابه سفيراً لمفاوضة قومه ـ يقسم على العودة من تلقاء نفسه ـ يطالب مجلس الشيوخ بإثارة الحرب ـ المجلس يقرر بطلان القسم ـ رجلس يخطب فى المجلس مستنكراً تملص الأعضاء من قداسة العهد ـ رجلس بين القلب والواجب ـ انتقام زوجته ـ موقفه بين الخلق والمنطق ـ

أسكرت روما أنباء النصر فاعتزمت أن تشعل الحرب فى أحشاء إفريقيا، لتهاجم العدو فى وطنه، وتصب فى قلبه نارها وعذابها . وهيأت لذلك أسطولها وحشدت جموعها وتأهب القرطاجنيون للقائها عند رأس إكونومس Economus فى شاطىء صقلية الجنوبى — ودارت معركة دامية انتهت باستيلاء الرومان على أربع وستين بارجة

واندحرت أميرة البحر فى « مايلى »
أول مرحلة من مراحل
الصراع على أديم الماء . . !



بملاحيها وغرق مائة سفينة لقرطاجنة ، وفرار بقيـــة الأسطول فى شتى المناحى ملتمساً النجاة من جحيمه . . فأما الرومان فلم يفقدوا غير ست وعشرين سفينة غرقت جميعها . .

ولم يبق على روما بعد هذا النصر إلا مهاجمة العدو فى دياره ، فسارع « هانو » إلى قرطاجنة وطلب إلى مواطنيه أن يهيئوا أنفسهم للدفاع قبل أن ينزل بهم الشر الزاحف والخطر الداهم، وكانت قرطاجنة قد خسرت بقسوتها محبة رعاياها وخلـّفتهم على أهبة الثورة فى وجهها . وأصبحت بعد فقدان ممتلكاتها ضعيفة لا عون لها ولا حول تدفع به عن نفسها ـ ولو سارع الرومان إلى حصارها بعد المعركة الأخيرة من غير توان لكان من المحتمل أن يستولوا عليها ، ويفرضوا سلطانهم على أبنائها من غير جهد ولا عناء . ولكن الغنائم والأسلاب خدعتهم وفوّتت عليهم فرصـــة لا تعرض فى حياة الشعوب إلا لماماً .

وكان الأثرياء لا يحتملون هذا العدوان الذى أنزله بهم الجيش الرومانى حين اعتدى على أملاكهم وسلب

أموالهم واستباح حرماتهم . فكانوا ينادون بالقتال ويطلبون الانتقام العاجل عن لهفة وشغف . واستجاب الشعب لدعوتهم وخف إلى الميدان، يدفعه الأقدام ويحفه الأمل وتحوطه الرهبة. ولكن قائده « هملكار Hamelcar أخطأ فعسكر فوق تل على كثب من المدينة، فآض نصف قوته ـ فيلة وخيلا ـ معطلا لا يقوى على الحراك فوق هذا التل . وفطن لهذا رجيلس Regulus قائد الرومان فتقدم لحصار التل، وأنزل بمن يعتلونه هزيمة أعقبها الاستيلاء على مكان لا يبعد عن قرطاجنة بأكثر من خمسة أميال ..!

وترامت إلى الأفق البعيد أنباء النصر ، وحلقت فوق رعايا قرطاجنة وحلفائها، فأوحت إليهم بالثورة فى وجهها . وشرع الأفريقيون فى نهب ممتلكاتها، واستباحوا حماها بشراهة لم تتوفر ـ عند الرومان ـ ألد من تحمل الأرض لها من أعداء . . ولم يبق لهذا الشعب إلا مدينته الزاخرة بجموع الهاربين الذين أقبلوا عليها من شتى البقاع المجاورة. وكان القحط ينذرها بشره وويله . .

وكان رجيلس قد خشي أن تنقضى سنة خدمته

قبل أن تزفر الحرب نفسها الأخير ، فأرسل فى طلب الصلح من قرطاجنة . فاستجابت له وخفت إلى التعاقد معه ، ولكن البطل قد تشدد فى وضع نصوص الصلح مخافة أن يأبى المجلس فى روما إقرارها . . فأعلنت قرطاجنة رفضها للشروط المجحفة معتزمة أن تستميت فى الدفاع اتّقاء لما قد يحيق بها من شر ويحط عليها من عدوان. . وكان التردد فى التضحية إيذاناً بالهوان المقبل والذل الزاحف ، الجيش يُعوِزها والعدو على أبوابها ، فلوّحت بثروتها الطائلة للجنود المرتزقة ثم صبتها فى جيوبهم عن غير شح ولا تقتير . فانهالوا عليها وانتظموا فى صفوفها للدفاع عن كيانها . وكان بينهم اكزانتيب Xanthippus وهو قائد وَفد على قرطاجنة من أعظم مدرسة فى الدنيا لتخريج رجال الحرب وأهل المعمعة « اسبرطه » فلما بلغته قصة الهزائم التى حاقت بهذا البلد رغم ما توفر فيه من قوات جبارة ، أعلن لأصدقائه أن مصدر الهزائم عوز فى مهارة القادة . ونقص فى خبرتهم الحربية واضطراب فى طريقة تنظيمهم للجيش وملاقاتهم للعدو ، ثم شرع فى تدريب الجند وتهيئتهم للقتال، وإذا به يستلّ إعجابهم به وإكبارهم

له، ورغبتهم فى الانضواء تحت علمه. فقاد هذا الجيش وقد بلغ عديده اثنى عشر ألفاً من المشاة وأربعة آلاف فارس وعدداً ضخما (يبلغ المائة) من الفيلة ومضى بهم جميعاً إلى ساحة القتال.

واضطرمت نار الحرب، فصرع العدو وأهلك من رجاله اثنى عشر ألف مقاتل وطارد ألفين من الفارين وأسر نصف ألف وألقاهم فى غياهب السجون - وكان بينهم «رجيلس» بطل روما الذى أصاب من سمو النفس ويقظة الضمير وقداسة الكرامة أوفر نصيب.. ولما انطفأ نجم طالعه فى زحمة الهزيمة الأخيرة زج به أعداؤه إلى السجن فاستقر فى ظلامه خمس سنوات طوال..!

وقيل إن قرطاجنة قد انتدبته سفيراً يفاوض باسمها قومه. فأرسلته فى وفد يطلب فى جملة مطالبه إيقاف الحرب وافتداء الأسرى أو استبدالهم. وأذنت له فى ذلك بعد أن أقسم ليعودن للأسر من تلقاء نفسه إن ضل سبيل التوفيق فى مسعاه — أملا فى أن يضعف هذا القسم من شدة قومه. ويدفع بهم إلى التسليم بمطالبه، حرصاً عليه واتقاء للشر الذى ينتظره..

فلما أقبل البطل على مجلس الشيوخ فى روما امتنع أول الأمر عن دخوله ، معتذراً بأنه أسير قرطاجنى لا حق له فى حضور الجلسات . . ! ثم وقف تحت قبة المجلس استعداداً لأداء رسالته . . ولكنه استحيا أن يطلب الصلح مرضاة لعدو يكرهه ، ويرجو اليوم الذى لا يسمع فيه صوته ولا يرى فيه رسمه . فنادى فى المجلس باستئناف الحرب حتى يتيسر للوطن أن يملى شروط صلح ميمون تتناسب مع سلطانه ولا تمس أطماعه بسوء !

ورحب بنصيحته الأعضاء الذين آذاهم كفاح العدو وملأهم ضيقاً به ورغبة فى الانتقام منه . .

ولكن «رجيلس» قد أقسم ليَعُودَنَّ إلى قرطاجنة أسيراً من تلقاء نفسه إن أخفق فى مسعاه . وها هو ذا قد أقبل على قومه وامتنع عن مفاوضتهم فى الصلح وتمادى فطالبهم باستئناف القتال . فماذا هو فاعل فى يمينه إذن . . ؟

ولكن ماله والتفكير فى يمين أقسمها تحت تأثير طغيان العدو الجائر . وبطش الآسر الظالم . . ؟ هكذا يقول مجلس الشيوخ فإذا تطلع أعضاؤه إلى رئيس

القساوسة الجالس بين صفوفهم يمثل الدين، ألفوه راضياً عن رأيهم مغتبطاً بموقفهم . .

وليس فى هذا الافتاء ما يستدعى الدهشة أو يتطلب الزراية . فان الشعوب إذا اضطرمت بينها نار القتال واندلعت ألسنتها، كان من حقها أن تثور على بعض الفضائل التى تعارف عليها الناس فى وقت السلم . .

وكان «رجيلس» على علم بما ينتظره فى قرطاجنة من عذاب أليم إن ألقت به الأقدار فى يدها. وإذا كانت تصلب قادتها الخاسرين . وتسومهم عذابها وتصليهم نارها ، فان انتقامها من أسراها الذين يحبطون خططها لأشد هولا وأكبر ويلا . .

وإذا كانت غضبة الضمير تصدر عن الشعور بسلطان العرف — كما يذهب الكثير من العلماء — فها هو ذا الجمهور قد أفتى ممثلا فى برلمانه ورئيس قساوسته بسقوط اليمين الاضطرارية . .

وإذن فليهدأ «رجيلس» بالا وليقر نفسا وليطمئن ضميرا فلا وزر عليه ولا جناح . .

ويستقر المجلس عند هذا الرأى السديد والحل الموفق

استمرار الحرب ورفض تبادل الأسرى أو افتدائهم ، وسقوط اليمين الاضطرارية .

فاذا انتهى الأعضاء إلى هذه النتيجة فقد أطلق البطل لسانه يجلجل فيهم كالرعد قائلا لهم :

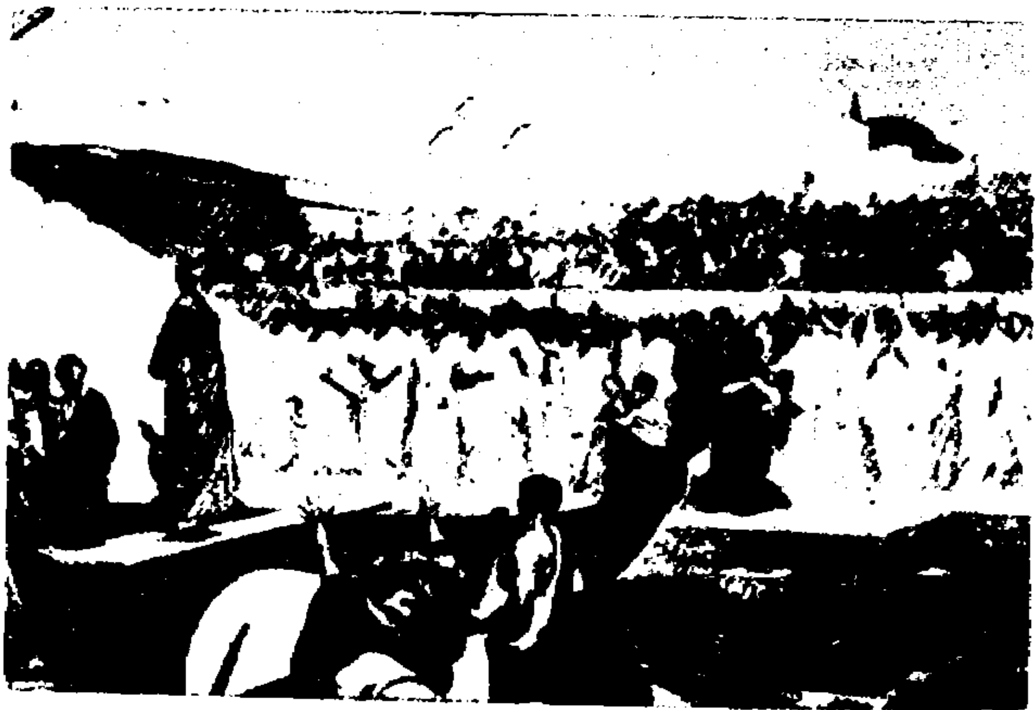
« أوأجمعتم إذن على فضيحتى . . ؟ أنا لا أجهل أن العذاب الأليم فى عودتى ، والموت الرهيب فى انتظارى . . ولكن ما العذاب وما الموت إذا قيسا بخسة النفس وضعة الضمير وخلف الوعد وجرح الكرامة . . ؟ ! إنى وإن كنت الأسير فى زمرة الأعداء ، لأحمل بين جنبىّ نفس رومانى . وقد أقسمت أن أعود فقد وجبت علىّ العودة وأصبحت فرضا لازبا وقدرا محتوما . . فلأرجعن الى الأعداء ولتفعل السماء ما تشاء . . ! » (الصوة ص ٧٥)

فأيقنت زوجته بانعقاد نيته على البر بيمينه والرضا بهلاكه مرضاة لضميره واستجابة لشرفه . فهالها أمره وأحنقها مصيره . وتقدمت إليه ضارعة تسكب على قدميه دمعها ، وتلتمس منه البقاء مرضاة لولديها . ولكنه أشاح عنها بوجهه . ومضى إلى لقاء موته . . ! ! (الصورة ص ٧٧)

فاذا بلغ قرطاجنه ونبئت بما كان من أمره تولته

فى مجلس الشيوخ الرومانى :

«رجيلس» يخطب : «أوأجمعتم على فضيحتى . . . ؟ . . . انى وان كنت الأسير فى جماعة الأعداء ؛ لأحمل بين جنبى نفس رومانى. وقد أقسمت أن أعود من تلقاء نفسى ، فقد وجبت على العودة وأصبحت قدراً محتوماً . . . »



بعذابها فى وحشية بالغة حتى نفدت أنفاسه وأسلم روحه . .

وكان مجلس الشيوخ فى روما قد سلم زوجته أسيرين من أشراف قرطاجنه رهينة عندها ، لتضمن سلامة زوجها ، وتطمئن على مصيره . . فلما ترامت إلى سمعها أنباء مصرعه أمرت بأن يُشد الأسيران إلى جدار ، وأن يحكم وثاقهما ويمنع عنهما المأكل والمشرب . . ! فما انقضت خمسة أيام على هذا المشهد الوحشى حتى مات أحدهما من شدة العذاب . . وخافت «المرأة» أن يلحق به الثانى قبل أن تشبع وحشيتها النهمة من تعذيبه ، فأمرت بأن يبقى الحى إلى جانب الميت على أن يعطى له من الشراب والزاد ما يكفل بقاءه فى شىء من الجهد والعناء حتى يطول عذابه ، ويمتد شقاؤه وتثقل عليه آلامه . . !

فتحركت عاطفة الإنسانية فى نفوس الخدم الذين كانوا يقومون على هذا التعذيب ، وثاروا فى وجه « سيدتهم » ورفعوا أمرها إلى حكام الشعب ، فأنقذوا المسكين من بين براثنها وأدوا رسالة الإنسانية على كره منها . . ،

وموقف «رجيلس» يرضاه الخلق وإن أبته العدالة .



« فأيقنت زوجته بانعقاد نيته على البر بيمينه والرضا بهلاكه . مرضاة لضميره واستجابة لشرفه : فتقدمت اليه ضارعة تسكب على قدميه دمعها . وتلتمس منه البقاء مرضاة لولديها : ولكنه أشاح عنها بوجهه : ومضى الى لقاء موته . . ! ! »

لأن العدالة إنما تقوم على الحق وتستند إلى المنطق . أما الخلق فانه يعتمد على التضحية ويركن إلى الغيرية... وكثيراً ما يسلم الحق فى الأحجام عن التضحية ، ويرضى المنطق بالتزام الأنانية . فاذا حرص زعيم أمة على حياته وضنّ بها على خلاص مواطن من موت محقق، كان هذا مما يرضاه العدل ويقبله المنطق — لأن الأمة أحوج إلى زعمائها من طغام أبنائها — فأما الخلق فانه يُكبر من شأن الذين يتخطون العدل ويتجاوزن قواعد المنطق ليعيشوا فى عالم التضحية المسرفة والغيرية البالغة — وكلما أسرف الانسان فى التهاون بنفسه وعدم الاكتراث بمصالحه، مرضاة لعاطفة الغيرية من غير نظر إلى المنطق والعدل ، كان عند أهل الفلسفة الخلقية أخلق بالاكبار وأحرى بالاجلال . . ! !

فاذا كان رجُيلس — فى عرف المنطق والعدالة — قد أسرف وتجاوز الحد وكلف نفسه فوق ما ينبغى أن تحتمله، فان الخلق ليرتاح لموقفه ، ويأنس بتضحيته، ويطمئن إلى إسرافه فى الحرص على وعده، وإمعانه فى الوفاء بعهده ..

عود إلى صقلية

احتضار السيادة الرومانية بحراً ـــ حصار ليليبوم ـــ صقلية فى قبضة قرطاجنة ـــ هملكار رب الأسرة الظامئة للحرب ـــ اريكس أثرياء الرومان يتسابقون فى بناء أسطول حربى ـــ ايجيت ـــ انهيار قرطاجنة ـ ضياع صقلية بأسرها ـ النهاية التعيسة للحرب البونية الأولى

تسامع الرومان بالهزيمة التى أدركت « رجيلس » فى مجاهل إفريقيا، فسارعوا إلى نجدة ما بقى من جيشه حتى تيسر له أن يقهر العدو ويسترد بعض نشاطه. ولكن الأمل الزاهر الذى أقبل به جيش «رجيلس» قد أضحى بعد أسر زعيمه أكسح لا يقوى على النهوض، ثم لازمه العرج بعد النصر وأعوزته الحركة السريعة والوثبة العاجلة، ففكر فى العودة إلى صقلية لعله يصيب التوفيق بحراً بعد أن امتنع عليه النصر الحاسم براً..

وكانت سيادة روما على البحر بعيدة الشأو ممتدة الأمد وإن كان أجلها قد حان واقترب ، وآن لأميرة البحر أن تسترد عرشها المغتصب ، وتستعيد سلطانها المسلوب . فبارح جند الرومان إفريقيا ومضت إلى صقلية حيث اشتبكت مع القرطاجنيين عند شواطئها الجنوبية على كره من ملاحيها الذين أشاروا باجتناب القتال عند هـــذا الساحل الخطر — ودارت المعركة وكشفت عن البون الواسع المدى بين بحارة العدوين وملاحيهم . فبينا كان الرومان على نصيب وافر من الجهل والنقص ، كان أندادهم من القرطاجنيين موفورى الحظ خبرة وكفاءة ومهارة . . فأسفرت المعركة عن انهزام الرومان انهزاماً فادح البأس حافل الخطر، إذ خسروا خمسة أسداس القطع التى كان يأتلف منها أسطولهم البالغ أربعة وستين ومائة عداً . . !

وداخل الاطمئنان قرطاجنة، ودب فيها الأمل وتمشى فى كيانها الرجاء البالغ، فعاودت الانتصار على الرومان فى موقعة أخرى أفقدتهم فيها أسطولا ثانياً وطيرت الأمل فى سيادة البحر من رءوسهم حتى اقتنعوا بعـــد هذا

الفشل الذريع بأن يرسلوا سفنهم تمخر عباب البحر و تلاطم لجته ولا عمل لها إلا أن تحمل الذخيرة للجيش المقاتل. . !

واطمأنت أميرة البحر بعد أن نشرت طيلسانها وأقامت عرشها واستردت صولجانها، فمضت إلى « مدينة ليليبيوم » Lilybaeum وضربت عليها الحصار الشديد، وكانت شاهقة الأسوار محكمة القلاع عميقة الخنادق موفورة القدرة على القتال .وطال الحصار وانقطعت عن قرطاجنة أنباء جيشها حتى ظنت به السوء، وسارعت إلى نجدته بأسطول يأتلف من خمسين بارجة وجيش يبلغ العشرة آلاف مقاتل.

ودارت الحرب حتى تهيأ لبعض الجنود القرطاجنيين أن يوقد النار فى ثلاثة أماكن فى المدينة، فزحف الدخان الكثيف على جيش الرومان وحطّ على بصره حتى كاد أن يمنعه القدرة على العمل، ويباعد بينه وبين الرجاء. . واحترقت البروج الشاهقة، واتقدت الدور وذابت آلات الهدم وحلّت الهزيمة على الرومان فى غير رفق . .

وكان الأسطول القرطاجنى رابضا فى دريبانوم Drepanum فخفّ إليه أسطول الرومان خفية وباغته وهم بالقضاء عليه ، ولكن سادة البحر عرفوا كيف يردون

الهزيمة الزاحفة ، ويقتنصون النصر الهارب . ويلجئون القائد المهاجم إلى الفرار بثلاثين سفينة يغمره الحمد لنجاته بعد أن خسر مائة سفينة بأكثر من تحمل من بحارة وملاحين . .

وعلى مقربة من كارينا Camarina لحقت بأسطول الرومان الثانى هزيمة بالغة البأس وثقلت عليه حتى حطمت سفنه، فلم يبق فى واحدة منها لوح من الخشب إلا أصابه التدمير . . !

وأضحت اليوم روما من غير أسطول يتولى العمل على تحقيق آمالها ، وخمد سعير المنافسة حول سيادة البحر واطمأنت أميرته إلى عرشها حتى غفلت عينها عن حراسته . . ! وكيف يدركها القلق وقد « كادت » صقلية بمدنها وثغورها أن تصبح فى قبضة يدها . . ؟

أما الرومان فان الأمل قد عاودهم حين تيسر لهم الاستيلاء على إريكس Eryx — ثانى جبال صقلية علوا — فتقدموا لحصار ليليبوم من جديد . ولكن الأقدار أبت إلا أن تفجعهم فى هذا الأمل فهيأت لقرطاجنة قائدا موفور الحظ من البطولة وإن كان فى باكر الشباب ، ذلك هو :

«هملكار برقة» Hamlicar Barca ـ رب القتال براً وبحراً ـ فمضى بجيشه إلى صخرة شاهقة على كثب من «دريبانوم» واعتلاها واحتمى بها وكانت حصينة لا يسهل اقتحامها أو الهجوم عليها . فلبث جاثماً على قمتها ثلاث سنوات طوال وأسطوله يجوب شواطىء إيطاليا الجنوبية فينهب منها ما شاء ثم يعود إليه ليقدم له الزاد وما يحتاج . .

وفى نهاية السنوات الثلاث بارح هملكار مكانه مختاراً ، ومضى ــ جيشاً وأسطولا ــ إلى إريكس Eryx وحمل عليها حتى أصاب النجح فى حملته ولبث فيها عامين قاوم خلالهما عصيان جنوده المرتزقة الذين كانوا يجأرون بطلب الأجر فيدفعه لهم وعوداً تفلح حيناً وتفشل أحياناً . .

ولكن روما قد عزت عليها هجرة البحر وعاودها الحنين إليه حتى إذا اشتد بها صح عزمها على بناء أسطول تقيم به مجدها المنهار . وتسترد عزها الهارب . . ولكن أين لها المال الكفيل بتحقيق مطلبها بعد هذه الحرب الضروس التى امتد أجلها ربع قرن من الزمان نزف ثروتها وخلفها فريسة الحاجة والسغب . . ؟ ولكن ماذا يحوجها إلى التفكير فى المال وأغنياؤها مازالوا أحياء لم

يتخطفهم الموت ولم تزل قلوبهم دائبة الخفق باسم الوطن شديدة الحنين إلى مجده . . ؟

وهكذا يتسابق الخُلَّص من أثرياء روما فى تحقيق مطلبها وسد حاجتها ، ويتبارون فى تقديم الأموال وبناء السفن — كل على قدر استطاعته — حتى تهيأ لروما أسطول دقيق الصنع محكم البناء يأتلف من مائتى قطعة من ذوات الخمس طبقات . . ثم جدّ به المسير إلى صقلية فى وقت كان القرطاجنيون فى أمسّ الحاجة إلى التأهب للقائه ، والاستعداد لنزاله — إذ كان الاطمئنان يشيع فى نفوسهم طولا وعرضاً منذقهروا أسطول العدو، وألجأوه إلى هجرة البحر هذه السنوات الطوال فتقدم الأسطول الرومانى إلى ليليبيوم ودريبانوم فلم يجد أمامه من يعترض طريقه ويسد السبيل على مطامعه ، فضرب على الثانية حصاره وأذن لبعض الملاحين أن يأخذوا أنفسهم بالمران والتدريب على شئون الملاحة . .

وأقبلت من إريكس Eryx نجدة من خيرة المقاتلين تحت إمرة بطلهم هملكار . وخطر لقنصل الرومان أن يثير الحرب مع « هانو » قبل أن تصله نجدة هملكار ، وكانت

سفن قرطاجنة تنوء بما تحمل من أكداس الذخائر والمؤن. فعاون هذا ما كان يُعوِز ملاحيها من قدرة وخبرة وكفاءة وتدريب، حتى إذا التقت بروما عند إيجيت Aegite أفاقت فاذا خمسون سفينة قد استقر بها المقام فى قاع اليم، وسبعون ونيف قد صارت إلى أيدى الرومان، وبقية الأسطول قد حملته المصادفة على جناح ريح طارئة وقذفت به إلى مرفأ قريب وأنقذته من جحيم الأسر..

فنزح اليأس إلى قرطاجنة وتولاها بقدرته، وتحكم فى توجيهها حيثما أراد حتى أعلنت بأن قتالها فى صقلية يجر عليها ويلا ثقيلا وشرا مستطيرا، وفوضت هملكار فى طلب الصلح.. وسرعان ما استجاب الرومان لهذا المطلب. فقد كانوا يضيقون بما أنزلته الحروب بوطنهم من ضعف وما أصابتهم به من اضمحلال. ودارت المفاوضات حتى أسفرت عن معاهدة كان أهم شروطها:

(١) انسحاب قرطاجنة من صقلية وتسليم روما كافة ممتلكاتها بها — وكان هذا المطلب أدمى صدمة أصابت قلب قرطاجنة منذ عرفت سبيلها إلى الكفاح — فقد لبثت فى قرطاجنة أربعة قرون طوال جاهدت فى القرنين الأخيرين

قوية الأمل فى امتلا كها ، عظيمة الرجاء فى التهام كافة أراضيها ومدنها — فصارعت الاغريق فى صقلية وغالبتهم حتى قضت على نفوذهم فيها وانتزعت الأمل من رءوسهم، وبعثت اليأس إلى نفوسهم ، وأكرهت آخر قوادهم «بيروس» على مبارحة أرضها محطم النفس كسيح الرجاء ، ثم صارعت الرومان صراعا عنيفا أسلفنا لك الحديث عنه . وأفلح جهادها حتى كادت فى بعض الفترات أن تبتلع الجزيرة بكافة ثغورها ومدنها على نحو ما رأيت من قبل، فلا غرو أن أدمت هذه الطعنة صدرها وأصابت بالارتجاج مخها

(٢) إكراه قرطاجنة على دفع غرامة تبلغ الثمانمائة ألف جنيه . . فى عشرة أعوام

(٣) ألا تثير حربا مع «هيرو» وحلفائه يوما ما

(٤) تسليم الجيش الرابض فى إريكس .

فثار لهذا المطلب الجارح « هملكار » وأعلن رفضه ومضى الجيش إلى قرطاجنة فى يأس مرير وألم بالغ .

وبهذه المأساة الممضة أسدل ستار الحرب البونية الأولى

إقامة امبراطورية في أسبانيا

طبيعة الشر ـ حب الشر لأنه شر ـ تمرد الأشرار ـ روما تقبل هديتهم بعد رفضها ـ اخماد البركان ـ

تمهيد :

وضعت الحرب أوزارها، وآن للأشرار الذين كانت قرطاجنة تستأجرهم للذود عنها أن يفارقوا ساحة الحرب إلى أوطانهم حيث تظللهم راية السلام ، ولكن كيف السبيل إلى هذا وقد ألفت الحروب الطويلة بين قلوبهم ووحدت بين نزعاتهم وردتهم جيشا «ثابتا» تعرف بعضه إلى بعض وطالت بالحرب خبرته حتى مهر فى شئونها، وعز عليه العيش من دونها . . ! والحرب رغم ما تسفر عنه من خراب وما تُفضِى إليه من أهوال، أمر طبعى

لا ينبغي اجتنابه والسعي لتلافيه، أو قل إنها شر لا بدمنه، يسوقنا إليها تنازع البقاء، ويُمْليها علينا الميل إلى التطور والنزوع إلى الكمال. وليس من بلد لزم السلام وحرص عليه إلا دفع عن طمأنينته ثمنا قد يكون أبهظ من ويلات الحروب، ولكن الشر البالغ أن يتهيأ للمحارب «إحساس فنى» يحبب إليه القتال لأنه قتال، ويرغبه فى الحرب حتى تصبح غاية فى ذاتها. وقد كان هذا حال اللصوص الذين أسلفنا الحديث عنهم من قبل. والمرء إنما يمقت الشر إن عاش بعيداً عنه، ويهلع لارتكاب الخطيئة إذا لم يألفها، فان أقام فى جوها وتنفس نسماتها أحبها ومال إليها حتى لا يطيق فراقها، ولا يحتمل العيش من دونها..! وقد يصبح الشرير «محترفا» يفعل الشر لذاته. ويأثم بارتكاب الخطيئة ولا غاية له إلا التمتع بها، وإشباع شهوته منها. والجندى الذى يمضى إلى القتال مضطربا جزعا ويلقى طعنته الأولى خائفا وجِلا لا يلبث حتى يشتد به الظمأ إلى بقر البطون وإهراق الدماء..!

فكيف يمضى هؤلاء الأشرار إلى بلادهم ليعيشوا فى جو من الدعة والهدوء بعد أن مارسوا الحرب

هذا الزمن الطويل ، وتوثقت بينهم عرى الزمالة وروابط المحبة ، وألفت بينهم وحدة الأمل ونزعة السوء وفظاظة القلب وحب الشر والاستهانة بالموت .. ؟ ! إن الحياة الهادئة الناعمة لا تصلح لهم ولا ترضى مزاجهم ولا تشبع أطماعهم . .فاذا لم يكن ثمة ما يبرر الحرب ، فليكن حب القتال وحده كفيلا بانسياقهم لاراقة الدماء وإزهاق النفوس وبقر البطون وفصل الرءوس . .

مضى هؤلاء الأشرار إلى قرطاجنة جماعات جماعات وعسكروا على أبوابها، وشرعوا فى نشر الفساد فى أرضها، وطالبوا بأجورهم وكانت قرطاجنة مرهقة أضنت الحروب ثروتها وأثقلت ماليتها ، فلما سلمتهم جانباً من أجورهم وطلبت إليهم أن يمهلوها فى سداد الباقى تهيأت لهم أسباب الثورة، وانطلقوا يجأرون بالحرب ويطلبون القتال «بعاطفة فتية» جعلت الأجر آخر ما يطلبون . . !

وانفجر البركان ناراً وحمماً أربعين شهراً لا يهدأ ولا يكل ولا يفتر ، حتى اغتصبوا « سردينيا ويوتيكا » من قرطاجنة بالعنف البالغ وقدموهما إلى روما . . ! ولكنها أبت قبولها وحذرت تجارها من أن يتصلوا

بالثوار وإن أذنت لهم فى إرسـال مدد إلى قرطاجنة . . !
ولعل السر فى هـــذا أنها كانت تخشى انتصارهم ، اتقاء لزحامهم وهرباً من صراعهم . . !

ولـكن الجشع عاودها ودفع بها إلى الندم على تفريطها فى قبول سردينيا . فلما قدمها لها الثوار لثانى مرة خفت إلى قبولها وتهيأت للدفاع عنها ضد كل غاصب توسوس له نفسه بامتلاكها — وأخـيراً تمـكن هملـكار من أن يخمد حرب الثوار المتمردين بعد أن سامهم العـذاب ألواناً (الصورة صفحة ١٠٣)

وكانت هذه الحرب قد أنهكت قرطاجنة وأرهقت جنودها وأفقـدتها طائل الأموال وآلاف الرجال . فخافت مغبة الأقدام على استرداد سردينيا بعد أن سمعت روما تجأر بالحرب مع كل من فـكر فى أمرها ، وتهدد بالشر كل من أقدم على غزوها . .



إلى أسبانيا ...

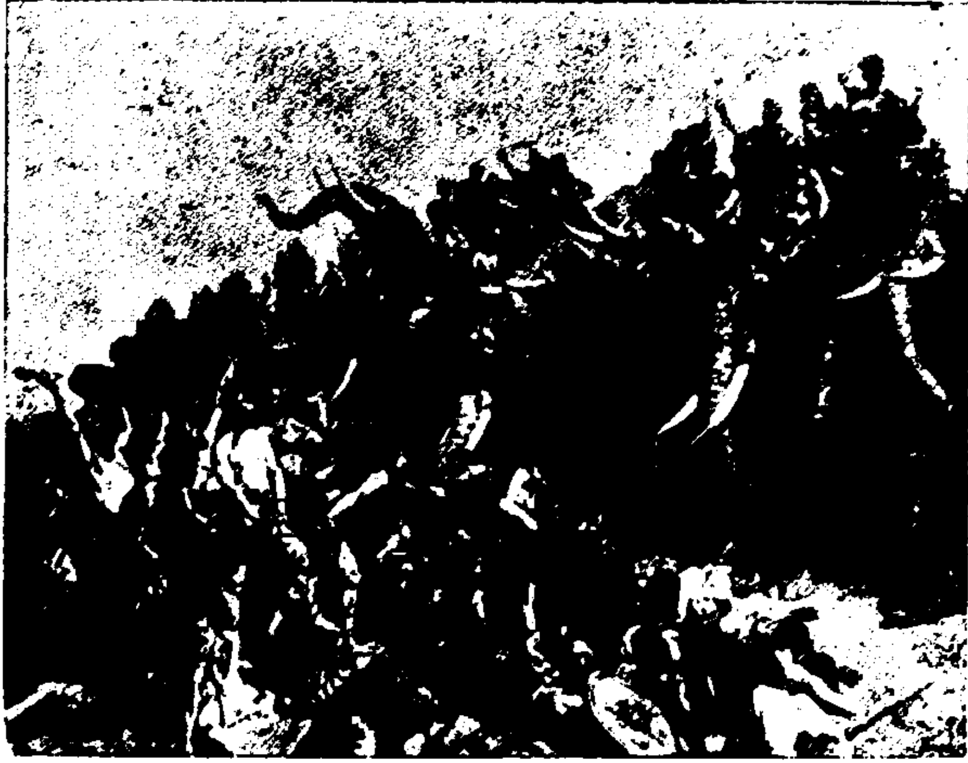
ثورة هملكار على النهاية الأليمة فى إيجيت ـ خشية الاحتكاك بروما
ـ إقامة أمبراطورية على أرض أسبانيا ـ هانيبال يلتمس اصطحابه
إلى ميدان الحرب وهو فى التاسعة من عمره ـ مصرع هملكار ـ خلافة
هسدروبال ـ شخصيته ـ قرطاجنة الجديدة ـ غيرة روما ـ
معاهدتها مع هسدروبال ـ اغتيال هسدروبال ـ خلافة
هانيبال ـ حصاره سغنتم ـ رفضه للقاء الوفد الرومانى
ـ الوفد الرومانى فى مجلس الشيوخ القرطاجنى ـ
حزب السلام يطلب تسليم هانيبال للأعداء ـ
الوفد الرومانى يخير المجلس بين الحرب
أو السلام مندوب الوفد يتحدى
المجلس ـ انفجار البركان

انتهت الحروب بقرطاجنة إلى شر ما تنتهى إليه من سغب وضعف واضمحلال. فهى لا تجرأ اليوم على الوقوف فى وجه روما ولا تستطيع أن تصمد لجيوشها إن اشتبكت معها فى قتال. ولكن على رأسها اليوم بطل من خيرة من عرفت الدنيا من قادة وأبطال هو : هملكار برقه Hamilcar

رب الأسرة الظامئة للمجد — وقد أنفق ماسلف من حياته فى ملاطمة اللجة الطامية والضرب فى زحمة الحرب الدامية ، فلن يـ ضيه اليوم أن يلتزم الدعة ويستكين لذل الرومان . .

فان ثار فى وجهه دعاة السلام فى مجلس الشيوخ، واستعانوا عليـــه بتصوير الضنك الذى جرته الحروب ، استمد من شخصيته الساحرة ما يعينه على إقناع الأعضاء بضرورة الحرب لأنقـــاذ الأمة من أهوال الفقر وشدائد الضنك .

وإن جهاد الوطن فى سبيل الجزر الجاثمة فى البحر الأبيض عامة — وصقلية خاصة — ليطوف بخاطره ، فاذا أربعة قرون طوال عامرة بالكفاح حافلة بالنصر فى أغلب مراحلها ، زاخرة بدماء الشهداء من أبناء قرطاجنة وغير أبنائها ، تنتهى كلها على شر ما ينتهى إليه الكفاح فى « إيجيت» وما تلاها من معارك أطار الأشرار عثيرها فى وجه قرطاجنة . . إن المأساة التى أسدل عليها ستار الحرب البونية الأولى لأليمة إلى أقصى حدود الألم ، ذليلة — عند أهل الجهاد — إلى آخر درجات الذلة.



كانوا يسارعون الى ميدان القتال
بعاطفة فنيه جعلت الحرب عندهم غاية
فى ذاتها ... فانفجر البركان ناراً
وحمماً أربعين شهراً لايهدأ ولا يفتر ،
ولا غاية لهم منها الا اشباع شهوتهم
فى حب القتال . . وأخيراً تمكن
هملكار من أخماد البركان وعقاب
المتمردين . . .

فاذا ثار هملكار لهذه النهاية الأليمة . واعتزم السعى جاداً لاسترداد المجد الشارد ، واقتناص العز الهارب، خطرت لذهنه روما الجبارة تنذره بالشر المستطير إن أقدم على الاحتكاك بها وتهديد ممتلكاتها . . وإن روما لقوية يُخشى بأسها ولا يؤمن قتالها . وإن قرطاجنة ليعوزها المال الذى يكفيها استئجار من يقوم بقهرها وتدمير الشاهق من مجدها ... أيُقعده الخوف من روما عن السعى فى سبيل المجد والجرى وراء الأمل والعمل على اقتناص النصر . . ؟ لا . . وإن طبيعته لتأبى الاقتناع بحاله ، والرضا عن حياته . . إن لقرطاجنة ثغوراً تجارية ممتدة على شواطىء أسبانيا ، فما باله لا يفكر فى فتح هذا البلد والتجول فى أرضه ، والاستيلاء على خيراته ورفع العَلم فى شتى بقاعه . . ؟ إن روما لا تحميه ولا تتولى حراسته ، فالهجوم عليه مأمون العاقبة محمود النهاية . فليمضِ إذن إلى غزوه حتى إذا نشر طيلسانه فى أرضه، تهيأت له القوة التى تعينه على قهر روما ، والجور على سلطانها واكتساح أملاكها . .

على هذا ينعقد رأى هملكار فى النضال المنتظَر .

فاذا همَّ بالرحيل التمس طفله الصغير أن يصطحبه ليشهد القتال فى لجته الطامية وبحره الزاخر ، فاذا تردد الأب فى قبول الالتماس ألحَّ الصغير وأسرف فى الالحاح حتى يجاب مطلبه ، فيمضى هملكار مع صغيره خفية إلى أسبانيا حتى يباغت بالحرب قبائلها مروِّعا أهلها زاحفاً على أرضها ، جامعاً خيراتها حتى يتيسر له أن يقيم على الحرب تسع سنوات طوال لم تعوزه فيها نجدة من ذخيرة أو رجال . بل توفر له من الأسلاب والغنائم ما يمكنه من أن يمد بالمال حزبه فى قرطاجنة ليشد من أزره ويضاعف من جهوده . .

وفى نهاية هذا العهد الحافل بالمجد يسقط البطل قتيلا فى معركة حامية، فيحمل العلَم صهره «هسدروبال» Hasdrubal ويمضى فى تحقيق الخطة التى راح ضحيتها هذا الشهيد . وكان «هسدروبال» يمتاز بالمهارة الحربية والحزم الادارى وحسن التصرف ومرونة الخلق وسحر الشخصية مما حبب فيه القبائل الاسبانية وكثيراً من صغار زعمائها . فاستغل مواهبه وكفاءته وزاد فصاهر بيتاً من بيوتات أسبانيا، فأصابت قضية الوطن من شخصيته المسالمة أكثر مما

أصابت ضربة السيف وطعنة الخنجر . .

ثم شاد على كثب من مناجم الفضـــة الغنية عند الشاطىء الشرقى مدينة أطلق عليها اسم « قرطاجنة الجديدة » سرعان ما ازدهرت ونمت وأضحت عاصمة الأقليم الجديد . .

وكان دبيب الغيرة من هذا النصر المتعاقب يسرى فى كيان روما ويتمشى فى صدور أهلها . فلما استعانت بها «سغنتم » Sagnutum على الغزاة خفت إلى حمايتها وأقبلت على أسبانيا تنذر بالشر الداهم إن مسّ حليفتها السوء ، أو أصاب أهلها الضيم . . فجرت المفاوضات بينها وبين « هسدروبال » حتى انتهت بعقد معاهدة نصت على :

(١) أن يكون نهر الأبرو Ebro حداً فاصلا لا ينبغى أن تتخطاه قرطاجنة فى فتوحاتها شرقاً .

(٢) أن تتمتع «سغنتم» Saguntum باستقلالها وإن كانت خارج الحدود المتفق عليها بخمسين ميلا . ؟

ولبث «هسدروبال» ثمانية أعوام يكيل فيها النصر لوطنه، ويبسط فيها نفوذه أنى حل وأينما ارتحل ، حتى أقدم على إعدام زعيم من زعماء القبائل الأسبانية عقابا له على إهانة وجهها للحكومة القرطاجنية . فثارت قبيلة هذا الزعيم

واتقدت غيظا ومضى إلى القائد أحد أفرادها، واغتاله انتقاما لزعيمه وغسلا للاهانة التى لحقت بقبيلته . .

وخلف القتيلَ بطلٌ تكشفت عنه الأقدار منذ سبعة عشر عاما حين كان صبيا لم يتجاوز التاسعة من عمره ، ورأى أباه «هملكار» يهمُّ بغزو أسبانيا وإقامة امبراطورية على أرضها ، فهزه الحنين إلى اصطحاب أبيه حتى توسل إليه ألا يبرح الوطن من دونه . . اذلك هو « هانيبال » Hannibal رب القيادة فى عصره . وألحَّ فى التماسه حتى قبل الأب هذا المطلب العجيب، وتقدم بالصغير إلى المذبح وطلب إليـه أن يضع على الضحية يده ، ويقسم ألا يخلو قلبه من بغض الرومان وكراهيتهم ما عاش (الصورة ص ٩٩) وسترينا الأيام أن الصغير قد برَّ بيمينه فلبث طيلة حياته يرسل عليهم الجزع ويمطرهم بالهلع والفزع حتى ركل الدنيا ومضى إلى أخراه . . ! وقـد سعى أهل الرأى فى قرطاجنة سعيا جادا ليمنعوه من خلافة هسدروبال ، ولـكن الجيش كان يحبه إلى حد العبادة فلم يسع الحكومة فى قرطاجنة إلا أن تستجيب لمطلبه . .

استهل هانيبال حيـاته قائدا بنصر حاسم على جيش

أسبانى قيل إنه بلغ المائة ألف عدا . . !

ثم مضى إلى « سغنتم » وقرع أبوابها وضيق الخناق على أبنائها ، وأوقد النار الحامية فى أحشائها . فأرسلت روما وفدا يذكره بالمعاهدة التى عقدها سلفه (هسدروبال) مع الرومان ونصت على استقلال «سغنتم» فأبى هانيبال لقاء الوفد وادّعى العجز عن حمايته إن وطئت المعسكر قدماه . !

فانطلق الوفد إلى قرطاجنه حيث انتصر له « هانو » زعيم الحزب الذى يؤيد السلام ويهاجم الحرب ودعاته. ونصح أعضاء المجلس بأن يطالبوا انسحاب الجيش ويدفعوا لسغنتم تعويضا عما تكبدته من خسائر ، وأن يسلموا هانيبال للعدو لأنه تخطى نصوص المعاهدة وأشرف بوطنه على صراع ممتد النهاية مشوب العاقبة . . .

ولكن المجلس قد أبى عليه ذلك فعاد الوفد إلى روما مغيظا محنقا . .

وضرب هانيبال على المدينة وأحاطها بشتى صنوف العذاب وألوانه (الصورة ص ١٠١) حتى تمزق أملها فى الدفاع وحاق بها يأس مرير بعد ثمانية شهور قضتها فى دفاع مجيد . فأعلن هانيبال استعداده للصلح إن رضى



وتقدم الى المذبح « هانيبال » وهو فى التاسعة من عمره ، وأقسم أمام أبيه على بغض الرومان وكراهيتهم ماعاش . . ! ومضى الصغير الى ميدان القتال فى صحبة أبيه ، وغاب عن الوطن ستة وثلاثين عاماً . . !

أهلها أن يبرحوا أرضها ، ويفارقوا سماءها ، ويهاجروا في صحبة زوجاتهم وأولادهم لا يحمل الواحد من متاعه أكثر من ثوبين اثنين لا يتجاوزهما . . !!

فعقد مجلس الشيوخ في المدينة جلسة فوق العادة تناول فيها بحث هذا المطلب الذى ينضح الذلة والهوان . وازدحمت جموع الشعب في قاعة المجلس لتسمع كلمة الفصل في أمرها ، وصيحة الغضب أو الرضا بمصيرها . فتسلل نفر من أهل الرأى فيها وانطلقوا إلى ميدان في وسط المدينة وأوقدوا فيه نارا كثيفة جمعوا لها كل ما أصابته يدهم من أثاث ومتاع وثروة وقذفوا به إلى اللهب حتى إذا اضطرم وتأجج، وثبوا إليه في عزم كله يأس ، ورضا كله ضيق . . !!

وأصبحت الحرب بين روما وهانيبال أمراً محتوماً لا مفر منه ولا خلاص من شره . . فأرسلت إلى قرطاجنة وفداً ثانياً يطلب التفاوض في أمر الصلح ، ويعلن براءة روما من تهمة العدوان . . وتقدم الوفد إلى أعضاء المجلس القرطاجنى وألقى عليهم هذا السؤال :

أكان غزو «هانيبال» لمدينة «سغنتم» تنفيذاً لأمر الحكومة ؟



وضرب « هانيبال » على المدينة
وأحاطها بشتى صنوف العذاب وألوانه،
ثم أعلن استعداده للصلح ان رضى
أهلها أن يبرحوا أرضها ويفارقوا
سماءها ويهاجروا فى صحبة زوجاتهم
وأولادهم لا يحمل الواحد من
متاعه أكثر من ثوبين اثنين
لا يتجاوزهما . . . !

فأبى المجلس أن يجيب إجابة صريحة وتملص فقال مندوبه الذى تولى الكلام باسمه: إن المعاهدة بين روما وقرطاجنة لم يرد فيها نص بشأن سغنتم . أما اتفاقها مع هسدروبال فليس يعترف به المجلس . . ؟ !

وعند ذلك طوّح «كونتس فابيوس «Quintus Fabius مندوب الوفد الرومانى بيده وثوبه فى قبضتـــه قائلا فى صوت جهورى يعلن الشر وينذر بالتحدى :

أمامكم الحرب أو السلام ، فاختاروا ما تشاؤونه .

فارتفعت فى المجلس صيحة تنطق بالتحدى الصارخ :

— تخيروا أنتم ما تريدونه .

فجمع مندوب الوفد طرفاً من ثوبه فى قبضة يده ، وقذف به فى وجوه الأعضاء وقد تجسمت على سحنته آيات التحدى الصارخ ومعالم الغضب المتقد قائلا لهم :

الحرب تخيرنا .

فانطلقت أصوات الأعضاء صائحة :

— قبلنا قبلنا . وبهذه الروح التى قبلنا بها الحرب سنصليكم نارها . . . (الصورة صفحة ١٠٣)

وبدأت الحرب البونية الثانية



في مجلس الشيوخ القرطاجني :

«كونتس فابيوس» Fabius مندوب الوفد الروماني يتحدى الأعضاء فيلقي بثوبه في وجوههم ، ويعلن انفجار البركان من جديد . . .

هانيبال يعبر الألب

لأول مرة فى تاريخ الأنسانية

صلةالتهور بالبطولة ـ صلة هانيبال بجيشه ـ قلةجريئةوأكثريةمترددة ـ
اقتحام البرانس ـ الالتحام بالغاليين ـ نقل الفيلة على أديم الماء ـ
عيون سيبيو يلتقون بعيون هانيبال ـ سيبيو يفتش عن
هانيبال ثم يعود الى ايطاليا ـ مشاق الحملةالعجيبة ـ
هانيبال يشرف على سهول ايطاليا ويصيح من
فرط الغبطة والحماس .

إن البطولة لتكبر الحكمة وتعلو على العقل — ولو خضع أصحابها للمنطق لهان خطبهم واضمحل أمرهم وباتوا فى مستوى لا يعلو طغام الناس إلا قليلا . لأن أكثر الذين يتنكبون عن مسالك البطولة ويحجمون عن اقتحام أبوابها إنما يبررون مسلكهم بالمنطق . ويردونه إلى الحكمة فرارا من اتهامهم بالجبن والخور .. وأخص مميزات البطولة ـ فيما نعلم ـ جرأة لا تفترق فى أكثر



هانيبال يعبر الألب لأول مرة فى تاريخ الانسانية

مظاهرها عن الطيش البالغ والتهور المرذول . . !
وإن أخطر المشروعات وأدعاها لبثّ الذهول فى النفوس، لو خضعت لمحك العقل وأطاعت ما تمليه الحكمة ، لصارت إلى العدم وما قدر لها وجود .

بهذا التهوس البالغ فكر هانيبال فى أن يقتحم جبال الألب الشاهقة ، لأول مرة فى تاريخ الأنسانية كلها . . !!
ثم يسعى جاداً فى فتح إيطاليا . . !

ولم لا . . ؟ إن روما التى استولت على أكبر شطر فيها ليقلقها اليوم ضجر رعاياها واستنكارهم لها ، واستياؤهم من حكمها ، فليس بعيداً أن يسارعوا إلى الثورة فى وجهها والانتصار لعدوها يوم يعتزم تنكيس علمها . .

اطمأن هانيبال إلى هذا التبرير من غير تفكير فيما سيلقاه فى الألب من هول وجحيم . فعاد بعد غزو «سغنتم» إلى قرطاجنة الجديدة ، وأذن لمن شاء من الفرق الأسبانية فى الجيش أن يعود إلى وطنه ، فى زيارة أهله وصحبه وعشيرته وذويه ، قائلا للجنود فى ثقة القائد المطاع من عشيرته :

« عودوا إلىَّ فى مستهل الربيع ، وسأتولى بنفسى قيادتكم فى حرب تسفر عن مجد باهر ونصر زاهر »

وكان تخطِّى نهر الأبرو إعلاناً لعداوة يطول أمرها وتشتد نارها بين روما وقرطاجنه . وقد بدأت هـــذه العداوة عند ما استباح هانيبال لنفسه حصار «سغنتم» وأبى مجلس الشيوخ فى قرطاجنــه استنكار عمله أمام الوفد الرومانى ، ورفض الاعتراف بالمعاهدة التى عقدت مع هسدروبال ، ونصت على أن يكون نهر الأبرو حداً فاصلا لا ينبغى أن تتخطاه قرطاجنه فى فتوحاتها . .

وفى غسق الدجى استنام هانيبال ليستريح استعداداً لرحلة الغد ، فرأى فيما يرى النائم شاباً إلهى الطلعة وسيم المحيا يقبل عليه ويقول له :

« لقد أرسلنى جوبتر Jupiter لأقود جيشك فى فتح إيطاليا ، فاتبعنى قدماً وحـذار أن تلتفت إلى الوراء »

فتبعه هانيبال فى ارتجاف لم يستطع معه أن يمنع عينيه من النظر إلى الوراء ، فرأى ثعباناً طويلا ضخم الجثة يتعقبه مدمراً كل ما أصابه فى طريقه .

فلما تساءل هانيبال عمّ يكون هذا ، قيل له إنه دمار إيطاليا ، فامضِ فى طريقك ولا تطل التساؤل ، ودع خطط القدر تسبح فى ظلامها . . !

ولما اتصل بالجند عزمه الجبار على أن يقتحم جبال البرانس ، أدرك بعضهم الخوف وأصابه التردد ، وكان هانيبال يعلم أن قلة جريئة تسعى معه ، تخدم قضية المجد الذى يجاهد فى سبيله ، خير من أكثرية ضعيفة مترددة . فطرد من جيشه كل من دب فيه التردد أو لحق به اليأس . ثم مضى فاقتحم « البرانس» بخمسين ألفاً من المشاة وتسعة آلاف فارس ، وتابع سيره إلى نهر الرون ومضى فيه حتى تبين على شاطئه الأقصى قوة كبيرة من « الغاليين » تتولى حمايته . وأرشده أدلاؤه إلى وجود جزيرة على بُعد خمسة وعشرين ميلا قد يسهل عليهم أن يعبروا النهر عندها ، ويباغتوا العدو فى مؤخره . فأرسل هانيبال فيلقاً من جيشه للقيام بهذا الغرض . وتقدم الأسبان فى هذا الفيلق إلى الماء وقد شدوا ملابسهم وأسلحتهم إلى مثانيهم ، وألقوا بأنفسهم بين أحضانه ، ومضوا سابحين حتى بلغوا المكان الذى قصدوه . وكان الأفريقيون فى الفيلق

لا يألفون الماء ولا يحسنون السبـــاحة ، فعبروا فى أرماث Rafts حتى إذا التأم شمل الفيلق واكتملت جموعه ، تهيأ لإلقاء الطعنة القاتلة فى مؤخر العـدو حين تحين الساعة وينادى الخطر . .

فأما هانيبال فقد كان — أثناء ذلك — جاداً فى إعداد نفسه وتهيئة جيشــه للملحمة التى يزحف خطرها من غير توان . فمال على القبائل الموالية له على الشاطىء الأيمن للنهر وجمع منها ما تيسر له جمعه من الزوارق ليعبر فيها المشاة من مقاتليه . ثم أقام رجاله للخيالة فى جيشــه أرماثا وسـفنا تـكبر الزوارق حجما وألقوا بها فى أعالى مجرى النهر لتخفف من حدة التيار ، وتهوّن من سورته حتى تحتمله الزوارق وتقوى عليه السفن الصغيرة . .

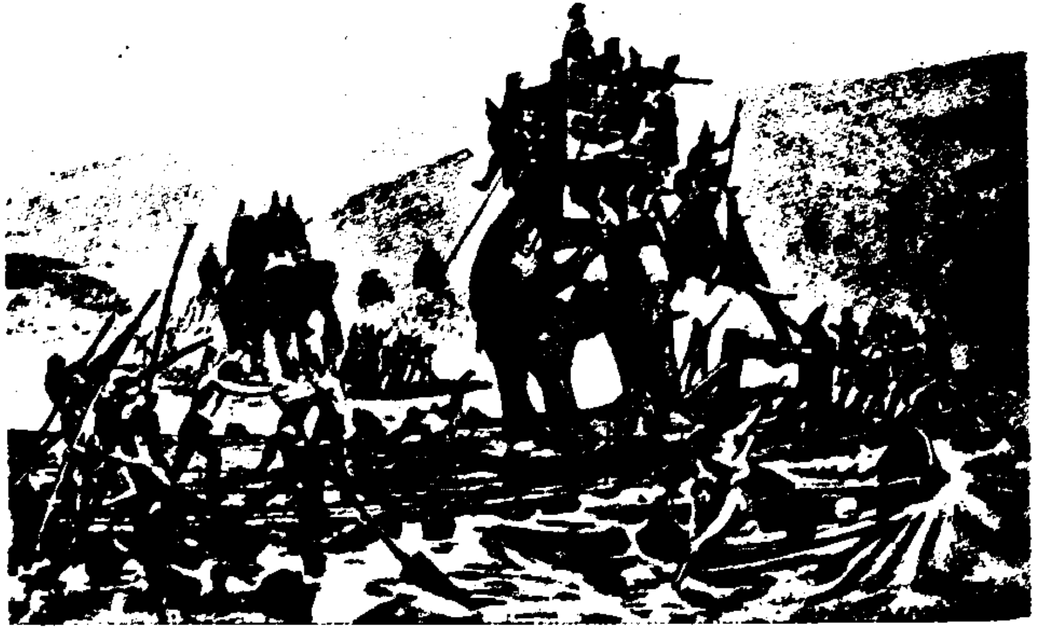
ثم رأى أهل الغال دخانا كثيفا يزحف عليهم من الخلف ، فتبينوا مصدره فاذا هو نار تندلع وتسـد عليهم سـبيل الفرار إذا التمسوه . وتحمس هانيبال — وكان على علم بأمر هـذا التدبير — واندفع ماضيا فى زورقه الذى ينطلق به فى مطلع الزوارق حتى إذا بلغ الشاطىء وثب إليه وحمل على العدو الذى جفل أمامه ، وانـكسر من غير أن يقاوم

هذا الشر الزاحف من وراء ومن قدام . .

ولكن الفيلة ما زالت على الشاطىء الآخر، فكيف السبيل إلى نقلها . . ؟ خطر له أن يبنى لها رمثاً كبيراً يغطى أرضه بتراب ليختلط عليها الأمر فتحسبه أرضا ولا تجفل إذا سيقت اليه ، وثبّته فى الشاطىء وشد عليه رمثا آخر يصغره حجما حتى إذا سارا على ظهر الماء ريع الفيلة ونزل بها الهلع ، وامتنع عليها سبيل النجاة . فسكنت فى مكانها لا تقوى على الحراك (الصورة ص ١١١) — إلا اثنان منها خرج بهما الروع إلى الوثب فى الماء والسباحة فيه حتى الشاطىء الآخر . .

ومضى هانيبال حتى بلغ « إزير » Isére واستمد العون ممن حالفوه فى أهلها . وزود جيشه بما يتطلبه من معدات وذخائر — حتى الأحذية أخذ منها بنصيب وافر . . !

والرومان . . ؟ أكانوا فى غفلة عما ينتظرهم من شر ويقبل عليهم من ويل . . ؟ لا . بل كانوا منصرفين إلى قتال الغاليين فى شمال إيطاليا ، فلما تسامعوا بأمر هانيبال خف سيبيو Publius Cornelius Scipio إلى لقائه عند منابع النهر ، ولو سار إليه تواً من غير تباطؤ ، لكان من المحتمل أن يصد



وعبرت الفيلة نهر الرون على
أرماث . فلزمت السكينة من فرط
الجزع حتى بلغت شاطىء النهر . . .

غارته ويقوى على رده ، ولكنه تريث هناك ولبث فى مكانه وأرسل فرقة من خيالته، لتستطلع الأمر وتوافيه بالنبأ اليقين . فأخذت تتجول حتى التقت بفرقة من خيالة هانيبال كانت تطوف فى جنبات الوادى رغبة فى التجسس على العدو واستطلاع أنبائه ، فبدأت ملحمة حادة أفضت إلى انتصار الفرقة الرومانية ، فعادت إلى بطلها تحدثه نبأها ، وسارع سيبيو إلى هانيبال حتى إذا بلغ مكانه افتقد أثره وضل طريقه ، فلم يلحق به باحثا عنه تلافيا لما قد يعقب اللحاق من شر ويتسبب عنه من خطر . وأوفد أكثرية جيشه إلى أسبانيا تحت إمرة أخيه ، وقفل راجعا إلى إيطاليا . .

أما هانيبال فقد أقام الدليل بهذا الأقدام العجيب على أنه قد صِيغ على غير شاكلة الناس . .

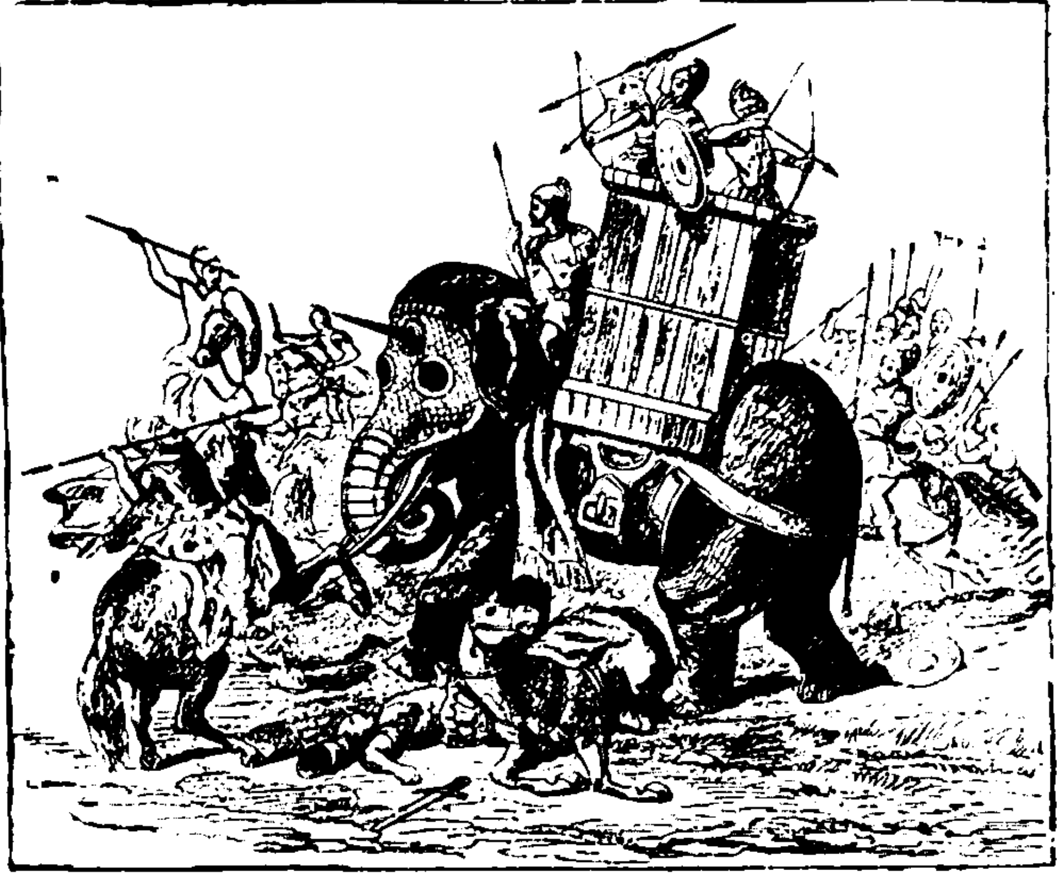
وإن مسير جيش لجب محمل بكل مايتطلبه من ذخائر وأثاث وفيلة وخيل ، ومضيه إلى الألب ليعبرها ويقتحم صعابها ويتخطى مشاقها لأقدامٌ يتجاوز نطاق التصور ويجور على حدود المنطق . وقد شرع هانيبال فى تنفيذ هذه الخطة الجهنمية فى فصل يشتد فيه البرد اشتدادا

لا يتفق مع الجهد الشاق الذى يتطلبه تحقيق هذا المطلب العسير

وما وقفت الطبيعة وحدها فى وجه هانيبال ترده عن عزمه، وتدفعه عن الأقدام، فقد انتشرت فى طريقه قبائل جبلية متوحشة تثير العداء فى وجهه وتنشر العثير فى عينه، رداً لتطفله على بلادها، واغتناماً لفرصة السلب والنهب وما إليهما بسبيل، فما ارتقى الجبل حتى بدأت حملاتها تتوالى وهجماتها تترى حتى كاد أن يبلغ نهاية رحلته. وقد استهل مسيره بطريق ضيق شديد الانحدار فصب عليه أهل الجبل وابلا من قذائفهم، وأمطروه بالهجمات حتى كان الجيش لا يقطع ميلا واحداً إلا إذا ظفر به بعد حرب ضروس يثيرها، إلى أن بلغ بحيرة بورجت Bourget حيث زايله الخوف وداخله الاطمئنان. فانطلق إلى مدينة يستوطنها الجبليون واستولى عليها واسترد منها معظم ما سلب من متاعه، ونهب من من أثاثه. ثم مضى فى طريقه آمناً ثلاثة أيام لجأت القبائل بعدها إلى الحيلة ولاذت بالمكيدة بعد أن امتنعت عليها مطاردته بالقوة، وعزّت مقاومته بالشدة، فسار زعماؤها إلى معسكر القرطاجنيين وزودوه بالمدد وقدموا له الرهائن لتنطق بولائهم له، وعطفهم على حركته.

وتظاهروا بالاستعداد لإرشاد الجيش إلى سبيله من أخصر الطرق وأدعاها للأمان . ورغم ما لزمه هانيبال من حيطة وحذر وتردد فقد وقع فى الشرك ، وأذن لهم فى قيادة الجيش فسلكوا به طريقاً شديدة الضيق تحفها الأخطار، ومضوا فيها حتى إذا حانت الساعة استيقظ الجيش من غفلته فاذا الصخور الضخمة تنحدر زاحفة اليه ، ووابل الأحجار ينهال عليه — فى غير تمهل ولا انقطاع . . . وساعده على احتمال هذا الشر النازل وجود الفيلة فى صفوفه لأن الأعداء كانوا يخافونها ويجفلون إذا رأوها مقبلة عليهم فى سلاحها الرهيب حتى تمكن من أن يصمد لهذه المكيدة وينجو من شرها وإن لحقته منها خسارة فادحة . (الصورة ص ١١٥)

وكان هانيبال يلتقى فى مسيره بصخور ضخمة لا يقوى رجاله على ارتقائها أو اقتحامها أو الانحدار منها ، فكان يلجأ إلى أشجار تجاوره فيستمد منها الوقود ويكدسه أكواماً كثيفة يوقدها إذا هبت الريح ، ويصب الخل فيذوب الصخر وينحل حتى لا يقوى على احتمال الآلات الحديدية التى تعمل فيه بعد . .



مهمة الفيل فى ميدان القتال . . !

وكان الجيش يمضى فى طريقه يقاوم البرد القارس والثلج الهاطل والصخر الرابض والعدو الكامن والنَّـصَب الملازم والمرض الداهم . حتى ارتد الجنود إلى اليأس ومالوا إلى القنوط . . ولـكن هانيبال أخذ يذكى حماسهم ويصون نشاطهم ويوقد آمالهم ، ويُـلوِّح لهم بما ينتظرهم من خير حتى أشرفوا من قمة عالية على سهول إيطاليا الخصبة فصاح فيهم قائلا :

« إيطاليا لنا تمنعنا . . روما . . روما ستكون فى قبضة يدنا بعد معركة — أو معركتين إن طال الجلاد واشتد الكفاح »

وانحدر الجيش إلى السهول فبلغها فى ستة أيام بعد أن جاوزت رحلته إليها من « سغنتم » أربعة أشهر طوال حافلة بالأهوال ، وأضحى الجيش عشرين ألفاً وستة آلاف فارس — أنهكهم النصَـب وضعضعهم الضعف . وخلف فى طريقه ثلاثة وثلاثين ألفاً نهباً مقسما بين المرض البغيض والبرد الشديد والتعب المُـلِـح . .

فتح ايطاليا

١ — تريبيا Trebia

ا « تريبيا : آية النعمة فى سما الانسان — استهانة قادة الحرب بالنفوس البشرية — خلفاء سيبيو يحملون رءوس الرومان إلى معسكر هانيبال — فرار سيبيو إلى تريبيا — انتصار هانيبال ·

ب « ترازمين : حلفاء هانيبال يضيقون به — تنكره — مشاق رحلته العجيبة — فقدان عينه — لا يشعرون بهزة زلزال عنيف — اكبار البطولة للبطولة _ الاحجام عن غزو روما — سياسة التخريب .

ج « سياسة التوانى فى اضرام النار :

مثال من حيل هانيبال مع أعدائه — المشاعل فى قرون ألفين من الثيران · هياج الحلفاء على قائد الرومان — عودتهم إلى الرضا عن سياسته — فوز الحزب الداعى للحرب فى الانتخابات — فارو وأمليوس .

توارت من جنود هانيبال بعد هذا الجهد الممض « سما الأنسان » وسوَّاهم التعب الشاق فى سحنة القردة وما إليها بسبيل . وليس ذلك ببدع فان المكدود الذى أعياه

الأجهاد طويلا، يحمل معالم الشقاء وآيات النصب في سحنته، كما يحمل السعيد الذي طال تمتعه بالعيش الرغيد آية النعمة في وجهه، فأصاب العطف هانيبال على هؤلاء الأشقياء الذين يسمون « ناسا » تجوزا في التعبير . . ! وأمهلهم عدة أيام يتنفسون فيها برد الراحة . . ثم ألقى طعنته الأولى فاذا قبائل إيطاليا الشمالية في صفه، تمده بالعون، وتزوده بالذخيرة، وتقدم له المقاتلين عن سعة . . !

فلما بلغه أن سيبيو P. Scipio قنصل الرومان قد اقتحم جبال « الأبنين » وعبر نهر « البو » وتهيأ للقائه، أمر طائفة من أسرهم عند اجتياز الألب أن يقاتل بعضهم بعضا، فمن أصاب نصرا فقد فاز بحريته وانطلق محملا بالسلاح جزاء انتصاره، ومن أخطأه التوفيق لقي حتفه إن ضل الموت سبيله إليه أثناء قتاله. وأقيمت المباراة وأقبل الأسرى على القتال يحتويهم الأقدام ويملأهم الحماس ويحدوهم الأمل، وتحوطهم غبطة زملائهم من سكان الألب الذين لم يقع عليهم اختيار هانيبال . . . وبينما المقاتلون يثيرون العثير ويغيبون خناجرهم في أجسام خصومهم .

فتهوى على الأرض جثثهم إذ بهانيبال يتجه إلى رجاله ويقول لهم :

« إن هذا ليمثل موقفكم أصدق تمثيل ، فأنتم اليوم مخيرون بين أمرين لا ثالث لهما : التمتع بفخار النصر وجلال الحرية ، أو ملاقاة موت شائن لا مفر منه ولا خلاص من عاره . فانظروا كيف أقبل على القتال هؤلاء البرابرة ، وحذار أن تكونوا أقل منهم حماسا للحرب وانتصارا للقتال . . ؟ »

وكان يعلن — منذ عبر الألب — فى أنحاء إيطاليا أنه إنما جاء ليخلص الطليان من شر الرومان ، وأعطاهم دليلا يشهد بصحة دعواه فأطلق سراح الأسرى من أهل إيطاليا دون أجر ولا افتداء .

ثم اضطرمت النار بين العدوين على الشاطىء الشمالى لنهر البو واشتد سعيرها حتى كاد أن يقضى سيبيو فيها نحبه (الصورة ص١٢١)

ولكن ابنه الذى لم يتم الحلقة الثانية من عمره قد أنقذه من فم الموت بعد أن أصابه جرح بليغ . . ثم لاحت بوادر النصر بعد أن طال انتظاره وامتد أمد الجهاد

فى سبيله ، نخف إلى معسكر هانيبال كثير من قادة الغاليين الذين كانوا يتصرون للرومان وينتظمون فى صفوفهم . بل انقض بعضهم على الرومان وأعمل فيهم سيوفه وخناجره ثم حمل رءوسا فصلها عن أجسام أصحابها ومضى بها تحت جنح الظلام إلى معسكر هانيبال لتكون أنطق دليل على وفائه، وأبلغ حجة على استيائه من الرومان ..!!

فدعا هانيبال قادتهم وزعماءهم واستعرضهم أمامه، ليعرف مدى العون الذى ينتظره منهم ، وغاية الولاء الذى يحملونه له فى قلوبهم (الصورة ص ١٢٣)

وارتاع سيبيو لهذه الحركة التى أخذت تسرى فى حلفائه من أهل الغال ، ودفع به الفزع إلى المضى شمالا حتى إذا بلغ تريبيا Trebia استقر بها واطمأن على حياته من كل سوء . .

وأرسل هانيبال الأفريقيين من فرسانه ليتعقبوه وينزلوا به الشر فى طريقه ، فأبطأوا وتوقفوا عن المسير عندما بلغوا معسكر الرومان ليقوموا بواجبهم فى نهبه وسلبه واحراقه . . !

وعوض هانيبال هذه الفرصة التى فرت من يده



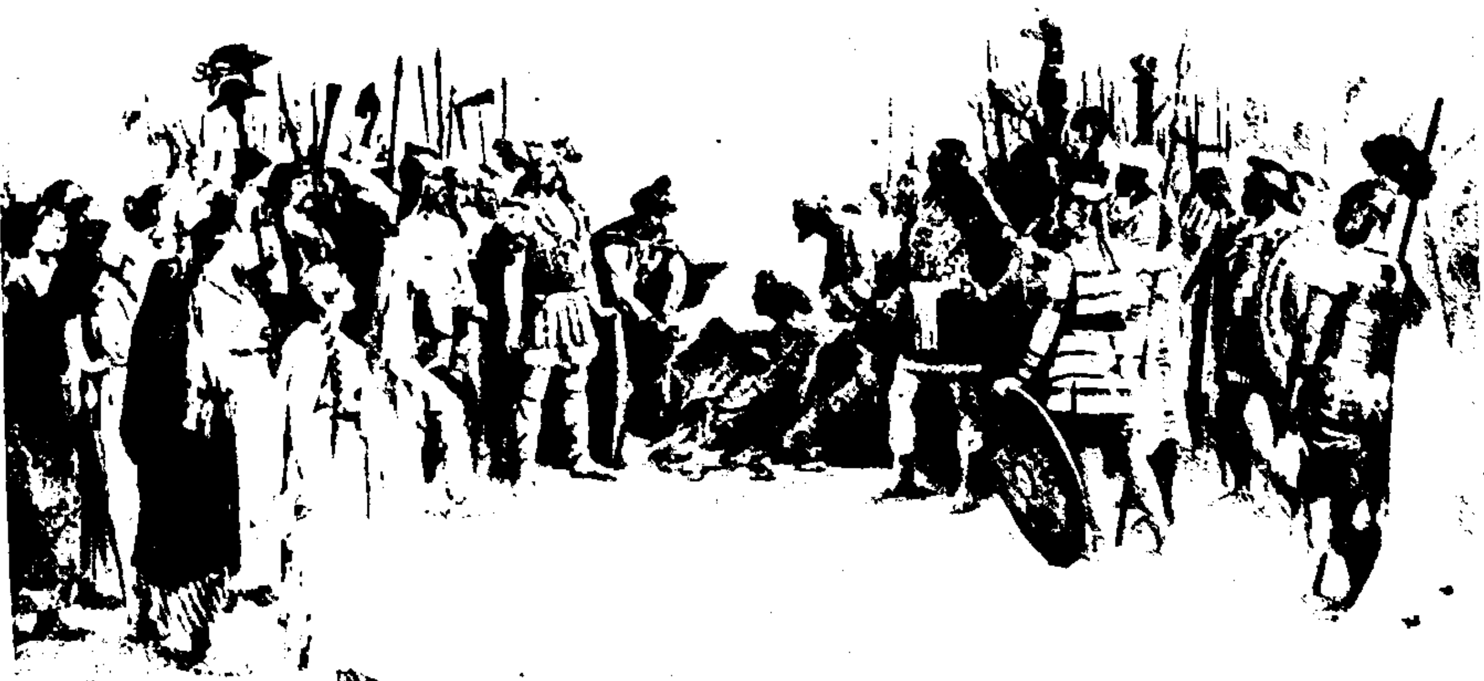
احدى المعارك بين « سيبيو » وهانيبال

بالاتفاق مع حارس الحصن الذى جمع فيه الرومان ذخائرهم، على تسليمه فى سبيل أربعمائة قطعة من الذهب .

وأقبل بعد هذه الصفقة قنصل الرومان الثانى فآض جيشهم لجأ يوحى بالأمل ويبعث على الرجاء ، فاعتزم أن يسارع إلى القتال حتى إذا تخلف زميله بسبب الجرح الذى ألزمه فراشه، حمل وحده فخار النصر الذى يصيبه، واتجه إليه إعجاب روما وإكبار جنودها قبل أن تنقضى سنة خدمته . .

وكان هانيبال لايقل عنه شوقا للحرب ورغبة فى اقتحام نيرانها ، فأعلنه بها وتقدم له قائد الرومان بجيش يلذعه الجوع ويؤذيه برد الشتاء القارس . وكان المطر ينهمل فى غير شح حتى غمر نهر تريبيا وعلا بين شواطئه حتى بلغ صدور الرجال .

أما جيش هانيبال فقد كان يقاتل موفور الحظ من الدفء والشبع على السواء ، فأثخن عدوه ضرباً وقتلا وأطلق فيه يده حتى أفقده نصف قوته الجبارة بين هالك وشريد وأسير وضال . . !



دعا هانيبال قادة الغـــاليين وزعماءهم ، واســـتعرضهم أمامه ليعرف مدى العون الذى ينتظره منهم ، وغاية الولاء الذى يحملونه له فى قلوبهم ...

— ب — ترازمين

ولكن أهل الغال الذين خفّوا إلى نصرته من قبل، وأمدوه بالعون وأحاطوه بالعطف قد أحسوا بأنهم مطالبون بأن يسدوا حاجة الجيش من زاد وذخيرة ومقاتلين، فساءتهم هذه الضريبة البغيضة وتنكروا له حتى داخله الريب في إخلاصهم، وخشيَ أن يغتاله واحد منهم. فأخذ يتنكر في زيه ويلبس شعراً مستعاراً ويجاهد ليخفي عنهم أمره ...!

وكانت جيوش الرومان تراقبه وتتولى حراسته. فاتّقى في سيره مواطن وجودها، وانطلق إلى قلب اتروريا Etruria — في شمالي إيطاليا — سالكاً أخصر الطرق وإن ملأته المستنقعات حتى عزّ على رجاله أن يجدوا فيه مكاناً يتنفسون فيه برد الراحة، فكانوا إذا ضاقوا بمشقة السفر ألقوا في الماء أمتعتهم وجثث الهالك من خيلهم، وانحطوا عليها هامدين.

وقد أدركهم في هذه الرحلة النصَب الممِض، ونزل بهم الجوع البغيض، ولجّ بهم شوق إلى النوم، ولحق بهم أذى

بالغ . وقاسمهم هانيبال ما اصطحبهم فى رحلتهم من شقاء، وسابقهم إلى أخذ نصيبه كاملا غير منقوص، ففاز برمد أصاب عينيه ولم يفارقهما حتى اصطحب معه إحداهما . . !

ومضى هانيبال فى طريقه وخلف وراءه جيش العدو وأضحى خطراً يزحف على روما التى لا يفصلها عنه جيش يحميها ويتولى الدفاع عن أهلها. فلما طار النبأ إلى «فلامنيوس» Flaminius قائد الجيش الرومانى تعقبه فى غير تباطؤ . فكمن له هانيبال — وكان يتوقع مجيئه — فى تلال تمتد على كثب من شواطىء بحيرة ترازمين Trasumennus حتى إذا مر به انقضّ عليه هانيبال بخيله ورجله وأوسعه ضرباً وأثخنه قتلا وفتك به فتكا ذريعاً . ولم يتيسر للعدو أن يتقى هذا الشر الداهم لأنه فوجىء به على غرة وهو محصور بين البحيرة وجيش هانيبال فى جو أعتمه الضباب الكثيف . وكان جيشه — إلى هذا — مضطرب النظام يُعوزه التدريب وينقصه المران ، إذ كان حديث عهد بالحرب لا يعرف أفراده إلا فلاحة الأرض وزراعة الكرم وصناعة النبيذ .

على أن المعركة قد استمرت تضطرم ثلاث ساعات كَوت فيها المقاتلين بنارها. وأفقدتهم إحساسهم بما يدور حولهم حتى لم يتيسر لواحد منهم أن ينتبه لهزة زلزال عنيف ثار أثناء المعركة ، وأصاب بالتخريب أكثر من مدينة فى إيطاليا . . !

وسقط فى هذه المعركة الحامية قائد الرومان فلامنيوس وخار جنده وخبت نارها. فالتمس بعضهم سبيل الهرب بين التلال وسبح البعض ناجياً بنفسه ، وتوقف عن السباحة من كانت تثقله الأسلحة ، وجازف بعض هؤلاء فألقى بنفسه فى أحضان الماء يائساً ، فغرق من غرق وتقهقر إلى الشاطىء من لم يقوَ على السباحة ، فاستقبلتهم سيوف الأعداء وقامت بواجبها نحوهم . . (الصورة ص ٢٧) وقد تجاوز عدد الهالكين الآلاف من الرومان ، وألفين وخمسمائة مقاتل، وبلغ عدد الأسرى من الجيش المنهزم خمسة عشر ألفاً . . !

فلما سكنت عاصفة القتال وَثبت الذكرى إلى خاطر هانيبال ، وملأت كيانه بالأسى لمصرع خصمه العنيد : قائد الرومان ، فأمر رجاله بالبحث عن جثته



فى زرازمين :

التمس بعضهم سبيل الهرب بين التلال ، وسبح البعض فى الماء ناجيا بنفسه ، فتعقبهم جنود هانيبال وأدوا واجبهم نحو اعدائهم . . !!

ليحسن دفنها ويعز مثواها ، ويؤدى واجبه فى إكبار البطولة وتقديس ذكراها . . !

ثم انتقـــل هانيبال إلى الجنوب دون أن يفكر فى غزو روما التى يُعوزها اليوم من يحميها ويقوم على الدفاع عنها . ومضى إلى الجنوب الشرقى يعيث فى كل أرض يمر بها فساداً ، ويمتص ما بها من غنائم وأسلاب حتى بلغ البحر الشرقى على كثب من مدينة «هادريا» Hadria واستراح بعد هذا العناء الشاق..وكانت خيله مغطاة بالجروح والقروح فاغتسلت بنبيذ معتق عافاها من آلام ما بها .

ثم خطر له أن يتصل بوطنه الذى انقطعت عنه أنباء حملته منذ عبر نهر الأبرو، فأرسل إليه رسله حاملة وصف ما قام به من حروب وما انتهت إليه من نتائج . .

وانطلق بعد هذا إلى الجنوب مطلقاً يده بالتخريب والتدمير فى الجناح الشرقى من إيطاليا حتى بلغ «أبوليا» Apolia

وكانت عداوته وقتئذ وقفاً على روما وحدها ، فأمر بقتل مواطنيها وإهلاك فتيانها الذين يقوون على حمل السلاح، أما الطليان الذين وقعوا تحت يده فقد عفا عنهم وحرص على سلامتهم .

- ج - سياسة التوانى فى إضرام النار

فلما عرفت روما أن هانيبال قد خلفها وراءه ماضيا فى طريقه، زايلها الفزع وفارقها الجزع، وتيسر لأهلها التفكير فى جو من الهدوء والسكينة. فأجمعوا على الحرب رأيهم دون أن تدب إلى واحد وسوسة الضعف، أو تتسلل إليه همسة العجز فتميل به إلى الرغبة فى التسليم، أو يهزه اليأس إلى التفكير فى طلب الصلح..

وسلمت روما قيادتها إلى جندى مارس الحرب وخبر شئونها ومهر فى فنونها، ونصبته دكتاتوراً لا يحاسب عما يرى ويفعل — ذلك هو فابيوس — Quintus Fabius Maximus فبدأ بتقوية الجيش والأسطول معاً ثم أمر بتخريب كل شيء يمر به هانيبال. فلما تقدم جيش هذا فى طريقه أحس كأنه يضرب فى صحراء تشملها العزلة، وينتشر الركود فى فضائها العريض..! وانطلق فى طريقه لا يجد من يعترضه أو يقاوم هجومه حتى بلغ أغنى مكان عرفته الدنيا فى زراعة الكرم -

ذلك هو « سهل افلارنيان » Flarenian Plain وتعقبه « فابيوس » حتى إذا لقيه فى هذا السهل وثبت الغبطة إلى نفسه، واستخفّه الرضا وأخذه الظن بأن عدوه قد صاده الشرك، وانسدت فى وجهه سبل الخلاص فى شتى المناحى..

ولكن هانيبال كان خصب القريحة سريع البديهة، فى ذهنه فيض من الحيل والمكائد ينطلق فى أشد الأوقات عسراً وضيقاً. فما أحسّ بتعذر الهرب حتى هيأ الحيلة التى تكفل لنفسه ولجيشه النجاة محملا بكل ما أصابه فى طريقه من غنائم وأسلاب. قيل إنه جمع ألفين من الثيران التى كانت تكتظ بها البلاد التى قام بسلبها وتخريبها، وأوثق بقرونها جميعاً حزماً من عساليج جافة. ولما أقبل غسق الدجى تقدم إلى الشرق والثيران فى طليعة جيشه، فما بلغ التلال حتى أمر بأن تشعل حزم العساليج. (الصورة ص ١٣١) فلما انتشر وميض النور شاع الرعب فى الثيران، وما اتصل اللهب بلحمها عند منبت قرونها حتى اندفعت تعدو إلى الأمام فى وحشية بادية الأثر، فَرِيعَ الأربعة آلاف رومانى الذين كانوا يقومون على حراسة الممر الرئيسى فى التلال، ونال منهم هذا المنظر كل منال، وأيقنوا أنه



امرى حيل هانيبال : يجمع ألفين من الثيران ويوثق بقرونها حزماً من عساليج جافة . يشعلها فى غسق الدجى فترتاع الثيران لوميضها ، وتضطرب حين يتصل اللهب بمنبت قرونها، فتعدو فى اتجاه العدو الذى يأخذه الروع وتذهله الحيرة فى أمرها ...

خطر رهيب يقبل عليهم ويسارع إليهم وإن تعذر عليهم أن يدركوا مغزاه . . ! فبارحوا مكانهم وانطلقوا إلى أعالى التلال مذعورين . . !

ورأى فابيوس هذا المشهد العجيب وهو فى معسكره . فشاعت الحيرة فى نفسه ولم يجرؤ على أن يبرحه حتى تنفس الصبح . . ! ونجا هانيبال بجيشه وأسلابه فتعقبه فابيوس وقد ناء بثقل هذه الصدمة ، لأنها أثارت عليه خصومه الذين أخذوا يهاجمون فى المجلس سياسته ، وينعون عليه تفويت الفرص بالتزام البُعد عن الحرب على كرهٍ منهم — فالحلفاء الذين خلف لهم هانيبال الخراب والدمار فى بلادهم ، ولم يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم تنفيذاً لسياسة الدكتاتور ، قد هاجوا غضباً وغلا الدم فى رءوسهم ، وصبوا على فابيوس لعناتهم فى سخاء . وكذلك كان موقف الأغنياء الذين رأوا ممتلكاتهم وقد أصابها الخراب وتولاها الفقر ، قد جأروا بالاستياء والشكوى .

وانطلق الدكتاتور إلى روما فى قضاء أمر يعنيه ، وترك قيادة الجيش لسيد الفرسان — كما كانوا يسمونه — «منوكيس» Minucius بعد أن شدد عليه فى التزام السياسة

التى ترمى إلى تجنب القتال مع العدو ـــ جرياً على سنته ـــ ولكنه عصى الأمر وقام بحرب أفضت إلى نصر غير مبين . فلما اتصلت أنباؤه بروما اشتد خصوم فابيوس فى الهجوم عليه والحط من شأنه والسخرية بسياسته . وطالبوا الشعب بتقسيم الجيش بين الدكتاتور وخليفته ـــ ولكن هانيبال أنزل بالثانى هزيمة أدت به إلى الاعتراف بخطيئته، وتسليم القيادة كلها إلى بطلها فابيوس .

وكانت سياسته ترمى منذ البداية إلى ترغيب الرومان فى الحرب ، وكانوا يرهبون نارها ويخشون شرها حتى صبّ المواطنون على قادة الجيش سخطهم ونالوا منهم كل منال . وخاف هؤلاء إن هم تمادوا فى ترك هانيبال يعيث فى الأرض فساداً أن يفقدوا عطف حلفائهم ولا يجدون النجدة إذا التمسوها، فمالوا إلى الحرب وكانوا عنها معرضين . .

ولما بدأت الانتخابات فاز الحزب المؤيد للحرب فوزاً مبيناً وانتخب « فارو » C.T.Varro قنصلا بأغلبية ساحقة ، فأضاف إلى جيشه قوات عديدة آض بعدها تسعين ألف مقاتل يحنون إلى الزحف على هانيبال .

أما القنصل الثانى أمليوس Amelius فقد كان جندياً مارس الحرب وخبر أمرها ومهر فى فنونها، فوثب إلى خاطره الشك فيما ستنتهى إليه المعركة المعتزم إثارتها. وأراد التمهل بها والاتئاد فى خوض غمارها، فأخفق مسعاه لأن « فارو » كان تواقاً لها نزاعا لاشعال نارها. ومضى — على كره من زميله — إلى مكان يتوسط هانيبال والبحر، ثم استقر على أرضه، فكان هذا نذيراً بما ينتظره من ويل وما سيلقاه من شر.

مجزرة كانى

الشخصية الأخاذة ـ جيوش العدوين ـ علم يخفق على معسكر
« فارو » ـ جحيم القتال ـ رسالة « أمليوس » إلى
روما ـ فظاظة القرطاجنيين

للشخصية الفذة سحر أخاذ بالنفوس خلاب للخواطر خدّاع للناس ، وإن صاحبها ليفعل باسمها ما لا يقوى على فعله بكل ما أوتى من مواهب وكفاءات ، وإنه ليتسلط على رقاب الناس وليس لديه من الصفات الملموسة ما يبرر سلطانه الواسع النطاق . . بل إن اسمه وحده ليحمل الناس على جناح الخيال ويسوقهم على غير وعى منهم إلى حيث لا يرغبون . . .

وقد كان هانيبال — كسائر الأفذاذ من الأبطال — يبعث فى جنوده الميت من آمالهم ، ويشعل الخابى من

نشاطهم ، ويثير الراكد من حماسهم حتى ليحسون بالحياة تدب فى نفوسهم ، وفتوة الشباب تشيع فى كيانهم ، رغم ما ينالهم من ضعف وما ينتابهم من اضمحلال . .

وقد حطّ على الجيش الهزال بعد ما خاض من معارك واقتحم من حروب ، وها هو ذا اليوم يقبل على معركة حامية دامية ، فيخلق هانيبال من هزالة قوة ، ومن ضعفه فتوة ، ومن يأسه رجاء ومن ركوده نشاطاً . .

وأقام «هانيبال» معسكره على كثب من «كانى» Cannae جنوبى نهر أفيدس Aufidus وكان جيشه ستين ألف مقاتل فوكل إلى عشرة آلاف منها حراسة المعسكر . وأقام فى الجناح الأيسر (الخريطة ص ١٣٧) ثمانية آلاف فارس كلهم أسبان وغاليون ، يتولى قيادتهم هسدروبال — وهو غير هسدروبال أخو هانيبال — ويليهم المشاة من أهل إفريقيا ، وقد استعاروا ملبسهم وسلاحهم من غنائم « تريبيا » Trebia وترازمين Trasemene ويليهم بقية المشاة من الأسبان والغاليين يتولى أمرهم « هانيبال » وأخوه « ماجو » Mago وقد ارتدى الأسبان كعادتهم ثياباً من كتان فى أكمام قصيرة وتقلدوا سيوفاً ذات أطراف



قوات العدوين

فى مجزرة كانى

مدببة يلقونها فى جسم العدو ولا يطعنونه بها وهى باقية فى أيديهم . أما أهل الغال فكانوا يحملون سيوفاً طويلة غير مدببة تظل فى أيديهم طوال المعركة . وقد استعان الفريقان بدروع مستطيلة تقيهم شر الأعداء. وكانوا طوال الأجسام حتى بدوا عمالقة فى نظر الرومان والطليان . وكان يلى هؤلاء جميعاً فرسان من أهل إفريقيا ونوميديا Numidia

أما الرومان فقد كان جيشهم ثمانين ألف مقاتل ، يبدأ بفرسان روما ، يليهم المشاة ويبلغون سبعين ألف راجل ، يعقبهم فرسان الحلفاء يتولى قيادتهم «فارو»

وتنفس الصبح مع علم يخفق على معسكر « فارو » معلناً الحرب منذراً بشرها المستطير وويلها الرهيب . . وكان الرومان يواجهون الشمس فى وقفتهم ، فأنقذهم الصباح الباكر من أذى توهجها ، ولكن ريحاً حارة ساقت سحباً من الأتربة على وجوه الرومان كادت تفقدهم القدرة على النظر إلى ما يجرى أمامهم . . وبدأت المعركة بوابل من الأحجار يهطل على الجيش الرومانى ، ويثيره حتى يتقد العراك ناراً حامية ، فيتطاير العثير وتغيب فى الأجسام السيوف ، وتدفن الحراب والخناجر ،

وتسيل الدماء، وتغطى الأرضَ جثثُ القتلى والجرحى، ويمتلىء الجو بالأنين يتجاوب مع صليل السيوف حتى يَملّ القرطاجنيون الذبح والفتك والأسر والتشريد.

وقيل إن فى هذا العذاب الذى يتقد فى جهنم طارت إلى صفوف الرومان كتيبة من جيش هانيبال، وألقت على الأرض حرابها ودروعها وكل ما تحمل من أدوات القتال وسلمت للعدو نفسها، فرحب بها وأخلى لها الطريق لتجتازه إلى صفوفه الخلفية.. وتظل النار فى اشتعالها حتى إذا حان الوقت الملائم واشتد هانيبال على صدر الجيش الرومانى، أخرجت هذه الكتيبة حرابا وخناجر وسيوفاً كانت تخفيها تحت ثيابها، وأعملتها فى مؤخرة الجيش المخدوع، فانتشر فيه الذعر وذاع فيه الروع وعلا صياحه وعويله، وتمشى الاضطراب بين صفوفه، وانطلقت جموعه تهرع يمنة ويسرة لا تعرف اتجاها تسلكه لتنجو من هذا الجحيم، وتتقى العذاب الذى يمطرها به هانيبال ويحيطها بشره من وراء ومن قدام..

وتساقط جثث الخيل مع جثث القتلى والجرحى بعضها فوق بعض يلاقى الحى منها عذاب الأثقال التى يحملها فوق آلام ما ينبث فى جسمه من جروح . . !

وفى وسط هذا الجحيم يبصر ضابط رومانى ضابطا من جنسه وقد انحطّ على حجر ، وانثنت رقبته لا يملك رفعها والدم يتدفق من جسمه ، فيسير نحوه ويتبينه فاذا هو القنصل الرومانى « أمليوس » يوشك أن يدركه الأغماء . . ! فيتقدم الضابط نحوه ويعرض عليه جواده ليمتطى ظهره ، وينجو من هذا العذاب الذى يتنفسه كارها — فيأبى القنصل قائلا :

لست أريد البقاء حيا ، فامتطِ جوادك وسارع إلى روما ، وقل للحكومة على لسانى إنا خسرنا كل شىء ، لتتأهب للدفاع عن روما قبل أن يدركها هانيبال . . ! فيتركه الضابط ويمضى على جناح البرق ليعلن لها هذا النبأ المروّع . . ويبقى القنصل فى مكانه لا يريم حتى يمر به فيلق من جيش هانيبال فيغرز فى جسمه الواهن حرابه واحدة بعد أخرى حتى يلفظ نفسه الأخير . .

وبعد ثمان ساعات من بدء المعركة كانت الشمس تهمّ

بالمغيب ، وتهيء للأشقياء سبيل الهرب . . ! ففر تحت جنح الظلام ثلاثة آلاف مقاتل، وهلك سبعون ألفا بينهم ثمانون عضوا من أعضاء مجلس الشيوخ ، وهرب «فارو» بسبعين فارسا ، وأسر معسكر الرومان وسجن الذين كانوا يتولون الدفاع عنه .

أما هانيبال فقد خسر فى هذا الجحيم كله ستة آلاف مقاتل هلكوا فى بداية المعركة . . !

فاذا أصبح الصباح انطلق الجند إلى ساحة الحرب ، ليشهدوا آيات النصر الزاهر وبوارق الأمل الباسم ، فاذا آلاف الجثث ملقاة تدمى جروحها ، ويتأوه من صحابها من لم تفارقهم الحياة بعد — وما كانوا على التأوه والأنين بقادرين . . !

وينساب الجنود وسط هذه المأساة الرهيبة ليطعنوا الجرحى بحرابهم ساخرين ضاحكين . . ! ويكشف بعض هؤلاء صدورهم طالبين الخلاص من شقاء آلامهم وعذاب ما بهم . . .

نتائج كانى

— ١ — على قرطاجنه

احترام الهزيمة عند الجماعات — سحر « كانى » — انضمام كابوا —
وسط ايطاليا وجنوبها — حكم التاريخ — حماس « مهربال »
وسياسة « هانيبال » — « ماجو » يخطب فى مجلس
الشيوخ — زعيم حزب السلام يبسط اعتراضاته
— نجـدة هانيبـال —

تقول سيرة النصر والأخفاق فى تاريخ الكفاح بين الأمم : إن الجماعات البشرية لا تعرف السبيل إلى احترام الهزيمة ، ولا تدرك القداسة التى ينطوى عليها احتقار الغلبة فى كثير من الأحيان ، لأنها بطبيعتها تخاف القوة وتتملق أصحابها ، وقد تدفع كرامتها اتقاء لشرهم وحرصا على كيانها من عدوانهم . . !

على أن انتصار « كانى » لم يكن منقصة لصاحبه ولا معرة لتاريخه — فى عرف تنازع البقاء إن لم يكن فى عرف ملائكة السلام — وقد اجتمعت فيه آيات القسوة ومظاهر الروعة فانتشر نبؤه فى مشارق الأرض ومغاربها ، وساق خصوم الغالب إلى طلب مرضاته ، والسعى للسير فى ركابه ..!

ففى كابيوا: Capua بدأ الشعب يجأر بالهتاف لقرطاجنه، وطلب الانضواء تحت علمها ، وأبت جماعة الأشراف ترداد الهتاف ، وقاد حركة المعارضة شريف صاهر بيتا من بيوتات روما المعروفة ، فثار الشعب فى وجه مجلس الشيوخ ، واغتال طائفة من الرومان الذين يقيمون فى المدينة ، ثم أرسل وفدا يدعو هانيبال إلى زيارتها ..

وكانت « كابيوا » موفورة الحظ من القوة والشهرة والعظمة ، لا يعلوها بين سائر المدن الأيطالية غير روما وحدها ، وكان فى مقدورها أن ترسل إلى الميدان ثلاثين ألف راجل وأربعة آلاف فارس مزودين بالعدد والذخائر .

فلما اتصل بهانيبال وفدها ، وأبلغه دعوتها خف إلى إجابة المطلب وقد استخفه الرضا وشاعت الغبطة فى كل

جارحة فى جسمه، واعتبر هذا نصرا يفوق انتصاره فى «كانى»..

ولما بلغ هانيبال المدينة حضر اجتماعا عقده مجلس الشيوخ بها، فتعهد للأعضاء أن تأخذ «كابيوا» مكان روما فى سالف مجدها وغارب عزها. فنال من نفوسهم بالوعد أكثر مما كان يُحتمل أن يناله بالسيف.. فلما اطمأن إلى ميلهم له ومرضاتهم عنه، طلب إليهم أن يسلموه رجلا من أهل المدينة تولى مقاتلته منتصراً لروما وأبلى فى حروبه بلاء حسنا، فألقوا القبض عليه وسلموه إليه، فأرسله هانيبال إلى قرطاجنه..!

وسط إيطاليا وجنوبيها: وانساق إلى هذا المصير معظم القبائل فى وسط إيطاليا والمدن الآهلة بالسكان العامرة بالقوة فى جنوبيها. وسارعت إلى عصيان روما والانتصار لهانيبال..! وما كان لهذا الانسياق من سر إلا روعة النصر، وخديعة الغلبة، وإيحاء الرهبة..

***

وبينما التاريخ يتأهب ليعلن للناس حكمه ،فينشر طرسه ويتناول قلمه ويهمّ بأن يقول للأجيال المقبلة :

تهيأت لقرطاجنه سيادة الغرب وإمامة الدنيا بعد « كانى » وشاخت روما قبل أوانها ، فابيضّ شعرها ، واصفر لونها ، وتقوس ظهرها ، ودب الوهن فى عظامها ، وتمشى السقم فى أوصالها ، وأصاب ساقيها الانحلال ، وعينيها الضعف ، وجسمها الهزال ، وحشرجت الروح فى صدرها فأعدّ الزمن رمسها ، وراح يكتب للناس نعيها..

بينما التاريخ يتأهب لإعلان هذا النعى فيفرغ من روما الهرمة ، لينصرف إلى قرطاجنه الفتاة، إذ بصوت القضاء يهمس فى أذنه :

بل تحيا روما . . هكذا أراد الرومان ، وإرادة الشعوب من إرادة الله »

فيرفع التاريخ قلمه ، ويطوى طرسه ، وقد أخذه الذهول لأن تجربته بالاضمحلال والبعث كانت إلى هذا العهد، أضيق من أن تحتمل هذا النبأ الجديد الذى يطرق سمعه . .

وفى الحق أن الحادثات التى انتهى إليها هذا الكفاح العنيف لتبعث على الحيرة فى أمر روما المغلوبة . . فإن حلفاءها قد تألبوا عليها ، وائتلفوا مع العدو وأجمعوا الرأى على دحرها ، وأحاطوا بالأخطار حياتها ، وهى فى أمسّ الأوقات حاجة للعون ، وأدعاها لشد الأزر . .

أما هانيبال فقد التف حوله قادته وضباطه والطرب يستخفّهم ، والتفاؤل يحملهم على جناحه ويحلق بهم فى فضاء المستقبل السعيد . فيقول له « مهربال » Mahrabal قائد الخيالة فى جيشه :

بعد أربعة أيام على التحقيق تتناول عشاءك فى « الكابيتول » فدعنى أنطلق بخيالتى إلى روما ، لأفجأها بقدومى وأفسد عليها التفكير فى التأهب لاستقبالى .

ولكن هانيبال كان يؤثر التأنى والاتئاد حتى يمتد أجل العذاب الذى يتجرعه العدو ، ويمتع النفس بمرآه وهو يحتضر ، لأن كراهة الإنسان لأعدائه لا تعيش فى قلبه إذا انتقم لنفسه منهم ، وهو يريد الاحتفاظ بالبغضاء ما عاش . . ! فينفجر مهربال فى سورة كلها غضب ويقول له :

« إن الله لا يهب كافة نعمه لإنسان واحد ، فأنت تحسن معرفة الطريق إلى النصر ، ولكنك لا تعرف السبيل للاستفادة من نصرك . . »

وسيجيء اليوم الذي يندم فيه هانيبال على تفويت هذه الفرصة دون أن يغتنمها وينتفع بها . .

ولكن روما أخذت تهيء نفسها لقتال عدوها، والدفاع عن حياضها ، فأرسل هانيبال أخاه « ماجو Mago» إلى قرطاجنه يطلب العون ليتيسر له أن يضربها الضربة التي تستل حياتها على عجل . .

فلما مثل «ماجو» بين يدي الأعضاء في مجلس الشيوخ، انطلق يصف لهم روعة النصر الذي أصابه هانيبال ، وجلال الاندحار الذي لاقته روما في مجزرة « كاني » ، وما سبقها من معارك، ويحدثهم عن الذين لاقوا حتفهم من أعدائهم وقد بلغوا المائتي ألف قتيل ، والذين زُج بهم إلى غياهب السجون وقد بلغوا الخمسة آلاف مقاتل ، حتى إذا فعل خطابه في نفوسهم فعله صبّ على الأرض ما جمعه الجنود من خواتم كان يتزين بها أفراد الطبقة العليا في خيالة العدو، فيأخذهم العجب وتتولاهم الغبطة .

ولكن «ماجو» يختم خطابه الممتع بطلب النجدة التى يستلزمها هذا الموقف الأخير لانهاء الكفاح بين قرطاجنه وأعدائها . لأن هانيبال قد أصاب النصر الحاسم وحفر للعدو قبره بثمن . . . زهيد . . دفعه من رءوس جنده وجهود الأحياء منها . وروما بلد حربى محكم التحصين، على أهبة للدفاع عن نفسه فى كل حين ، وهو لهذا يناشد الوطن المال والرجال والذخائر . .

فيصيب هذا المطلب قبولا من نفوس الأعضاء الذين أسكرتهم أنباء النصر وكانوا من دعاة الحرب ، ويلتفت أحدهم إلى «هانو» Hanno زعيم الحزب المطالب بالسلام، الحانق على دعاة الحرب ويقول له :

ألا يزال «هانو» نادما على إثارة الحرب ضد روما..؟

فيسارع هانو إلى الجواب قائلا :

بلى . وسأظل نادما حتى أرى الحرب وقد وضعت أوزارها وانتشر السلام فى ربوع البلاد . إن قائدكم ليطلب من المدد ما لا يطلبه الا القائد المنهزم . فهو يقول لكم :

أهلكت جيوش العدو فأمدونى بجنود . . ! أسرت معسكره عامرة بالذخائر والأسلاب والغنائم فأسعفونى

بالحنطة والمال . . ! فماذا كان يطلب هانيبال غير هذا لو انهزمت جيوشه ، وسلبت ذخائره وحطت عليه أقسى الهزائم وأفظعها . . ؟

إنى لا أرى ما يبرر الآمال التى تعلقونها عليه . وإلا فليجبنى ماجو : هل ائتلفت معنا مدينة واحدة من مدن اللاتين . . ؟ وهل انضم إلى صفوف جيشنا رجل واحد من قبائل روما الخمسة والثلاثين . . ؟

فلم يستطع أن يجيب « ماجو » بغير النفى .

فعاد هانو قائلا : هل وصلتكم أنباء من روما عن رغبتها فى طلب الصلح . . ؟

فأجاب ماجو سلبا .

فقال هانو : إنا إذن لبعيدون عن نهاية الحرب بعدنا عنها يوم عبر هانيبال الى ايطاليا ، وأنا لا أستطيع التصويت فى جانب الحرب ولا الموافقة على مدد يرسل ليطيل من أجلها ويكثر من عدد ضحاياها ، ويكبدنا خسائر جديدة ، ويتيح لعبادها كفاحا لا خير فيه ولا رجاء منه .

ولكن أنباء النصر كانت قد أسكرت بعض الأعضاء وخدرت أعصابهم فلم يملك عليهم شعورهم هذا البيان

الذى أذاعه فيهم زعيم حزب السلام . فأكرهوا المجلس على أن يرسل إلى هانيبال مددا ضئيلا يأتلف من أربعة آلاف جندى إفريقى وأربعين فيلا وزودوه بمال قليل .

وكان على « ماجو » أن ينطلق إلى أسبانيا ليؤلف جيشاً من عشرين ألف جندى ، تقوية لنفوذ قرطاجنه بها وبايطاليا على السواء . .

ـ ب ـ على روما

رصانة الخلق ـ تكوين الجيش من عصابات اللصوص ـ جزع النساء والأطفال ـ المجلس يقرر منعهم من مبارحة البيوت ـ انفضاضه لتهدئة الحال ـ الحراس على أبواب المدينة ـ موت « هيرو » ونتيجته ـ

أما فى روما فقد بدا الخلق الرصين الذى هيأ لها الظفر بأوسع امبراطورية مرت بالتاريخ القديم ، والتزم الشعب الثبات واحتمى بالعزم واستظهر بالرجاء فى المستقبل ، واستعان بالتفاؤل فى عواقب الكفاح ، وأعلن استعداده لنصرة قادته ولو كلفته الحياة وما ملك . وبلغ من اتزان عقله واستقرار رأيه وثقته بنفسه ، أن تقدم مجلس الشيوخ لاستقبال « فارو » حين عاد إلى الوطن

بعد أن جلب عليه هـذا الوبال كله ، فأحسن استقباله ورفع له الشكر على ما بذل من جهود وقدم من خدمات ..!

وشرعت روما فى إعداد جيش يحمى ذمارها ويحرس كيانها ، وسلكت لتكوينه كل سبيل خطر لها ، فَجَنَّدَت العبيد واستهوَت عصابات اللصوص وقطاع الطرق وأهل الشر ، واستمالتهم للانضمام إلى الجيش ، ووعدتهم جميعا بالعفو عما سلف من جرائمهم وغبر من شرورهم ، وائتلف لها بهذه الطريقة ثمانية آلاف جندى لا يخشونَ غمرة القتال .

وأرسل هانيبال يعرض على روما افتداء الأسرى من جندها ، على أن يكون الفارس بسبعة عشر جنيها والجندى من المشاة بعشرة جنيهات ، فأدركت روما بأن هانيبال لا يقدم على هذا العرض إلا وهو موقن بأن الغنم له والغُرم لها . فأبت الاستجابة لمطلبه ، وهيأت نفسها لمقاومته وَوَلَّت مارسلوس Marcellus قيادة جيشها . ونفخت فى الصور تطلب العون من أهلها .

على أن النساء والأطفال قد أصابهم الهلع وأدركهم الجزع حين ترامت إلى سمعهم أنباء « كانى » فقد شاع

فيهم الاضطراب وانطلقوا فى الشوارع يولولون ويبكون ويذيعون إشاعات أكثرها من وحى الوهم وإملاء الجزع حتى خاف مجلس الشيوخ أن يفشو ما بهم من سوء ويمتد إلى الرجال الذين تعتمد عليهم روما فى استرداد مجدها ، وتمكين سلطانها . وقرر المجلس الانفضاض ليتجول أعضاؤه فى الشوارع وينبثوا فى الدور وينتشروا فى كل أرجاء المدينة ليهدئوا من أصابه الروع ، ويخففوا من هول الذعر الذى بدأ يساور روما بأسرها، ولما شعر المجلس بأن النساء يبعثن فى الوطن خطرا أشد من خطر « كانى » أصدر الأوامر باستقرار النساء والأطفال فى بيوتهم حتى لايزداد القلق اشتعالا والجزع انتشارا . . ! ووقف على أبواب المدينة حراس يمنعون هرب الذين أدركهم الروع ولازمهم الوجل . وبهذا اجتمع الرومان على اختلاف نزعاتهم وتباين مذاهبهم فى السياسة عند خطة واحدة ألفت بينهم : هى حراسة الوطن والاستبسال فى الدفاع عن كيانه . .

وفى هذا الظرف العصيب مات « هيرو » حاكم « سيرا كوز » الذى كان ينتصر لروما وإن لم يحمل

العداء لقرطاجنه ، وكان رجلا طاعنا فى السن هيأت له خبرته بالحياة وتجاربه فى غمرتها حكمة وسداد رأى وبُعد نظر ، وخلف حفيده هيرونيموس Hieronymus وكان يجمع إلى صغر السن وقلة التجارب غباوة لا تلتئم مع دقة موقفه . فانتصر للجانب الذى خدعته قوته ، وكانت أنباء « كانى » ما فتئت تترامى ويتسامع بها النـاس مشفوعة باشاعات مبناها الوهم ومصدرها الخيال ، فانضم إلى هانيبال وسار فى موكبه يملؤه الأمل فى سيادة صقلية بأسرها . . !

وتقدم « فيليب » ملك مقدونيه الذى انتصر لروما فيما سلف من أيامها ، وأعلن استعداده للائتلاف مع هانيبال ، وإن لم يشدأزره فى أمس الأوقات حاجة للعون

وكان هانيبال قد أمضى الشتاء بعـــد « كانى » فى « كابيوا » وعاش فى دعة وهدوء فزايل جيشَـه النشاطُ وأدركه الركود ، وأفسده العيش بعيدا عن ساحة القتال ، فلما اتقدت نيران الحرب كاد أن يعدل النصر الذى أصابه الأخفاقَ الذى لحقه . . ! وكان هذا التعادل بداية عهد جديد حافل بالعبر .

الى المأزق!...

استيلاء هانيبال على تارنتوم ـ حصار كابيوا ـ هانيبال يقرع أبواب روما ـ عقاب كابيوا : امتهان قداسة الطبيعة البشرية ـ افلات صقلية من يد هانيبال ـ الكفاح فى أسبانيا : سيفاكس وقتال قرطاجنه ـ مصرع « سيبيو » وأخيه فى ايطاليا ـ نيرو وسيبيو البطل ـ سيبيو يحاول اشعال النار فى افريقيا ـ تمرد الجيش الرومانى وعودته الى السكينة

لبث هانيبال بعد « كانى » نحو خمسة عشر عاما يطوف أرض إيطاليا ويضرب فى مناكبها ، تصلاه وأعداءه نار القتال فيصيب التوفيق حينا وتكويه الهزائم أحيانا .

فرت « سردينيا » من يده على كُره منه ، وأدركت أحد قادته فى شمال إيطاليا هزيمة فادحة أدت إلى هلاك المشاة فى جيشه ، والتماس من بقى منهم سبيل الهرب . . ولازم هانيبال الأخفاق فلم يقوَ على حصار « تارنتوم » والاستيلاء عليها حتى أوقعتها فى يده المصادفة وحدها .

ذلك أنها أرسلت إلى روما رهينة من أبنـائها إعلانا لولائها . فالتمس بعضهم سبيله إلى الفرار ، وثارت روما ووقّعت عليهم عقابها ، فأمرت باعدامهم رميا بالسهام . واهتاج مواطنوهم لهذا النبأ واستيقظت الفتنة وتولاها نفر من الأشراف يُظن أن بينهم وبين من أعد مواصلة رحم وقربى. ثم اتصلوا « بهانيبال » فخف إليهم على رأس قوة قد انتقاها من جيشه،وعسكر على بعد عشرة أميـال من المدينة.

واتصلت بين حاكم المدينـة وبعض الثوار أسباب المودة فنام عن رقابتهم . وعاد بعضهم من الصيد خارج المدينة فى غسق الدجى ومعه خنزير جذاب الطلعة فانشغل به حارس البوابه ، وافتتن بمرآه ، حتى غافلته فئة من جنود هانيبال وانقضت عليه واغتالته ، فانساب جيش هانيبال إلى المدينة وانتشر فى أرضها . وسـارع الرومان إلى الاستيلاء على قلعتها . وأراد الغزاة أن يترضوا النافر من أهل المدينة ويستميلوه إليهم ، فأعلنوا أنهم لن يمسوا بالسوء واحدا من أهلها . فعلقت على الدور لوحات تشير إلى جنسية ملاكها ، اتقاء لنهبها وتفاديا لتخريبها.أما مساكن الرومان فقـد نالها الشر وأصابها الدمار . .

حصار كابيوا :

فانطلق الرومان إلى كابيوا ، وعسكروا على كثب من سهولها الخصبة . ومنعوا أهلها من فلحها وزرعها حتى أعوزها القوت وسعى إليها القحط . وأخفق هانيبال فى نجدتها فسار إلى روما ليطعنها الطعنة البكر التى تكفل لحليفته الخلاص من ضيقها . فبلغها وأقام معسكره على ثمانية أميال منها . . ! وكانت عزلاء لا تملك رد أذاه ، ولا تقوى على اتقاء شره . فتعقبه أحد قادتها فى « كابيوا » بخمسة عشر ألف مقاتل حتى أدركه وسبقه إلى المدينة ليتولى الذود عنها . . فلما اتصل هذا النبأ بسمع الرومان تولاهم الذعر وانساب فى كيانهم الجزع . فأما النساء فقد انطلقن إلى المعابد فى هياج وولولة ، وألقين بأنفسهن وشعر رءوسهن محلول أمام صور الآلهة وتماثيلها ضارعات باكيات . .

وفى اليوم الثانى مضى « هانيبال » إلى روما ، واقترب منها حتى ثارت عاصفة هوجاء ، وسحت السحب مطرها

من غير شح فعاد إلى معسكره كأنما استجابت الآلهة لضراعة النساء ، وانتصرت لروما إشفاقا عليهن . . !

وعجب هانيبال لعجزه عن فتح هذه المدينة التى كان بالأمس يقرع أبوابها ، راغبا عنها غير ميال إلى فتحها ، أيام أن كانت القوة تسعى بين يديه ، ولو شاء ذلك يومئذ لألزمها طاعته من غير عناء . . واليوم لا تنقصه الرغبة وإنما تعوزه القوة فينتظر الحظ حتى يواتيه . . !

وأخفقت شتى المساعى التى قام بها لانقاذ « كابيوا » فعاد إلى جنوبى إيطاليا ، مهيض الجناح مكسور الخاطر . واضطرت « كابيوا » إلى التسليم للرومان ، فصبوا عليها عذابهم عن سعة ، وانتقموا منها شر انتقام . ونال سكانها — خاصة وعامة — حظهم فى الجلد والسجن والتعذيب . وامتهنت قداسة الطبيعة البشرية فصدرت الأوامر باعدام أولى الأمر فيها ، وقطعت رقابهم على قارعات الطرق ، ثم بيع بقية أهلها عبيداً . . ! !

وكانت هذه الهزيمة طعنة دامية لهانيبال ، جرحت صدره وأنقضت ظهره ، وأثقلت جناح شهرته ، وقوضت آمال حلفائه ، وضاعفت من مطامع أعدائه .

إفلات صقليـة من يده

وتضامنت الأقدار على إيذاء هذا الأسد وهو رابض يتلقى صدماتها واحدة بعد أخرى، ويحتمل طعناتها رابض الجأش قوى الجنان.

ففى «سيرا كوز» انقسم الشعب بعد اغتيال مليكه — حفيد هيرو — قسمين اختلفت بينهما وجهات النظر. فانتصر الشعب لقرطاجنه، ومال الأشراف للائتلاف مع روما. واشتد النزاع بين الفريقين حتى فاز الشعب فمضى الرومان إلى المدينة وضربوا عليها الحصار، وجدّوا فى الاستيلاء عليها. ولكن الكفاح قد طال أمده واشتدت ناره بفضل المعونة التى قدمها للدفاع المهندس المعروف «أرشميدس» بيد أن الوباء قد انتشر فى جيش هانيبال، وفَشى فى أفراده، ولزمهم حتى قضى عليهم قضاء رهيباً..! ولم يتيسر للأسطول بعد هذا أن يستنفد الوسع لخلاص «سيرا كوز» فخلفها ومضى إلى «تارنتوم»..!

وعزّ على هانيبال أن يتقبل الهزيمة ويحتمل الطعنة هادئاً، فارسل جيشاً يتولاه رجل يتصل دمه بالقرطاجنيين وإن لم يكن من خُلصهم . فتحركت الفتنة فى الجيش، واستيقظت الثورة وساءت الحال وكانت الغلبة للرومان . فدخلوا مدينة« أجريجنتوم » وأطلقوا فيها يدهم بالقتل والتعذيب والتشريد، وأعدموا الكثير من خاصة أهلها، وباعوا جموعا منهم رقيقاً . . ! وتلك نهاية الضعفاء . وهذا حظهم عند الأقوياء . .

فأما سائر المدن التى انتصرت لقرطاجنه فى صقلية وبلغت الستة وستين عداً ، فقد استولى الرومان على ست منها بقوة السلاح، وبسطوا نفوذهم على عشرين منها بطريق الخداع ، وسارعت بقيتها إلى التسليم بعد الاتفاق . .

وأفلتت صقلية بأسرها من براثن الأسد . .

وفى أسبانيا

كان هانيبال حين انطلق إلى إيطاليا قد خلف فى أسبانيا جيشاً يتولى الضرب فى آفاقها والسير فى مناكبها . ولكن

سيبيو (الصغير) Scipio قد شتته وأفناه ، واستولى على الأسلاب التى لم يتيسر لهانيبال أن يحملها معه حين مضى إلى الألب ليعبرها، ثم اتحد سيبيو الصغير بأخيه وانطلقا بالجيش إلى سغنتم حيث حفظ هانيبال فى قلعتها رهائن أسبانيا إلى حكومته ، فاستولوا عليها بمكيدة دبروها مع ضابط كان يتولى حراستها، وأرسلوا الرهائن إلى أسبانيا، فذاع بين أهلها أمرهم ، وطاب لسكانها الحديث عن مآثرهم

ولازم النصر الرومان حتى أمست أسبانيا — كلها على وجه التقريب — فى قبضة يدهم .

وأمعنت الأقدار فى إيذاء « هانيبال » وتضييق منافذ الأمل فى وجهه . فساقت « سيفاكس » Syphax ملك « نوميديا » Numidia فى شمال إفريقيا لأعلان الحرب على قرطاجنه ، وأرسلت إليه روما رسلا تضاعف من أمله فى النصر ورجائه فى النجدة ، وتوسع له من رحاب المستقبل إن واصل عداءه لقرطاجنه. وسارع هسدروبال إلى وطنه ليدفع عنه الخطر الداهم. فائتلف مع جاره « سيفاكس » وشر منافسيه ، وكان له ابن فى السابعة عشرة من عمره واسع الخبرة بالحرب ، والدراية بما تتطلبه من خبرة

ومهارة وذكاء — ذلك هو ماسينيسيا Massinisia فتولى قيادة الجيش كله وقهر العدو وأفنى جنده وأنهى القتال معه بمعركة واحدة . . !

ثم سار هذا الشبل فى صحبة هسدوبال وماجو (أخى هانيبال الأصغر) وهسدوبال (بن جسكو) إلى إيطاليا . ونزلوا بساحتها ونشروا الرعب فى قلب العدو الرابض على أرضها . ثم اشتبكوا معه وأفنوا جيشه ، وأهلكوا « سيبيو الكبير » ورشوا حلفاءه فخلفوا أخاه الصغير تهدده طعنات أعدائه ، وتدمى قلبه ضرباتهم حتى هلك بعد تسعة وعشرين يوما من مصرع أخيه . وسارعت روما إلى إرسال « نيرو » Claudius Nero ليخلفه فى القيادة . ثم بعثت فى أثره ابن سيبيو (P. S.) ألذى ألمعنا إليه من قبل حين أشرنا إلى شجاعته فى إنقاذ أبيه من براثن الهلاك ، وكان انتخابه مثار الضجة فى روما ، لأنه كان صغيرا فى الرابعة والعشرين من عمره ، ولكن الشعب قد ألحّ فى اختياره ، وعلا هتافه له وإصراره عليه .

وكان بطلنا الجديد يمتاز بشخصية فتانة تملأ كل من عرفه إعجابا به ومرضاة عنه . فلما أعلن للناس أنه وطن

العزم على الظفر بأسبانيا، والاستيلاء على قرطاجنه، استقبل الشعب اعتزامه بالأمل العريض والتفاؤل الخصب. ولو صرح بهذا غيره لكان نصيبه من سخرية الجمهور واستخفافه عظيما... وأجمع الشعب على انتخابه. ثم ألقى طعنته الأولى فى قرطاجنه الجديدة — حاضرة الممتلكات الأسبانية — فشجّ رأسها وأدمى قلبها، ولم يلبث أن مدّ نفوذه على قلعتها، وشتت عدوه الجاثم على أرضها. وتأهب الحكم القرطاجنى فى أسبانيا لوداع أهلها ومفارقة أرضها.. وبهذا برر البطل إلحاح الشعب فى الإجماع على انتخابه وإن لم يبلغ السن القانونية بعد..

وفرت أسبانيا بدروها. فلم يبق لهانيبال بها إلا «قادش» Gades، وعاداه الكثير من أهلها وزعمائها، لأن «سيبيو» كان قد تسلط على عواطفهم، واستلّ منهم إعجابهم به ومرضاتهم عنه...

بقى الشطر الثانى من وعد البطل. فطار إلى إفريقيا وحطّ رحاله فى بلاط سيفاكس، واستماله إليه وبغض له التحالف مع قرطاجنه، وقضى معه أياما تبادلا فيها أعذب

الأحاديث وأشهى الأمانى ، وأصدق مظاهر الولاء . بيدأن سيفاكس كان قد بنى بابنة هسدروبال « سيفونيزبا » Soqhonisba وولع بها واستطاب حبها ، فأقام على ولائه لقرطاجنه وإن لم يكن فى وسعه بعد لقاء «سيبيو» أن يعادى الرومان .

وكان تغيب « سيبيو » عن أسبانيا فرصة تدرُّ الخير لمن أحسن اغتنامها من أعدائه ، فأخذ « ماجو » يستميل إليه القبائل ويترضاها ويتألف زعماءها حتى انتصر له بعضها ورضى عن مسعاه . وفى هذه الفترة العصيبة أدرك « سيبيو » مرض أقعده عن الجهاد . وكانت جنده تغلى غضباً لتأخر أجورها ،فلما بلغها أن البطل قد خرَّ مريضاً اشتعلت ثائرة حتى عوفى من مرضه واتصل بها وبسط فيها سحره ، فسكنت له واستكانت لأمره ، وسارت تحت علمه . فشد « ماجو » رحاله حسير النفس واهن الرجاء ، واستولى الرومان على قادش . فلحقت أسبانيا بصقلية . . والأســد كامن فى إيطاليا محطم النفس مهدم الجسم جريح الرجاء . . !

متورس METAURES

أو

سيادة أوربا على آسيا

ضياع «تارنتوم» ـ تقدير «هانيبال» لبطولة عدوه ـ «هسدروبال» يتخطى الألب إلى إيطاليا ـ عيون الرومان يعثرون على رسالته إلى هانيبال ـ «نيرو» بين حرمة القانون وقداسة العقل ـ اضطرام نيران الحرب ـ استشهاد «هسدروبال» ـ رأسه يتدحرج أمام أخيه هانيبال ـ نبأ الاخفاق يعلنه المندوب فى المجلسين ـ فصل الخطاب بين الساميين والآريين

لبث هانيبال فى إيطاليا يقاوم زوابع الأقدار ، ويغالب عواصف الهزائم ، وإن كانت آماله قد شاخت وأدرك الثقل جناحيها . .

وساءت عواقب القتال حتى طارت من يده «تارنتوم» لخيانة من ناطه بحراستها . وطالت الحرب والتهمت آلاف الرجال ، وابتعلت طائل الأموال ، وفجعت آلاف الأسر فى أبنائها وأولى أمرها ، حتى ثار فى وجه روما إثنتا عشرة مدينة من مدن اللاتين (وكان عددها ثلاثين مدينة) وأبت أن تواصل المدد . ووثب التردد إلى صفوف الأترسك Etrurians (أهل أتروريا فى شمال روما) . وفَشَتْ فيهم عدواه ، وأصاب « مارسلوس » جرح بليغ تردى بعده قتيلا . وكان هانيبال يكبر بسالته ويجل بطولته ، ويقدر الدور الذى قام به فى أحرج الظروف وأسوأ الأوقات ، فتكفل بدفن جثته باحتفال مهيب . وتغلب تقدير البطولة للبطولة على عوامل الحقد والضغينة والخصومة . .

وكان هسدروبال قد بارح أسبانيا ، وتخطى الألب فى يسر هيأه له شعور سكانها بحسن نيته نحوهم ، ثم نزل بايطاليا فى خفة لم يتوقعها الرومان ولم يحلم بها أخوه هانيبال ، وكان جيشه كسائر الجنود التى ناضلت فى صف قرطاجنه يجمع بين مختلف العناصر والأجناس

وتأهبت روما التى هلك أفذاذ قادتها أو شاخوا وزايلتهم فتوة الشباب للقاء هذا الخطر الزاحف عليهم وهم عنه غافلون . واختارت «كلوديوس نيرو» وليفيوس Livius قنصلين وولتهما قيادتها وركزت فيهما آمالها، وناطت بالأول هانيبال، وبالثانى هسدوربال. فأرسل هذا رسالة إلى أخيه هانيبال يطلب فيها التوقف عن القتال حتى يخف إليه ويتصل به ويساهم فى الجهاد معه، فظفر بها عيون الرومان وحملوها إلى «نيرو» وكانت باللغة القرطاجنية . فعرضها على الأسرى فى السجون ليحلوا رموزها ويكشفوا له عما بها . . ولما عرف أمرها أقلقه هذا الخطر الداهم على غير انتظار، وفكر فى النجاة منه والإيقاع بمدبريه . ولكن قانون روما لا يأذن للقادة فى تنفيذ الخطط التى تتراءى لهم، إلا بعد عرضها على المجلس وإقرارها منه . وانتظار الأذن من روما تضييع للفرصة السانحة، وتمهيد لاستقبال الشر المستطير . وطاعة القانون من غير تفكير فى الغاية التى وضع من أجلها، ومدى التئامه معها، امتهان لقداسة العمل، وانتهاك

للطبيعة البشرية . ولئن كان مثل الجندى الأعلى إسرافا فى إكبار القانون ، وإفراطاً فى طاعته ولو كره منطقه ، فان بداهه العقل لتقضى فى بعض المواقف بتخطى نصوصه ، ومخالفة أوامره . فللقانون حرمته ، وللعقل البشرى قداسته . .

تجاهل « نيرو » قانونه ، وانتقى من بين جيشه سبعة آلاف مقاتل يرومون الحرب عن خبرة ومهارة . ومضى بهم تحت جنح الظلام على جهل منهم بالغاية من مسيرهم حتى بلغ معسكر زميله « ليفيوس » . فلاحظ جواسيس هسدروبال أن عدد العدو قد تضخم ونما على غير انتظار ، وأن حركة جديدة أخذت تسرى بين جموعه ، وأن البوق الذى كان يدوى بين حين وحين قد أصبح بوقين . فانتبه «هسدروبال» إلى وجود القنصلين، وهمّ بالفرار مع جيشه فضلّ السبيل إذ خانه الأدلاء واختفوا على غرة ،وخلفوه وجيشه على شاطىء النهر يطوفون طوال الليل دون أن يجدوا منفذا يتسللون منه حتى أسفر الصبح ودنت ساعتهم وفاجأهم بالقتال عدوهم ، فسارعوا إلى الاستعداد للقائه . ثم اضطرمت نار الحرب عند «متورس» وطال أجلها ،

واشتد عذابها ، وخدمتهم الفيلةأول الأمر ، ثم آلمتها الجروح التى انبثت فى جسمها . فكأنما أصابتها بمس من الجنون فانطلقت تهرول على غــير نظام ، وتبعث الاضطراب وتنشر الأذى بين صــفوف العدوين على السواء . . !

ولما أحس هسدروبال بأن الأمر قد طار من يده وأن الهزيمة قد اكتنفته ، امتطى صهوة جواده وهجم كالليث الثائر فى طيرة الغضب على صفوف الجيش الرومانى وغاب فى زحمة القتال حتى سقط فى المعركة شهيداً ...

وفصلوا رأسه عن جسمه وحملها معه « نيرو » وعاد مسرعا إلى جيشه ، ثم أمر بأن يلقى هذا الرأس الكريم فى معسكر هانيبال . . وتدحرج الرأس الكريم أمام المعسكر فحمله أحد الجنود بين يديه، فما رآه هانيبال حتى صاح فى لوعة اليأس ومرارة الأسى :

« سادت روما الدنيا بأسرها » (الصورة ص١٦٩)

وتقهقر فى اليوم الثانى إلى جنوبى إيطاليا .

فلما بلغت هذه الأنباء روما أثارت فيها حماساً ممزوجا



امتطى هسدروبال صهوة جواده، وهجم كالليث فى طيرة الغضب على صفوف الأعداء فراح شهيدا . . وحمل « نيرو » رأسه إلى معسكر هانيبال . فلما رآه حتى صاح فى لوعة اليأس : سادت روما الدنيا بأسرها.

بالشك فى أمر هذا النصر حتى بلغها ثلاثة من ضباطها ، وتولى أحـدهم الـكشف عن الحقيقة فى مجلس الشيوخ والنواب ، فأنصتَ إليه الأعضاء وقد استولى عليهم سحر الطرب ، وتملك مشاعرهم وعقد ألسنتهم حتى إذا فرغ الخطيب من كلمته، انفجر الأعضاء مهللين فى طرب هو أقرب إلى الجنون منه إلى الغبطة والرضا .

قالوا إن سيادة الدنيا قد سعت إلى روما بعدها ، وإن أوربا قـد ورثت عنها هـذه السيادة ، ولازم الأسيويين الأخفاق فيما تلا ذلك من عصور . وكانت معركـة « متورس » فصـل الخطاب بين الساميين والآريين . . !!

على أن الذى يعنينا الآن قوله إنا لاندرى ماذا كان يخبئه القدر لو اتصل هسدروبال بأخيه ، وواصل القتال معه فى هذا الوقت الذى خارت فيه روما ، وأصاب الانحلال ساقيها ، وشق عصا طاعتها الـكثير ممن كانوا يقاتلون فى صفوفها .

وهكذا تأهبت المغيب الشمس التى استقرت حيناً

فى كبد السماء ، وأخذ التاريخ يعجب لصروف القدر، ويحار فى هذه الشيخوخة التى زايلت روما ، ودبت إلى قرطاجنه . ويذكر خمسة القدر بعد « كانى » :

« بل ستحيا روما . هكذا أراد الرومان . وإرادة الشعوب من إرادة الله !



موقعة تريبيا Trebia

« أنظر ص ١١٩ »

فى قاع الهاوية

الحظ العارض بين الفرد والجماعة ـ هانيبال يسجل فى محنته سابق انتصاراته ـ رحيل ماجو الى ايطاليا ـ حملة الرومان على افريقيا ـ وساطة « ماسينيسا » الخادعة. النار فى معسكر قرطاجنه ـ سفونيزبا تثير نخوة زوجها ـ رسل المجلس يستدعون هانيبال لحماية قرطاجنه ـ عودة هانيبال الى وطنه وحسرته على فراق أعدائه . . !

يوم زاما المشئوم ـ نصوص المعاهدة الذليلة ـ اعتذار هانيبال عن عدوانه على أحد أعضاء المجلس ـ احراق نصف ألف بارجة حربية لقرطاجنه ـــ استياء المجلس من هانيبال لأنه يضحك والوطن فى مأتم ـ الغرامة والذلة ـ

قد ينتفع الفرد طوال حياته بحظ طارىء يواتيه . وقد يعيش على حساب مصادفة عرضت له فأحسن استغلالها . وعرف سبيل الانتفاع بها . ولكن انتفاع الشعوب

والجماعات بما تأتى به المصادفة ، وحدها ، محدود الأجل . واستفادتها من الحظ العارض معروف الأمد. وماتصيبه من خير ليست أهلا له ، ولا كفئا لاستثماره ، يضيع على عجل ، ولا ينتظر له دوم . .

ترى التاجر إذا وفق فى صفقة وثبت به إلى غير مستواه، يعيش فى الأرجح على حاله الجديد طوال حياته.. والموظف الذى تسعده الطوارىء يوما قد يدوم ماسعد به ما امتدت به الحياة ، وإن لم يكن كفئا له ولا جديرا به . . أما الأمم فشىء آخر . . لا يطول أجل ما تصيبه من خير طارىء إلا إذا كانت قادرة على حراسته كفئا لحمايته . . ذلك لأن للجماعات قوانين تحمى أفرادها ، وتحرس أملاكهم وتصون حرماتهم . أما الكون فتعوزه مثل هذه القوانين التى تقوى على حماية أفراده من أمم وشعوب . ولن تستطيع الدول أن تنتفع بالحظ الطارىء والمصادفة العارضة انتفاعا ممتد الأجل وإن لم تكن كفئا له خليقة به — شأنها شأن الأفراد — إلا حين تصبح القوانين الدولية ذات « قداسة » عند الجماعات . ولهذا فان الشعب الذى يأمل فى الحياة على حساب الحظوظ والمصادفات ،

هو أتعس الشعوب وأسوأها مصيراً . .

وقد أقام هانيبال بعد يوم « متورس » المشئوم فى جنوبى إيطاليا ينتظر الحظوظ ويترقب المصادفات ، وقد ضاقت رقعة أملاكه حتى صارت إقليم « بروتى » Brutti الجبلى فى أقصى الجنوب . فلبث ينتظر روما لعلها تشتبك فى حرب مع عدوتيها: سورية أو مقدونية ،فيسفر القتال عن هزيمة تصيبها وتهيء له سبيل كفاحها من جديد ، أما أمله فى غير هذه الفرصة المرتقبة فكان كسيحاً لا يقوى على النهوض . . . وذلك أظهر آيات الاحتضار فى كفاح الجماعات . .

وفى هذه الفترة التى كان هانيبال فيها يستمد من اليأس آماله ، أقام على كثب من كروتونا Crotona — مركز قيادته — مذبحا لزوجة جوبتر — حارسة المرأة من مهدها إلى لحدها — ووضع فوقه لوحة كتب عليها باللغتين اليونانية والقرطاجنيه ملخص حملاته فى إيطاليا ، وعدد المعارك التى خاض غمارها وأصاب النصر فى ميدانها ، والمدن التى قرع أبوابها ونشر عليها سلطانه ، والأعداء الذين صارعهم وسار على جثثهم ، وخضب الأرض بدمائهم

كان هانيبال فى غفلة عن هـذا كله يوم كان مجده يعلو ويتألق ، ونفوذه يمتد وينبسط . . وماحاجة القوى لتذكير الناس بمظاهر قوته وآيات سلطانه . . !

وكان « ماجو » قد جنح إلى اليأس بعـــد إخفاق جهوده فى أسبانيا ، فخطر له أن يشد رحاله إلى أخيـه فى إيطاليا ليمده بالعون ويزوده بالأمل . فسار إليـه بكل قواته وكان طوال الطريق يضم إلى صفوفه جموعا من أهل الغال . على أن التوفيق قد أخطاه فى نجدة أخيه على النحو المرجوّ ..

أما سيبيو فقدضاق بعدوه فانطلق إلى إفريقيا ليشعل النارفى جوفها ، وبدأبحصار « يوتيكا» Utica ولـكنهأخفق فى مسعاه ، فارتدّ عنها إلىمكان منيع على شاطىء البحر ، ولبث به طوال فصل الشتاء ، ثم همّ بقتال العدو فاذا أمامه جيشان يتولى قيادة الأول هسدروبال Hasdrubal — ابنجسكو — Gusco ويقوم بالثانىسيفاكس Syphax

وكان ماسينيسا Massinisa قد فقـد مملكته وفر بزوجته إلىسيبيو واصطحبه إلى إفريقيا ، وراح يرشده فى

أمانة وإخلاص. فتوسط بين روما وقرطاجنه ، واقترح إنهاء الحرب على أن ينسحب هانيبال من إيطاليا، وسيبيو من إفريقيا . فأبى الأخير أن يستجيب لهذا المقترح وإن أعلن استعداده للاستماع لمقترحات أخرى يتقدم بها الملك الوسيط . فسارت بين المعسكرين رسل كُثر تنشد السلام وتبغي التوفيق — فيما بدا للقرطاجنيين إذ كانت رسل الرومان عيونا وجواسيس تستطلع الأنباء وتهيء الجو للإيقاع بقرطاجنه وحليفها معاً . .

ثم انقسم الجيش قسمين تولى سيبيو الأول ، واقتاد ماسينيا الثانى . وتقدما ليلا حتى إذا اقتربا من معسكر سيفاكس مضى إليه « ماسينيسا » وأشعل النار فيه (الصورة ص ١٧٧) حتى إذا اندلع لهبها واتقدت جذوتها ، اضطرب من به وانطلقوا فى فيض من الجزع والهلع يلتمسون الخلاص . فمن أصاب منهم التوفيق تلقته سيوف عدوه وأدت واجبها نحوه . !

فأما القرطاجنيون فقد بارحوا معسكرهم ، وسارع بعضهم إلى نجدة زملائهم ، ووقف الآخرون محملقين



سارت بين المعسكرين رسل تنشد ـ فى الظاهر ـ السلام وتبغى التوفيق ، وأخذت تستطلع الأنباء وتهيء الجو للايقاع بقرطاجنه، حتى إذا سنحت الفرصة أشعلوا النار فى معسكر سيفاكس . . ! ثم أعقبوها باحراق معسكر القرطاجنيين . . ! !

مبهوتين ظانين — كما ظن أهل المعسكر المحترق — أن النار قد اشتعلت عفواً ولم يعمد إليها فاعل سوء ولا مدبر شر . . !

وبينما الجيش القرطاجنى على هذه الحال ولا عدة معه ولا سلاح فى يده إذ بالرومان وقد حطوا عليه وراحوا يقطعون فى رقابه ويشردون فى جموعه. ويغيّبون فيه سيوفهم حتى نعق بوم اليأس فوق رأسه ، وحطت عليه غربان الدمار . ولم تنته هذه الفجيعة حتى كانت النار قد التهمت المعسكرين وأعانت العدو على قهر الجيشين والتنكيل بهما شر تنكيل . ففر هسدروبال بفرقة من خيالته ، وتبعه فى ذلك سيفاكس . وفكر فى تسليم نفسه إلى روما لعلها تستحى من عقابه وتكرم مثواه . ولكن زوجته «سفونيزبا» استثارت همته وأحيت عزيمته وجددت أمله فأقام جيشا واتصل بهسدروبال وكان قد جيّش جيشا آخر من أربعة آلاف مقاتل من المرتزقة وانطلقا إلى الميدان ، فأبى طالع النحس إلا أن يلازمهما ويتتبع خطواتهما . .

فاشتد أزر حزب السلام فى قرطاجنه ، وهتف فى المجلس داعيا لعقد الصلح مهما بهظ ثمنه . . ! فأذعن

المجلس لهذه الدعوة واستدعى هانيبال و « ماجو » Mago فأما الثانى فقد كان يئن من هزائمه المتلاحقة أمام الرومان. نخف إلى وطنه بما بقى من جيشه ، ولكن جروحه ثقلت عليه فى الطريق حتى امتصت أنفاسه واستلت حياته. وأما هانيبال فقد تلقى الأمر فى أسى ممض وحزن موجع وألم مرير ، وصر أسنانه وقمع دمعه على كره منه ثم قال لرسل المجلس الذين جاءوا فى دعوته :

الآن يرسل المجلس فى دعوتى بعد أن أصابت طعنة العدو قلبه ، وأحدثت الارتجاج فى مخه ، وكم أبى أن يمدنى بمال أو رجال . لقد انهزم هانيبال — لا بقوة الرومان الذين شتت جموعهم ، وحطم كيانهم مئات المرات ، بل بالحقد الذى يحمله له مجلس الشيوخ فى وطنه ، ولن يبتهج سيبيو لعار عودتى بقدر ما سيبتهج « هانو » الذى لم يجد سبيلا يسلكه ليهدم أسرتى إلا بهدم الوطن كله . . !

وكان « هانو » زعيم الداعين للسلام وأشدهم هجوماً على هانيبال . وقد ألمعنا إليه بهذا الصدد فى رده على ماجو ، فى مجلس الشيوخ بعد موقعة « كانى » .

ولكن هانيبال لم يمنعه غضبه المتقد فى صدره من العودة إلى قرطاجنه تلبية لصوت الواجب . وامتطى أديم الماء فى فيض من الأسى والحزن . فلم يكن المنفى الذى يفارق صحبه ووطنه وأهله وعشيرته إلى غير رجعة بأشدحزناً وأقسى لوعة وأحرّ ألماً من هانيبال وهو يفارق أرض أعدائه (الصورة ص ١٨١) . فقد عاود النظر إلى الشواطىء التى فارقها مهدم النفس منحل الأعصاب محطم الجوارح من فرط الضيق وفيض الأسى ، وطاف يوم « كانى » بذهنه ، فلعن نفسه لتوانيه يومذاك وتكاسله عن قيادة جيشه إلى روما، ودم « كانى » يلطخ أجسامهم، وذكرى نصره تصب الحماس فى نفوسهم ، وتشيع الأمل فى رءوسهم ، وتنفث الأيمان فى صدورهم .

خفّ هانيبال إلى وطنه ليردّ عنه الشر النازل والويل الهاطل . وترامت إلى روما أنباء رحيله فاهتز كيانها فى فيض من الحمد والرضا ، ومادت بأهلها الأرض من فرط الطرب .

ولبث هانيبال فى إفريقيا يخاتل عدوه ويصارع جنده، ويلقى فى قلبه الطعنات ، ويتلقى فيه الصدمات حتى أقبل

فلم يكن المنفى بعيدا عن وطنه
وأهله وصحبه وعشيرته ، بأشد ألما
وأحرّ لوعة من هانيبال وهو يفارق
أرض أعدائه..!!



يوم «زاما Zama» المشئوم ، وأقبل فى صحبته الشقاء الذى لازم هانيبال حتى يوم مماته . .

انفجر بركان المعركة وأخرج حممه وأطلق عذابه . وكان فى جيش هانيبال ثمانون فيلا أمطرها العدو بطعناته الدامية فثارت هياجا واشتعلت ناراً ونال أصدقاؤها من أذاها شراً مما نال أعداؤها . . !

وطالت المعركة واشتد عذابها وتأججت نارها حتى دارت الدائرة على هانيبال ، وتمزق جيشه وتشتتت جموعه واندحرت آماله وانكمشت مطامعه (الصورة ص ١٨٣). ففر بفرقة من جنده إلى دريبانوم Drepanum وهرب قليل ممن بقى من جموعه الغفيرة ، وهلك عشرون ألفا فى ساحة الوغى ، وأسر أكثر من هؤلاء واستقروا فى غياهب السجون . .

فأما الرومان فقد دفعوا ثمن هذا النصر خمسة عشر ألف رأس ثم خرجوا من غمرة القتال وقد ازدحمت فى رءوسهم الآمال العريضة ، وامتلأت نفوسهم اطمئنانا من خبايا المستقبل .

فى معركة زاما :

وكان فى جيش هانيبال ثمانون
فيلا أثخنها العدو بطعناته الدامية
فثارت هياجا واشتعلت نارا وانطلقت
تنشر أذاها على العدوين معا . . .



وبهذا اليوم المشئوم انتهت الحرب البونية الثانية .
وساد الرومان الدنيا بأسرها ، وخلا الجو من مزاحم منافس يسد السبيل على مطامعهم .

ثم جمع هانيبال فلول جيشه وقد بلغت الستة آلاف عداً، ومضى بها إلى قرطاجنه فى فيض من الحسرة والأسى .
وأرسلت الحكومة تطلب الصلح من روما فعاد الرسل إلى قرطاجنه يحملون هذه النصوص :

(١) أن تستبقى قرطاجنه ممتلكاتها فى إفريقيا ، وأن تتمتع باستقلالها ، وألا تضطر إلى سد ما يتطلبه الحرس الرومانى .

(٢) أن تسلم كافة المسجونين بها والفارين إليها

(٣) أن تسلم ماتمتلكه من سفن حربية — باستثناء عشرة تستبقيها لها — وكذلك كافة فيلتها . . !

(٤) ألا تثير الحرب خارج إفريقيا أو داخلها إلا بأذن من روما .

وبهذا فقدت قرطاجنه استقلالها . وباتت خاضعة لعدوها — رغم البند الأول فى هذه المعاهدة .

(٥) أن يسترد الملك ماسينيسا كل ما يملكه هو أو أسلافه .

(٦) أن تمـــد قرطاجنه الجيش الرومانى بالمؤن والأجور حتى يتم الاتفاق على أن تضع الحرب أوزارها

(٧) أن تدفع غرامة تبلغ العشرة آلاف وزنة من الذهب وخراجا سنوياً يبلغ المائتى وزنة من الذهب .

(٨) أن يتخير قائد الرومان مائة رهينـة من أبناء القرطاجنيين تسلم إلى روما ضمانا لتنفيذ المعاهدة ، وصفاء الجو بين البلدين . .

ولما أعلنت فى المجلس هذه النصوص بعثت الاستياء فى أعضائه، وهمّ أحدهم بالاحتجاج ولـكن هانيبال رفعه من تلابيبه وحطـه فى مكانه كارها . . ! فضجّ الأعضاء لهذا العدوان الذميم . فقال لهم هانيبال :

« معذرة إن كان جهلى بتقاليدكم قدأدى بى إلى امتهانها والاعتداء على حرمتها . فقد بارحت الوطن فى سن التاسعة ولم أعد إليه إلا بعد أن أشرفت على الخامسة والأربعين . وما دفعنى للاعتداء على العضو إلا الرغبة فى خير الوطن والخوف من أن ينال منه العدو أكثر مما نال . وإنه ليدهشنى أن يكون بيننا مواطن واحد يعرف موقفنا على وجهه الصحيح ، ثم يضيق إذا ترامت إلى سمعـه أنباء

هذه المعاهدة الرحيمة . . إن الحزم ليقضى بأن تجمعوا على الرضا بنصوصها من غير تفكير فى أمرها ، أو تردد فى قبولها» .

ويقولون إن هانيبال كان على حق فى موقفه . لأن الغالب لا يعرف إلا الظلم ، ولا يدين بغير الأجحاف . وإن أحس العجز فى خصمه اشتط فى اضطهاده ، وأمعن فى إيذائه . ولو كان فى وسع قرطاجنه أن تقاوم أو تصمد للدفاع عن نفسها ما استكان لهذا الصغار هانيبال . ولا ارتضى هذه الذلة ودعى وطنه إلى احتمالها والسكوت عنها .

فسلمت قرطاجنه كافة ما تملكه من فيلة وسفن حربية بلغت الخمسمائة عداً ، وجميع من آوتهم من الفارين والهاربين ، وكل أسراها فى الحروب وقد تجاوز عددهم الأربعة آلاف عداً .

وأمر سيبيو أن تشد السفن إلى الشاطىء توطئة لأشعال النار فيها . . ! واحتشد الناس فى هذا اليوم المشهود ليروا هذا المشهد البغيض ، و تأججت النار فى نصف ألف سفينة هيئت لتدك روما وتسوى بها سطح

الأرض . . . ونظر الشعب الذى كونه الفاجعة وأثقله الهم فاذا المتفرجون من الرومان يهتزون من فرط الغبطة والرضا . فأحرقت اللوعة صدره ، وأنقض الألم ظهره ، وانبثت الضغينة فى شعاب نفسه .

***

ولما همّوا بدفع الغرامة أعوزهم المال وانتشر فى المجلس ضجيج الأعضاء وشاع فيه استياؤهم . ولاحت من أحد الأعضاء التفاتة إلى هانيبال ، فارتاع إذ رآه يضحك والوطن فى مأتم . وقام لفوره وأعلن للأعضاء شكاته فى فيض من الحنق والاستياء قائلا :

إن هانيبال آخر من يجوز له الضحك فى هذا الضنك الذى يحيق بنا ، لأنه مصدر ما نقاسيه من ضيق ، ومبعث ما نلاقيه من شر . .

فقال هانيبال :

لو تيسر لك أن تكشف على قلبى وتتطلع إليه بالسهولة التى تتطلع بها إلى وجهى لتبينت أن ضحكى لا يصدر عن قلب راض مرح ، ولعرفت أنه صدى حسرة مترعة ولوعة مكبوتة . . ! إن ضحكى ليحمل من المعانى مالا تحمله

دموعك . وقد كان خليقاً بك أن تبـــكى يوم أحرقوا أسطولنا ، واغتصبوا أسلحتنا ، وسلبوا أدوات قتالنا ـــ لم تبك يومذاك كما تبكى اليوم كأن الوطن قد أشرف على الهلاك وتهيأ للممات ، لا لشيء إلا لأنك ستضطر إلى إمداد العدو بجزء من ثروتك الخاصة .. لـكم يخيفنى أن تدرك فى الغد أن هذا الشر الذى تضيق به فى حاضرك ، هو أهون الشرور التى سوف تنزل بك فى مستقبلك »

وقد صدق هانيبال فى دعواه ، فقد تحمل ابتسامة الثغر من معانى الألم وآيات الحسرة ما لا تحمله الوجوه العابسة ، وتنطق به الجباه المقطبة ، وقـد تـكون القهقهة التى تنِد عن القلب العامر بالألم ، أبلغ فى التعبير عن حرقة اللوعة من دمعة تجرى على الخد صدى لأحساس الناس أو خوفا من ملامتهم . . بل كيف يضحك هانيبال صادقا و الصاعقة إنما تنزل على رأسه ، والصدمة إنما تنحدر إلى قلبه و تتوغل فى شعاب نفسه حتى إذا ملأتها بالأسى سرى فيض ما بها إلى نفوس غيره من أبناء الوطن . . ! فمنذا الذى كافح هذا العدو الظافر الباغى واحتمل فى سبيل مغالبته من مرارة القتال فوق ما احتمل هانيبال الضاحك . . ؟ !

على أن الغرامة أهون ما ينزل بالمغلوب من شر، وأدعى العقوبات إلى الرضا وأحراها بالاطمئنان . لأن الشعوب تحيا بين الغنى والسغب ، والثراء والضنك . وليس الفقر معرة لها ولا منقصة لأهلها . . أما الشعوب التي تتردى في المهانة والذلة مرة واحدة ، فان التاريخ يحمل ذكرى هوانها ، ويحدث عنها مختلف الأجيال التالية . ذلك لأن التاريخ يسجل المفخرة ولا ينسى المعرة ، والحسنات عنده لا تمحو السوءات . لأنه سجل النقيضين معاً . . !

* * *

وبهذا أضحت الامبراطورية الأفريقية مدينة كسيحة يثقلها المرض ، ويُقعدها العجز ، ويقهرها الضيق، ويتسلط عليها العدو . . . ضاعت من يدها إيطاليا ، وفرت من براثنها صقلية ، وتحولت أسبانيا إلى إقليمين رومانيين — وإن لازمتهما الثورات والفتن — وبات الخضوع لروما عند حلفاء هانيبال الأول شرفاً وفخاراً . . ! والأسد في عرينه مهدم النفس منحل

القَوى ، ولكنه وَفيٌّ لعهده بار بوعده ذاكر لقسمه الذى قيّد به نفسه وهو صبى فى التاسعة من عمره أمام أبيه يوم أقسم على بُغض الرومان ما مدت الأقدار فى حياته ، فعلامَ انتهى أمره . . ؟ ذلك ما تراه فى الكلمة التى نفردها له الآن :

هانيبال قائداً وشريداً

تعليل البطولة ـ نابليون فى قفص من حديد ـ قرار الأطباء بشأن أنوثته ـ « هانيبال » وآفاق بطولته الرحبة ـ إحصاء مناقبه ـ سوءان ومبرراتها ـ موقفه بعد زاما ـ اصلاحاته فى وطنه ـ جزع روما من « هانيبال » الشريد ـ طريد الظلم يثير على روما أعداءها ـ انتحاره ـ البطولة والانتحار

لا تصلح طريقة البحث العلمى لتحليل البطولة والتماس أسبابها ، والتعرف إلى سرها والكشف عن وحيها . لأنها تطالب الباحث باحصاء دقيق لمناقب البطل وصفاته فى صورة مدركة للسمع واللمس والذق والشم والبصر..! والبطولة إنما تستمد حياتها من شىء « وراء » ما تبلغه الحواس . . بل « وراء » ما ينتهى إليه العقل . . فكثيراً ما توفرت فى بعض الناس المناقب التى نراها فى الأبطال . ولكن البطولة امتنعت عليهم وعزت على متناولهم .

ذلك لأن شخصية البطل تستمد وحيها وتستق حياتها من شيء وراء ما نعرف بالحواس والمنطق معاً . . فاذا رددت مناقب نابليون إلى خلاله ، عرفت أنها — مجتمعةً — لا تبرر الصولة الفذة التى كانت له ، والمقدرة العجيبة التى لازمته حياته ، ومكنته من أن يقاوم تحالفات دولية أجمعت أمرها على دحره ، ووطنت عزمها على قهره (١) . . فما تعليل بطولته . . ؟

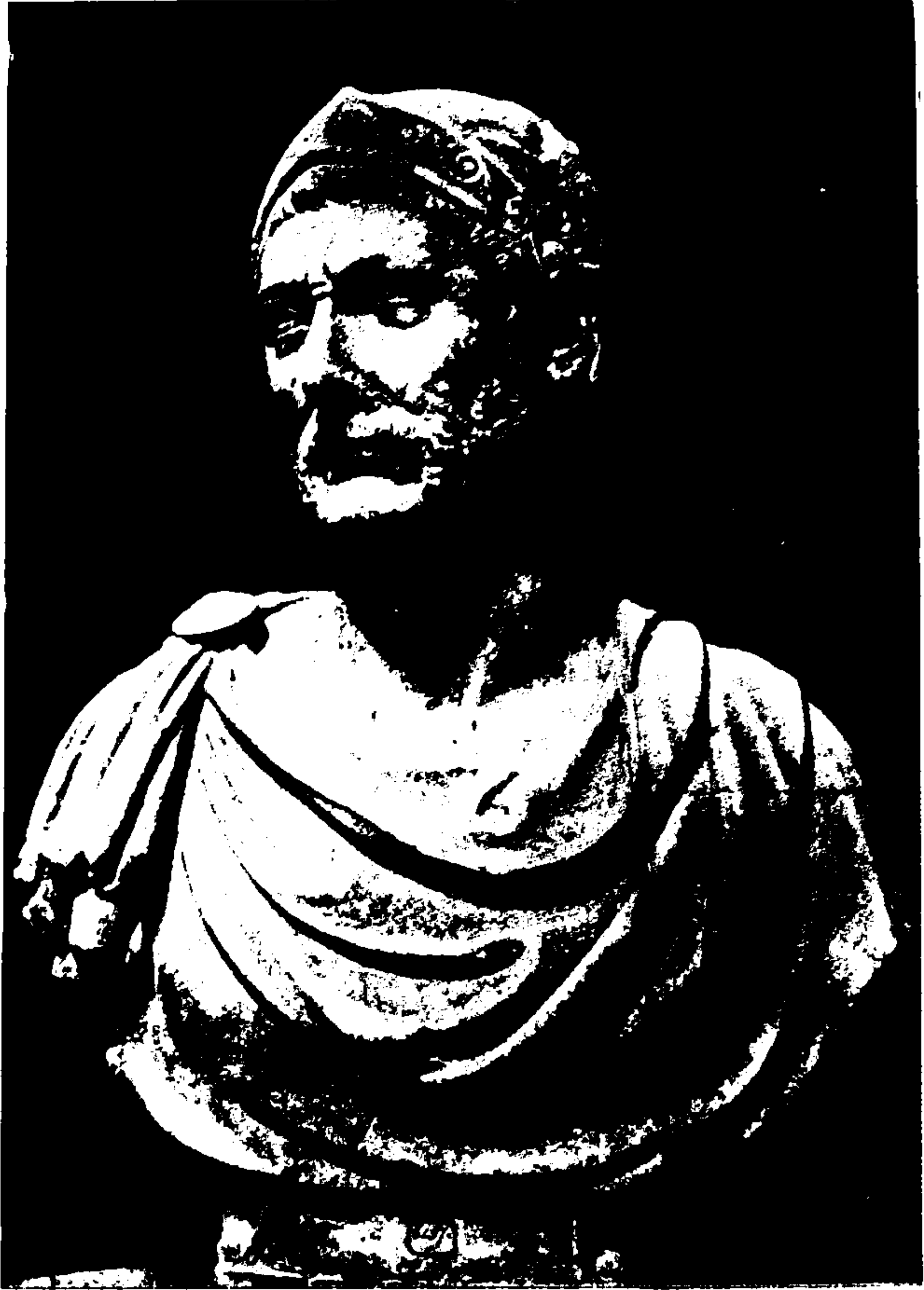
---

(١) ان كان هذا لم يبلغ مكان الاقناع من نفسك ، ففسر هذا بالشكل الرياضي الذى يرضيك :

عاد نابليون من منفاه فى « إلبا » واقتحم فرنسا التى ودعته بالأمس بمظاهر السخط والحنق ، فائتلف له جيش هيأ له دخول باريس — فأقسم القائد « ناى » أشجع الشجعان كما يسميه التاريخ — للويس الثامن عشر أن يجيئه بنابليون فى قفص من حديد . . ومضى بفرقة من جيشه للقبض على نابليون براً بوعده ووفاء بعهده . فلما التقى به وخضع لسحر نظرته وعذوبة صوته ألقى بنفسه بين أحضان نابليون ، والدمع يترجح فى عينيه . . ! ! بماذا تفسر هذا . . ؟ ان تعليله يعرفه علماء النفس الذين لا يرون مبرراً علمياً لموقف الملك حين تشدد فى الحكم بالأعدام على « ناى » . . !

ولا بأس من أن نسوق مثالا ثانياً لنابليون يؤيد ما ندعيه .

شاد نابليون امبراطورية من أضخم الامبراطوريات التى مرت بالتاريخ فى شتى عصوره . وكانت الأرض بأممها وحكامها كرقعة الشطرنج فى يده ، ولكن جسمه كان أقرب الى جسم الأنثى منه الى جسم الرجل ، على نحو ما أثبت الأطباء الذين تولوا تشريح جثته بعد مماته . . !



هانيبـــــــــــال

في الحق أن التعليل الصحيح لا ينبغى التماسه فى غير هـذه « القوة الخفية » التى نحسّ أثرها ونعرف وقعها ، ولا نستطيع فهمها ولا ندرك أصلها ، ولا نقوى على تحليلها .

وعلى هذا النحو نقول إن هانيبال موفور الحظ من البطولة . وكان نصيبه من هذه القوة الخفية بيّناً ملموساً . فان شئت الدليل على هذا فاذكر من حياة هذا الرجل أنه فارق الوطن فى التاسعة من عمره ، وغاب فى زحمة القتال ستة وثلاثين عاماً ، كلما حطّ رحاله ببقعة روّع أهلها ، وطير النوم من أجفانهم ، وبعث الهلع فى جيرانهم ، وأن هذه الجيوش الجرارة التى كان يزلزل بها الأرض ، ويرجّ بهولها كيان الدنيا لم يجمعها من وطنه ، فقد ضنت عليه أمته بالعون وبخلت عليه بالمدد زمناً طويلا . وإنما كانت شتيتاً متناثراً متنافر العادات والتقاليد والقوانين واللغات والملابس والأسلحة والعقائد والآلهة . فألف هانيبال بقدرته العجيبة بين هذه الخلائق الغفيرة ، وضمها كلها إلى سمط واحـد ، فنسيت تحت لوائه ما اختلف من أمرها وتنافر من وحدتها ، ومضى الجميع إلى لجة

القتال مستميتين فى النضال متفانين فى تحقيق المطمح الذى يسعى إليـه هانيبال . . أجل . عاش هذا الشتيت المتنافر من الخلائق فى وفرة من المودة والزمالة حتى خلت حياتهم من شجار واحد يقع بينهم - حتى فى أدعى الأوقات إلى الشجار وأحفزها على الاضطراب . فقـد مات « هسدروبال» Hasdrubal ولم يبقَ لهانيبال غـير ركن ضئيل فى إيطاليا ، وركدت آماله واظلمّ الجو من حوله ، ونفض المخاتلون يدهم من نصرته ، ولـكن جيشه المتنافر فى شتى الصور مازال باقياً على ولائه له وإعجابه به . وما كان هذا طمعاً فى مال أو جاه ، فقد ضنت عليـــه قرطاجنه بالمال كما ضنت بالمقاتلين ، ومرت عليه أيام حالـكه السواد جددته الآمال ، فكان حريا بجيشه المتنافر عادة ولغة وديناً وقانوناً وملبساً وسلاحاً وسحنة وموطناً أن يثور فى وجه قائده المنهزم ، ويحوطه بشتى صنوف الأهوال ، ويريح الدنيا من جلجلة اسمه . . ولـكن هانيبال كان قائداً تسعى البطولة بين يديه . . . وفيم — تظهر معالم البطولة الفذة إذا لم تنطق بها مثل هـذه الحادثات . . ؟ هذه هى آيات القوة الخفية التى لا نعلم من أمرها إلا اسمها

وآثارها . على أنك واجـــد فى هانيبال ما يؤيد عظمته من مناقب تستطيع أن تسردها سرداً رياضيـا ، وتحصيها إحصاء علميا . فقد كان نموذج الجندى الصادق الذى لا زيف فيـه ولا عاب عليـه ، تملأه الشجاعة فى غير تهور ، ويحتويه الفتور عنـد ملاقاة الأخطار ومواجهة الأهوال ـ تبدو فى المآزق الحرجة والأزمات الضيقة سرعة بداهته ، وخصوبة ذكائه ، ونفاذ بصيرته . وكان إذا حطّ عليه التعب اضطلعت بحمله مناكبه فى غير استياء ولا شكوى . وكان يألف احتمال البرد القارس والحر اللافح حتى ليبدو وكأنه لا يحس أثرهما ولا يعبأ بهما . . فأما رغبته فى الطعام والشراب فكانت لا تتجاوز حاجته الطبيعية إليهما ، وضمان العيش بما تيسر له منهما . وقد كان يهزأ بسلطان النوم ولا يخضع له إلا إذا أتاحت له ظروف عمله لحظة يختلس فيها راحته ، حتى إذا دعاه العمل لبى دعاءه، ومضى إليه موفور الهمة والنشاط . وكان إذا تهيأت له ظروف النوم ألقى بنفسه أنى كان وحيثما اتفق . وكثيراً ما كان يمر به الجند وهو ملقى على الأرض ملتفاً بردائه الحربى بين رجال الحرس ـ وهو الرجـل الذى

تهيأت له الأمامة وسعت إليـه الزعامة ، وروّع روما طيلة العهد الذى عاشه ، حتى أقضّ عليها مضجعها وطير النوم من أجفانها وهو شريد طريد لا يعرف له مأوى يستقر به ، أو ملاذاً يطمئن إليه كما ستعرف بعد . . !! وكان مسرفا فى إهمال ملبسه — شأن الذين شغلتهم مهام الحياة عن فنون الأناقة ومظاهرها — ولكنه كان مفرطاً فى عنايتـــه بأسلحته واهتمامه بالخيل التى يمتطى صهوتها فى فى ساحة الوغى ، ذلك لأنه كان خيالا ماهراً مبدعا فى استعمال السلاح .

فان عيب على أخـــلاقه : فظاظتـــه وجشعه وتخطيه لحدود الأمانة والنزاهة ، فتلك مثالب تلازم قادة الحرب الذين عاشوا معيشته ، وتنفسوا الجو الذى كان يتنفسه . . . وقد كان رجل واجب أكثر منه رجل مجد . ولولا هذا ما لبث بعيداً عن وطنه ستة وثلاثين عاماً . . ! ولما احتمل حزب المعارضة فى مجلس الشيوخ وأفسح لهجومه صدره ، وهو فى قمة مجده وأوج قوته . !

على أن هذا الأحصاء الرياضى لا يكفى وحده لاتقاء الشر الذى كان ينطوى عليـــه الجيش الذى ألمعنا إلى

وجوه تنافره . ومدى التئامه تحت راية هانيبال ، وصبره على القتال من غير أجر ولا شجار . . !

وقد أسلفت لك تاريخ هانيبال فى كفاحه حتى يوم زاما المشئوم . فاليك طرفا من حياته بعد هذا اليوم الذميم :

عاد هانيبال بعد « زاما » إلى وطنه مهيض الجناح كسيح الرجاء فى عون أمته . فانفضَّ من حوله الكثير من أعوانه ، واشتد فى الهجوم عليه أعداؤه ، ونال منه طغام الناس وكان إلى الأمس القريب يروِّع أعظم دول الأرض وأشدها بأساً . . لا . . بل ما زال هانيبال فتىَّ العظمة موفور الحظ منها ، لا يلين للخطوب التى تنزل به ، ولا يخنع لقوى الأرض وإن اجتمعت لمقاومته . وإنه ليعيش فى وطنه فى جو من الهدوء والسكينة ، وروما سيدة الدنيا براً وبحراً تخاف على نفسها الدمار ، وتحسب لهذا الرجل القابع فى وطنه ألف حساب وحساب ، فتطارده وتسعى للظفر به لتبيده فتستريح . . ! ويفر « هانيبال » من بلد إلى بلد شريداً طريداً وروما قلقة المضجع مضطربة الخاطر مبلبلة الفكر — ويصيبها هذا القلق والرجل قابع فى وطنه منصرف إلى إصلاحه .

منشغل بتقويم ما اعوج من أمره . وفى المجلس حزب قوى يناضله ويتولى الهجوم عليه، ويغتنم الفرص للاشتباك معه والنيل منه، والحط من قدره والزراية بماضيه . ! ! ومن طبيعة العظمة أن تلازم أصحابها فى شتى مراحل حياتهم : فى النور وفى الظلام .. ولا تتأثر بفراق الأصدقاء أو اشتداد الأعداء، لأن وفاءها فوق خطوب الأقدار . .

بدأ هانيبال باصلاح أمته . فهاجم محكمة القضاة فى قرطاجنه، لأنها اغتصبت من الشعب سلطانا لم يكن لها — ولا ينبغى أن يكون لها . وآض الناس رهن إشارتها فى كافة ممتلكاتهم، بل فى أخلاقهم وشتى مظاهر حياتهم . ! فسعى فى إصلاح أمرها، وأقام على سعيه حتى أصبح منصب القاضى يملأ بالانتخاب ويستمر عاماً واحداً لا يتجاوزه . ثم تناول حياة الشعب الاقتصادية فنظم صادراته وارداته، وأقام العين الرقيبة على الضرائب، والرأس المتزن فى تصريف المال المتجمع حتى هان دفع الغرامة، وانتعشت الأمة وأينع الذابل من آمالها، وانبعث الميت من أمانيها . فقام فى المجلس حزب قوى

من خصومه يناضله ويقاوم خططه . وتنزّل أعضاؤه إلى إثارة الحكومة الرومانية عليه، واتهامه عندها بأنه يعدّ العدة لحرب يؤجج نارها متضامنا مع ملك سورية . ! وكان الرومان لا يستبعدون هذا العمل الآثم من رجل عاداهم وأنزل بهم شره هـذا الزمن الطويل ، فألحوا فى انتداب وفد يطالب قرطاجنه بتسليمه إليهم . وعبثاً حاول «سيبيو» أن يردهم عن هذا المطلب العزيز عليهم . .

فلما تسامع هانيبال بهذا النبأ استقر عزمه على الهرب ، ومكر بأعدائه حتى يغفلوا عن رقابته ! فسار بين الناس ملتزما الاطمئنان كعادته ، ثم امتطى فى المساء جواداً وانطلق به إلى الشاطىء فاستقبلته سفينة أعدها لرحيله ، وأبحر إلى جزيرة « كركينا » Kerkina وكتم عن الناس نبأ فراره ، وأعلن للمتصلين به أن الحكومة قد انتدبته سفيراً فى « صور » Tyre وتبين اكتظاظ الميناء بالتجار فخطر له أن يعجل بالهرب حتى يطمئن على أمره ، فدعا القباطنة إلى حفلة شائقة ، وطلب إليهم أن يمدوه بأشرعة سفنهم حتى يتسنى له أن يقيم سرادقا ضخما لتحقيق هذا الغرض .

وأقيمت الحفلة واختلف إليها المدعوون من كبار التجار وأصحاب السفن . واحتوتهم ضجتها وطواهم تيارها حتى نسوا هانيبال الذى غافلهم واختفى عن أعينهم والحفلة مازالت قائمة . . ! ولما كانت سفنهم تعوزها القلاع والأشرعة فقد عزّ عليهم أن يلحقوا به . . !

وحطّ الشريد رحاله فى « صور » Tyre ، وأحسن أهلها استقباله ، وأفرطوا فى الاحتفاء به . ثم بارحها إلى ثغر أنتيوك Antioch وأبحر منها إلى أفيزوس Ephesus حيث استقر مليك سورية ، فأساء هذا استقباله ، وركب رأسه وتوانى فى الانتصاح بنصحه والاشتباك مع روما فى حرب ، حتى فاتت الفرصة وفرغت روما من مقاتلة أعدائها ، وتاهبت للقاء سورية وأنزلت بها شر الهزائم ، وأكرهتها على التماس الصلح . . ! ولما أيقن المليك بأن روما تُلِح فى القبض على أعدائها فى سورية أتاح لضيفه الهرب ، فطار هانيبال شريدا طريدا يتعقبه الظلم ويطارده الطغيان أنىّ حلّ وأينما ارتحل حتى أقبلت أيامه الأخيرة وهو فى ضيافة « برزياس » Brusias ملك بثينيا Bythynia وعاونه فى قتال أحد حلفاء روما ، فسارعت حكومتها إلى طلبه .

وأحسّ الملك العجز عن مقاومة مطلبها ، فأرسل فرقة للقبض على ضيفه ... ! وكان هانيبال قلق الخاطر لا يداخله الاطمئنان فى عدو أو صديق ، فالتمس السبيل إلى الهرب ، وفاجأه الجند عند كل مسلك صادفه وسدوا السبيل فى وجهه، فسارع إلى سم كان يحمله ليستعين به على اتقاء الشر والنجاة من الذل ، ثم تجرعه وخرّ على الأرض صريعا ..! وتحرك لسانه بالكلام قائلا :

فليسترح الرومان من هذا القلق الذى يضيقون به ، ما داموا يحسون العجز عن انتظار الموت لرجل طاعن فى السن مثلى . . !

وعاجلته روحه بالفراق فى الخامسة والستين من عمره ..!

قيل إن رواية « آلام فرتر » أحدثت تطورا بارز الملامح واضح المعالم فى الأدب الألمانى كله ، فكان خليقا بمؤلفها « جيتى » أن يعتز بها ويجعلها موضع فخاره ومبعث اعتداده . ولكنه كان يأسف لها ويضيق بها كلما عرض ذكرها فى مجلسه .. ! ذلك لأنه أثم فى تصوير المصير الذى انتهى إليه بطلها . فاحتقر بطولته وشوّه جلالها حين جعل « الانتحار » مصيره . فكان « جيتى »

حريصا على تنزيه البطولة من خطيئة الانتحار . . . و هذا الاتجاه تميل جمهرة المفكرين الذين تناولوا بالبحث هذا الموضوع . وهم على حق فيما أرى . فليس صحيحا ما يقوله البعض من أن المنتحر جرىء على نفسه . والجرأة على النفس حتى الإجهاز عليها أشد وأقوى من الجرأة على الغير ، لأن المنتحر في الأغلب والأعم - يقدم على خطيئته على غير وعى منه ، ويأتم بارتكابها وهو فى غيبوبة واضحة ، وما دامت أعصابه هى التى تقوده إلى فعلته من غير تدخل من فكره، فلا معنى للحكم عليه بالجرأة والشجاعة . ثم هو خليق بالاتصاف بالضعف والخور، إذ أقرب إلى المنطق أن نقول إن تبعات الحياة قد أفقدته وعيه، أو ثقلت عليه حتى فر من وجهها ولاذ بالهرب . .

على أن هذا لا يبرر اتهام هانيبال بالجبن . فان هذا الرجل قد اشتد فى حساب أعدائه ، وصب عليهم أذاه صبيا وشاباً وكهلا . . قائداً وشريداً . . ومثّل القسوة فى معاملة الأسرى منهم أنطق تمثيل وأصدقه . ولو ملك إبادة روما وسبى نسائها وقتل رجالها وهدم بيوتها ونهب أموالها وسلب خيراتها لما توانى فى ذلك أو تردد .

فأعداؤه إن ظفروا به تمكنوا من إيذائه، وأوغلوا فى الانتقام منه وأفرطوا فى تعذيبه ، وهو شيخ قد نيّف على الستين من عمره ، فليس فى طاقته أن يحتمل قسوتهم ويصمد لهوانهم ... . بل قل لماذا يمكنهم من إيذائه ، ويهيء لهم سبيل اضطهاده وفى وسعه أن ينجو بحياته . ! ؟ والحياة أعز على الطاعنين فى السن ممن هم فى ربيع العمر ومقتبل الشباب ، ولكن الحياة — عند من يحترم نفسه — أهون من استعباد العدو واحتمال طغيانه . . ! ثم كيف يوصف بالجبن رجل عادَى أعظم أمة على ظهر الأرض كلها، وأقضّ عليها مضجعها نحو الأربعين عاماً . . . !

ففى إقدام هذا الرجل على الانتحار فى مثل هذه السن وفى مثل هذه الظروف مايبرر جريمته ، ويخرجها من نطاق الجبن . .

مات هانيبال وقلبه طافح بكراهية الرومان والحقد عليهم . فكان أمينا لعهده وفيا لوعده باراً بقسمه . . .

بداية النهاية

أو

الاسترسال فى قبول الهوان

شبح هانيبال بعد موته ـــ ثراء قرطاجنه ـــ « كاتو » يهاجمها فى مجلس الشيوخ فى روما ـــ عدوان ماسينيسا على قرطاجنه ـــ انفجار الحرب ـــ نبى الخونة ـــ توسط « سيبيو » ـــ المعاهدة الذليلة ـــ وفود قرطاجنه تتعاقب على مجلس الشيوخ فى روما تطلب الغفران وتستجدى الرحمة ـــ تسليم ٣٠٠ فتى من أشرافها رهينة فى يد العدو ـــ تسليم أدوات القتال من سهام وقسى ومزاريق ـــ قنصل الرومان يطالب القرطاجنيين بالجلاء عن قرطاجنه ـــ فرط الحماس وجنوبه ـــ اعلان الحرب ـــ اعتماد الشعوب على المعجزات فى ساحة النضال

مات « هانيبال » وطار نبأ مصرعه إلى روما ، فأشاع الغبطة فى كيانها ، وخفف من ضيق القلق الذى يساور

أهلها ، وإن لم يمـــلأ بالاطمئنان نفوسهم . فان شبح « هانيبال » لم يزل بعـد قائماً ينذر بالشر ، ويهدد بالويل والثبور ، وخافت روما أن يخلفـه فى القيادة « هانيبال جديد » فكان مثلها - من بعض الوجوه - مثل الدول المتحالفة فى وجه « نابليون » يوم نفضت فرنسامنه يدها ، وقعـــدت عن نصرته ، وكان الحلفاء قد قصوا جناحه . وأكد لهم أحد قادته أن الامبراطور واقف على قدمين من عجين ، ولـكنهم لبثوا يخشون فرنسا ، ويرهبون خليفة نابليون - وإن لم يكن معروفا لديهم بعد ..! وقد أدّى بهم هذا الخوف إلى أن يرفضوا بعد دخولهم باريس للمرة الثانية إصرار بروسيا على انتزاع الألزاس واللورين .. !

وكانت روما قد أحرقت أسطول قرطاجنـه وذرته رماداً ، ولـكنها تركت لها سفنها التجارية تجوب البحار . وتمخر عبابها وتلاطم أمواجهـــا ، وتجلب الرزق وتعود باليُمـن ، وتدر الذهب وتملأ به الخزائن . ففى وسعها أن تستأجر من هذا المال الموفور جيوشاً جرارة تعيد بها سالف صولتها ، وتسترد سابق مكانتها ، وتبنى أسطولا أعظم من أسطولها المحترق ، فيتسلط على البحار ويتولى زعامتها

كما كان — وأنف العدو فى الرغام . . ! ولم لا . . ؟ لقد عاشت قرطاجنه طيلة حياتها معتمدة على الجنود المرتزقه ، مستندة فى قتالها إلى سواعدهم الفتية وجهودهم الجبارة ، وها هى قد استوفت حظها من الغنى بعد عشرين عاماً من إبرام المعاهدة فتتقدم إلى روما تريد دفع الغرامة مرة واحدة ، وإن كانت الشروط تمد لها فى أجل الدفع خمسين عاماً . . ! فأما روما فتأبى هذا المال الذى يتبرع لها عدوها به لأنها تريد أن تطيل فى إذلالها له ونكايتها به وتشفيها منه ..!

وكأنما أرادت أن ترد لها موقف « هانيبال » بعد « كانى » يوم وقف على كثب من روما يقرع أبوابها ويرسل الفزع على أهلها دون أن يتقدم إلى اقتحامها أو يفكر فى غزوها ، ليطيل من عذابها ، ويمد فى أجل شقائها .

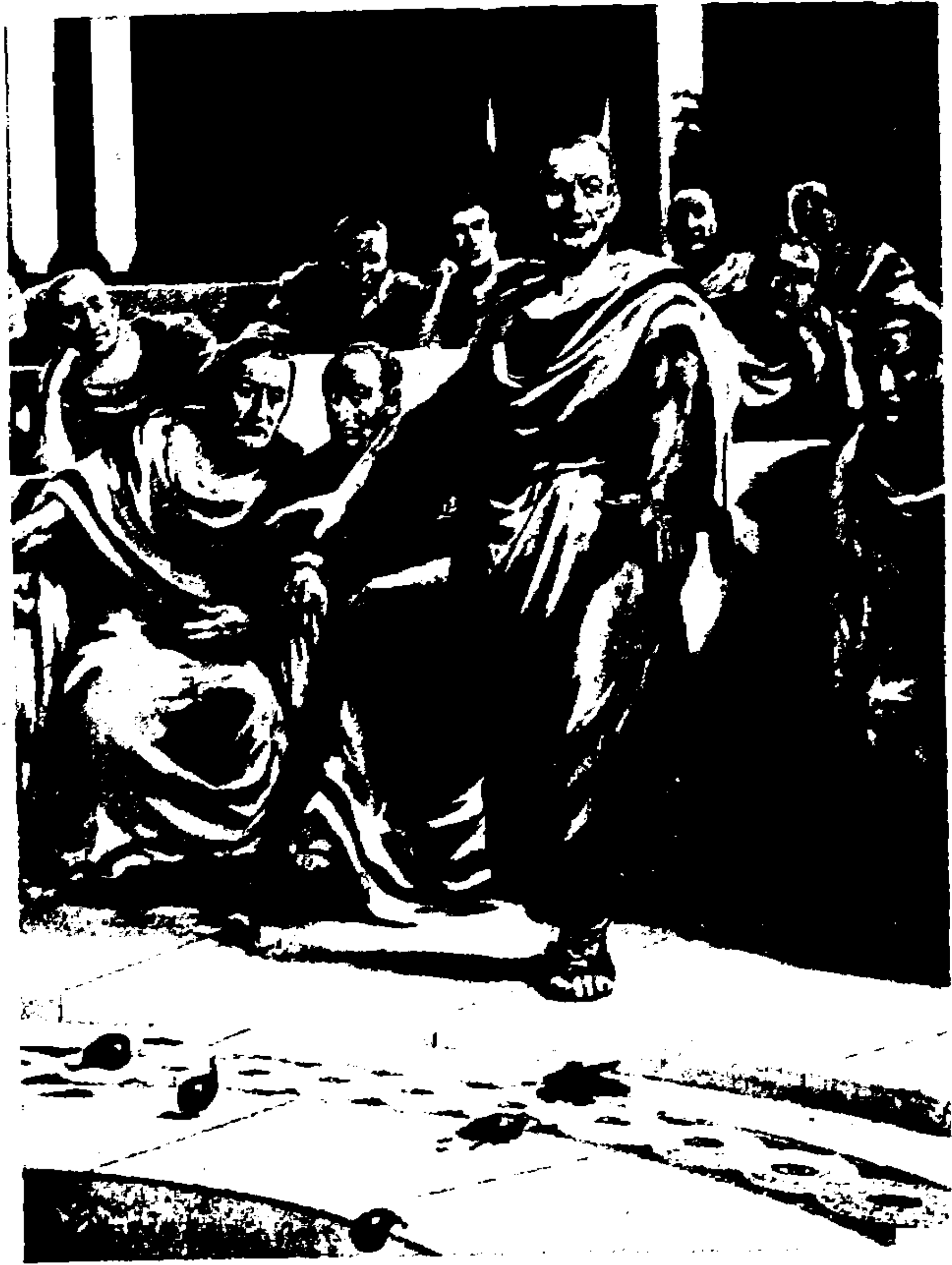
وكانت مقدونيه تهم باعلان الحرب على روما ، فاتصلت رسلها بقرطاجنه ، ولاقت من الحزب المؤيد للحرب فيها انتصاراً لدعوتها ، وارتياحا للائتلاف معها . . وترامت هذه الأنباء إلى سمع روما فزادت من قلقها وضاعفت من

حقدها . . وتولى« كاتو الكبير Cato, the Elder »مهاجمتها في المجلس — وكان يضيق بها ويحقد عليها منذ أن قاسى مرارة كفاحها في الحرب البونية الثانية — فانتدبه المجلس للاستفسار عن السبب في حرب أثيرت بينها وبين ماسينيسا. فلما بلغ قرطاجنه وتجوّل في أرضها ، راعته موارد الرزق فيها ، وأدهشته مظاهر القوة التي توفرت لها ، وعجب لازدحام سكانها واكتظاظ أقاليمها ، وأزعجه أسطولها المزوّد بخير المعدات ، وأقلقته مخازن الأسلحة الملأى بالذخائر ، فلما عاد إلى روما مثل في مجلس شيوخها ، وانطلق ينفث في الأعضاء سمومه ، ويستفز كامن حقدهم فيقول لهم :

ان نصيب هذا الشعب من القوة والبأس في حاضره ، لأروع من نصيبه منهما في ماضيه ، وهو يعالج الحرب اليوم في افريقيه توطئة لأثارتها في وجوهكم ، والقاء حممها فوق أجسادكم .

ثم أخرج وهو مندفع في كلامه عنقوداً من التين الناضج كان في فرجة في ثوبه ، وألقاه أمامهم قائلا لهم وقد أدهشهم نضوجه:

ان مملكة تنتج مثل هذا التين الناضج لبينها وبين هذا المكان رحلة أيام ثلاثة . (الصورة ص ٢٠٩)



في مجلس الشيوخ الروماني :

« كاتو الكبير » ألد أعداء قرطاجنه يلقى أمام الأعضاء من فرجة فى ثوبه تيناً جمعه من قرطاجنه ويقول لهم « ان مملكة تنتج مثل هذا التين الناضج ، لبينها وبين هذا المكان رحلة أيام ثلاثة . . !! »

وأخذ يشتد فى هجومه على هذه الأمة الشقية ، ويستغل الفرص للدعوة إلى تحطيمها . والنغمة التى لا يمل تردادها فى خطبه : يجب أن تتلاشى قرطاجنه «Delenda est Carthago »

وكان لقرطاجنه عدو رابض يتربص بها ، ويترقب حركاتها وينتهز الفرص للاعتداء على أرضها ، ذلك هو « ماسينيسا » الذى انتظم فى صفها وحارب مع قائدها « هسدروبال برقه » فى أسبانيا ، ثم انتقض عليها وحالف روما وجاهد تحت لوائها ، وكان له الفضل الأكبر فى إحراق المعسكرين اللذين أسلفنا الحديث عنهما ، وكافأته روما فردت له ممتلكات أبيه وأضافت إليها جزءاً كبيراً من مملكة سيفاكس .

وكان ماسينيسا قد شغل نفسه منذ أكثر من خمسين عاماً بالعمل على توسيع مملكته وبسطة نفوذه على حساب قرطاجنه ، وكان يحس بأن روما لا تتأخر عن نصرته إن أعوزته معونتها . وكانت قرطاجنه — بالإضافة إلى هذا — قد حرمت عليها المعاهدة أن تشعل الحرب إلا بإذن من روما . ثم هى ضعيفة الرجاء فى نجدة روما إذا

استعانت بها وطلبت حمايتها من اعتداءات ماسينيسا المتلاحقة، وأرسلت روما رسلها — بعد أن كررت قرطاجنه شكاتها — فكانوا يفحصون أمرها، ويتبينون وجه الحق فى موقفها، وكثيراً ما أثبتوا فى تقريراتهم مدى الأخطاء التى ارتكبها ماسينيسا حيالها. ثم يبارحونها وموضوع النزاع ما زال معلقاً ..؟ ولجّ الملك فى اعتداءاته، وأسرف فى عدوانه حتى انفجرت الحرب فى السنة الحادية والخمسين بعد المائة، وقام الحزب الديموقراطى (الذى يتولى الانتصار للحرب) بتطهير البلاد من الخونة المارقين من أبنائها، فنفى أربعين عضواً كانوا يتزعمون حزباً ينتصر للعدو، وأوجب على الشعب أن يقسم غير حانث ولا متردد ألا يأذن لهؤلاء الخونة بالعودة إلى أرض الوطن. . فطار هؤلاء الأربعون إلى الملك «ماسينيسا» وراحوا يزيدون من حقده، ويضاعفون من عدائه، وما كانت به حاجة لشىء من ذلك.

فقام الملك بحصار المدينة وأرسل الشعب قائده هسدروبال للقائه وصد عدوانه، وهجر الملكَ ضابطان من ضباطه وخفتا — وفى صحبتهما ستة آلاف فارس — إلى

جيش العدو وانتظموا فى صفوفه ، وتقهقر الملك حتى طوّح بعدوه فى بطاح لا يبلغه فيها المدد إلا بعسر ومشقة .

ثم تدخل سيبيو وتوسط بين العدوين . وقبل القرطاجنيون أن يتنازلوا عن المملكة التى تحيط بأمبوريا Emporia (ما نسميه الآن Gabes & Trebia) وأن يدفعوا مائتى وزنة من الذهب فوراً ويتعهدوا بسداد ثمانمائة أخرى أقساطا، فلما أضاف الملك إلى هذا رغبته فى تسليم الفارّين انقطعت المفاوضات وانفجر العدو فى وجهه .

وأسرف «هسدروبال» فى حسن الظن حتى توهم بأن روما ستتدخل لحسم النزاع بين البلدين ، وما كانت روما لتتدخل فى الأمر وتوقف الحرب إلا إذا أحست عجز حليفها عن مقاومة قرطاجنه ، والمضىّ فى تحطيمها وإلقاء الطعنة القاتلة فى قلبها . فأقامت روما على حيادها حتى أصاب القحط جيش هسدروبال ، ولحقت به الحمى التى لا تفارق القحط أنىّ كان . فانهدت قوى الجيش وهلك الكثير من أفراده، واضمحلت آماله وحط على فلوله يأس مرير ساق هسدروبال إلى قبول معاهدة تنضح نصوصها

ذلة وهوانا ، ويطفر منها الاحتقار والامتهان . فعاد إلى قرطاجنه أنصـار الملك الذين نفاهم الحزب الديموقراطى من قبل ، وسلم الهاربون على كره من قرطاجنه ، وأرغم المغلوب على دفع غرامـة بلغت الخمسة آلاف وزنة من الذهب ـــ وأشنع من هذا وأنـكى أن المعاهدة قدأوجبت على هسدروبال أن يمر وجنده من ورائه على معسكر العدو عُـزّلا من كل سلاح عارين إلا من ثوب واحد يستر أجسامهم . . ! وقبل القائد هذه المهانة البالغة ولوّث بهذه الذلة شرفه العسكرى ، ولطخه بأدران العـــار الذى لن ينساه التاريخ ، إبقاء على حياته وحرصاً على وجوده . . ! وسيعرف القارىء النهاية الأليمة أو المأساة المهينة التى ختم بها هذا القائد الذليل حياة أمته .

فأما الهاربون الذين لا عون لهم فقد قام أحـد أبناء الملك على رأس قوة من الخيالة وتولاهم بالذبح والأهلاك حتى أفناهم إلا نفراً قليلا تيسرت له العودة إلى قرطاجنه

فأما قرطاجنه فقد تولاها اليأس من سوء ما لقيت طيلة جهادها الشاق ، وأفقدها ضيقها الرشـــدَ فحكمت بالأعدام على قائدها « هسدروبال » ومن كانوا يطالبون

بالحرب ويدعون لأثارتها . . ! وأطلقت رسلها إلى روما لترفع هذا التصرف العجيب الذى قابلت به إهانتها ، إعلاناً منها لبراءتها من الحرب، واعترافاً بخطئها فى إشعال نارها . ولكن أعضاء المجلس فى روما قالوا للرسل :

« توانيتم فى توقيع العقوبة حتى لحقتكم الهزيمة ، وزايلتكم القدرة على المقاومه . فلماذا لم تحكموا عليهم بالأعدام قبل أن تُقهروافى الحرب »

وحار الرسل جواباً . . . فصوّت المجلس فى جانب الرأى القائل بأن اعتذار قرطاجنه عن إشعال الحرب من غير إذن من روما كسيح لا ينهض بالعفو عن جريمتها.

وتساءل الرسل فى أسًى ويأس عمــا ينبغى أن يفعلوه تكفيراً عن خطيئتهم ، فرد عليهم المجلس رداً يسبح فى جو كله غموض وإبهام قائلا لهم :

« ينبغى أن تقوموا بارضاء الشعب الرومانى »

فلما حمل الرسل هذه الرسالة إلى أمتهم ، أرسلت وفداً ثانياً ملتمساً معرفة ما ينبغى أن يفعلوه على وجه التدقيق .

فطرد المجلس أعضاء الوفد قائلا لهم :

« ان قرطاجنة لتعرف المطلب الذى ننشده »

ثم وافقت روما على النصيحة المشئومة التى أسداها لها « كاتو الكبير » فكان على قرطاجنه أن تتلاشى . .

وانطلق القنصلان : سنسورينوس Sensorinus وماليـنيوس Malinius إلى قرطاجنه بجيش وأسطول مزودين بالتعليمات السرية التى تقضى بابادة قرطاجنه وملاشاتها من الوجود . . !

وكان الشعب الرومانى وطيد الثقة فى تحقيق مطمحه . قوى الرجاء فيما سيصيبه من أسلاب وغنائم، شديد الحرص على أن ينال نصيبا من فخار النصر الحاسم المنتظر . فتقاطر المتطوعون فى الجيش وانهالوا عليه حتى تجاوز عديده المائة ألف جندى يستخفهم الطرب، وتهزهم الرغبة فى تحقيق هذا الحلم اللذيذ على يدهم . .

أما الحكومة فى قرطاجنه فما فتئت فى سباتها يتولاها يأس مُمِض وضيق بغيض.. ولا أمل لها فى النجاة من هذا الشر الهاطل فى غير انقطاع إلا بتقديم الخضوع الذى لا حدَّ له ، وقبول المهانة البالغة من غير قيد ولا شرط..! ولهذا أرسلت وفدا ثالثاً إلى روما وزودته بمطلق الحرية فى الموافقة على شروط العدو بالغا ما بلغ الهوان بها . . !!

فلما أقبل الوفد على القنصل ومثل بين يديه ، والتمس عنده معرفة ما تطلبه روما على التحقيق قال القنصـــل للأعضاء :

« إذا سلمتمونا ثلاثمائة رهينة من أنبـل الأسر فى قرطاجنه ، وقمتم بكافة الشروط الأخرى التى نطلبها منكم فى ثلاثين يوما لا تتجاوزونها، تمتعتم باستقلالـكم وبقيت لـكم كافة ممتلـكاتـكم . »

ولـكن مجلس الشيوخ فى روما أرسل تعليمات سرية إلى القنصلين ، تتضمن التشبث بالمطلب الأسمى الذى لا تردد فيـــه ولا تنازل عنه : « القضاء على قرطاجنه وملاشاتها من الوجود . . ! ! »

ثم شرعوا فى اختيار ثلاثمائة فتى من أشرف البيوتات وأنبل الأسر فى قرطاجنه ، فاستولى على النساء فزع ممض وحاق بهن ضيق أليم ،وأدركهن الهلع فانطلقن فى الشوارع والأزقة باكيات مولولات يتوسلن إلى أولى الأمر أن يرفضوا هذا المطلب الآثم . . .وبارحت هذه الجموع من الشبان بيوتهـا ، وفارقت أهلها وصحابها ، وازدحم بهم الشاطىء ثم أقلع بهم السفين بعد وداع أليم للوطن والأهل

والعشيره والصحاب .وخلفوا وراءهم الحزن الدائم والألم المقيم واللوعة الباقية والذكرى الموجعة . . ولبست الأمة السواد ، وقص السيدات شعر رءوسهن حدادا على فلذات الأكباد ، وخيم الحزن على الناس وارتسم فى وجوههم ومثل على شفاههم وفوق جباههم ، وفى شتى حركاتهم وسكناتهم .

فبدأت اليقظة تسرى فى طائفة من الشعب المخدوع ، تحركها من هذا السبات الذى طال أمده واشتد بأسه وساء مصيره . . بدأت تعرف أن الأمة التى تتبرع بحقوقها ، وتمعن فى قبول المذلة ، وتسرف فى الرضا بالهوان ، والاستسلام للعدو أملا فى غفرانه وانتظارا لرحمته ، إنما تُعد لنفسها الجدث ، وتهيء الرمس لأبنائها . . . ولكن الذين أدركتهم اليقظة كانوا من القلة بحيث لا يقوون على مقاومة هذا السبات الطويل ، ومناهضة هذه الغفلة البالغة . .

ثم عاد القنصل فلعن الحرب وأثنى على السلام وطلب من رسل قرطاجنه أن يسلموا إليه كافة أسلحتهم وعُددهم وأدوات قتالهم « لأن روما ستتولى الدفاع عنهم يوم يعوزهم هذا الدفاع . . !! » وتمادت قرطاجنه فى

استسلامها واستجابت لمطالبه ، فسلمته : مائتى ألف حربة وألفين من القسى وآلاف الآلاف من السهام والمزاريق. وبذلك أباد العدو جيشها فى حروبه وأحرق أسطولها ، واستولى على أسلحتها وأدوات قتالها ، واستل منها ثلاثمائة من أبناء أشرافها . . وخلفها كسيحة الرجاء ، ميتة الإرادة ، مجدبة العزم يخيل للرائى أن الجماد إن تحرك ليرد شراً نزل به ، كان فى الأمل فسحة لانتقام هذا البلد التعس . . !

ثم عاد القنصل بعد هذا الهوان الذى أنزله بهم فقال لهم : تحمدون الآن على طاعتكم ، ولكن روما قد كلفتنى بأن أقول لكم : فارقوا أرض الوطن وشدوا رحالكم إلى مكان تتخيرونه بعيداً عن البحر بعشرة أميال على الأقل ، لأننا اعتزمنا أن نهدم وطنكم ونلاشيه من الوجود حتى نأمن شره ، ولا نخشى بعد اليوم بأسه ، فهيا سارعوا إلى نقل أثاثكم وما تملكون إلى هذا المكان الصحراوى الجميل .. . !

وكأنما كان يحس بوقع هذا النبأ الأليم فى نفوس أولئك الأشقياء الذين ألفوا البحر وورثوا عن الآباء

حبه . ومارسوا التجارة ووقفوا عليها حياتهم ، فاستأنف الكلام فى إيلام موجع : « ولخيرٌ لكم أن تبتعدوا عن البحر حتى لا تذكروا العظمة التى تهيأت لكم فى ماضى أيامكم ،وتنسوا المجد الذى أصبتموه فى غابر تاريخكم، ولا تؤذيكم ذكرى الماضى وعبرة الحاضر . والزراعة فوق هذا كله أدعى للأمان من التجارة ، وأكثر منها دراً للخير ومجلبة للرزق» ثم عقب على هذا الكلام الموجع قائلا : «ونحن مازلنا عند كلمتنا حين وعدناكم بأن تحيا قرطاجنه فى ظلال الاستقلال ، إذا استجابت لمطالبنا وخفت إلى مرضاتنا . . ! ؟ إن الرجال ، لا الحوائط ولا المبانى هم الذين يكونون الأوطان . . ! !»

وكان الشعب القرطاجنى فى انتظار رسله ليعرف آخر مطالب للعدو بعد ما سلف من مطالب تجاوزت العقل وتخطت كل حدود للعدل . . وازدحم الشعب وتقاطرت جموعه وهطلت على مجلس الشيوخ لتسمع كلمة الفصل فى مصيرها ، فلما أقبل الرسل ووطئت أقدامهم أرض الوطن،كادت أن تزهق نفوسهم من شدة الزحام ، وشقوا إلى المجلس طريقهم بعد جهد فاق التصور ، ومشقة تجاوزت

الوصف . وتماطر الشعب على أبواب المجلس وتكدست جموعه وهطلت أفواجه . وخرست الألسنه وأرهفت الآذان لتسمع نبأ المطلب الجديد . .

فلما أعلنه مندوب الوفد أصاب المجلس الهلع .وشاع فيه الجزع ، وارتفعت فى القاعة صيحة كلها روع وغضب. فأما الشعب خارج الأبواب فقد اشتعلت نار الغضب فى أعصابه ، وغلت مراجل الانتقام فى رأسه ، فهجم على قاعة المجلس وقد فقد وعيه واستولى عليه مس من الجنون وانقض على الأعضاء الذين كانوا ينصحون بتسليم الرهائن والأسلحة والأسطول والمعدات . وأعمل فيهم أسنانه وأظافره وأيديه وأرجله وكل ماامتدت إليه قوته التى تغلى وتستعر حتى مزق بعضهم إرباً إرباً . ومثل بجثثهم وراح يطوح فى أشلائهم . . . وهجم على الرسل الذين لا ذنب لهم إلا أنهم حملوا هذه الأنباء الأليمة ، وصب عليهم جام غضبه ، وتولاهم بعذابه فى وحشية أحالت المجلس جحيما يضطرب من فرط الهياج والقسوة البالغة فى الانتقام الذريع . وأباد الشعب من ظفر بهم من الحزب المعتدل وأفناهم وسار على جثثهم ولطخ جدران

القاعة بدمائهم . ثم انطلق إلى الشوارع يبحث عن الطليان الذين شغلتهم التجارة ، أو استلزمت أعمالهم البقاء بين جدران المدينة ، وانقض عليهم وفتك بهم فتكا ذريعاً وافترس من وقع منهم فى يده افتراساً وحشياً ذميما . . . ولبث الشعب المجنون يطوف المدينة للبحث عن فريسة تنصرف إليها فورة دمه ووحشية غضبه ووقدة حماسه... وتهيأ الرشد لفئة منه فانصرفت إلى إعداد ما يستلزمه الدفاع فى الحرب الضروس المقبلة... وأعلنها مجلس الشيوخ فى نفس اليوم . . .

وترامى إلى سمع التاريخ هتاف القدر بيوم « كانى » يوم عاجلته قلة خبرته وحسن ظنه بصروف الزمن ، وقصر نظره فى فهم الحادثات والتكهن بعواقبها والتنبأ بتطوراتها ، وذكر همسة القدر يومئذ « بل ستحيا روما . هكذا أراد الرومان . وإرادة الشعوب من إرادة الله . » فاتأد التاريخ وتأنى فى حكمه حتى ينطق الزمن بمصير هذا الشعب العجيب . .

وإذا جردت قرطاجنه اليوم من حرارة حماسها ووقدة اشتعالها فماذا ترى . . ؟ ! امبراطورية واسعة

الأرجاء مترامية الأطراف موفورة البأس والقوة بسطت سلطانها على شمالى إفريقيا ، وتخطته إلى أسبانيا فنشرت العلم فى ربوعها ، ثم تجاوزتها إلى إيطاليا وبسطت طيلسانها على آفاقها الرحبة . . ولكنها اليوم قد ضاقت وتقلص ظلها . وانكمش سلطانها حتى استحالت إلى «مدينة»..! قد استولى عليها الضعف وتملكها اليأس وضعضعتها الحروب ، فسلمت عدوها : أسطولها البالغ نصف ألف بارجة، وشهدت بعينها النار تلتهمه صابرة يائسة..! وأعطته أسلحتها وأدوات قتالها من حراب وسهام ومزاريق وقسِىّ .. وثلاثمائة من خيرة شبانها الذين أفلتوا من جحيم الحرب، وكانوا موفورى الحظ من القوة والعافية .! وتقبلت دفع الغرامة مكرهة على الرضا ، لا يرتفع فيها صوت بالاستياء حتى يخفت على كره من صاحبه . . ! وحكمت على قادتها والمجاهدين المتطرفين من أبنائها بالأعدام مرضاة للعدو الذى استباح حرمتها ، وامتهن كرامتها ووافق راضياً على إكراه قائدها وجندها على أن يمروا على معسكر الأعداء عارين إلا من ثوب واحد يستر عورتهم . . ! وأرسلت وفودها متلاحقة تترى إلى روما

تنشد العقاب لتستجيب له ، وتطلب الحساب الذليل لتثبت ولاءها باحتماله والرضا به .. !!؟ أو قل ملخصاً هذا كله : تنازلت عن وجودها المعنوى إبقاء على وجودها الحسى

واليوم .. ؟ من ينتصر لها ويتعاون معها فى تهيئها للدفاع وتأهبها للانتقام .؟ إن تاريخ الانسانية منذ فجر وجودها حتى الطور الأخير من حياتها ليؤكد لنا بأن تضامن الشعوب فى صراعها لا يطمئن للضعف ولا يقوم على غير المصلحة . وادعاء الرحمة والانسانية والعدالة خداع يستتر وراءه هذا المطلب الأسمى والمطمح الأعلى . وإذا اختفت معالم هذا المقصد فى تضامن شعب بغيره، ووضحت آيات أخرى فى سر تعاونه، فانما نهاية العلل فى تسلسلها : هى الحرص على المصلحة ..!

وقرطاجنه اليوم ضعيفة .. ولا عون للضعيف إلا الله .. ! هى عزلاء .. ولا مدد للأعزل إلا رحمة السماء ... وحتى السماء ـ فيما تنطق به نواميس الكون ونظمه المستقرة ـ لا تحابى ضعيفا ولا قويا . وإنما تترك الخلائق فى صراعها وقتالها .. والبقاء للأصلح . والغلبة للأقوى ... ثم أينت عدالة السماء وحكمتها إن كانت الغلبة

للقوى يوما وللضعيف يوما، والبقاء للصالح حينا وللهزيل حينا . . ؟ ! !إن اعتماد مثل هذا الشعب التعس على رحمة السماء لن ينجيه من الويل المقبل . .إلا بمعجزة . . واعتماد الشعوب على المعجزات فى لجة الصراع الطامية، أبلغ حجة على استهانتها بمصيرها ، وتسليمها فى وجودها ، وقبولها للهلاك عن جدارة واستحقاق . . !

وإذن فلتعتمد قرطاجنه على سواعد أبنائها المفتولة ، ونفوسهم الزاخرة بحب الحياة ، وقلوبهم العامرة بالحرص على البقاء — لعل هذا ينجيها من الهلاك .

البعث

انشغال الشعب — نساء ورجالا شيبا وشبابا بالتأهب للصراع المقبل — بين الكرامة وتقرير المصير — جغرافية قرطاجنه — بدء حصارها — بسالة « فامياس » — بين المد والجزر — فورة الحماس — الرومان يلتمسون نجدة «ماسينيسا» ثم يأبونها — «سيبيو» يتولى تقسيم مملكته بين أبنائه الثلاثة خيانة فامياس — تغيير القنصلين على غير جدوى — قرطاجنه تطلب العون على غير طائل — مجلس الشيوخ فى قرطاجنه يرجم أحد القادة حتى يهلك — روما تهتف بسيبيو — القانون لا يجيز والشعب يريد — ارتداد القنصلين الى روما من فرط اليأس — عودتهما بعد اصلاح الجيش — الرومان فى حى مجارا — تقهقر القرطاجنيين — تعذيب أسرى الرومان — ضرب الميناء — القرطاجنيون يبنون أسطولا فى غفلة الرومان — تفانيهم فى الدفاع —

ونفخ فى الصور فاذا النيام أيقاظ تملأهم الحياة بعد أن زايلهم النعاس، وإذا الأموات يهرعون إلى ميدان القتال من فرط القوة ووفرة الحيوية ووقدة الحماس ...

قامت الأمة ـ حكومة وشعباً ـ بتنظيم الدفاع ، والتأهب لبذل الجهد والنفس فى الهول المقبل، حرصاً على بقائها وتقريراً لمصيرها ، وولت قيادة جانب كبير من جيشها

قائدها هسدروبال - وهو الذى أسلفنا الأشارة إلى الحكم عليه بالأعدام مرضاة للعدو - وتربص الباقى من جيشها داخل الأسوار، ونسى الشعب مطالب حياته وراح - نساء ورجالا شيباً وشباباً - يواصل الليل بالنهار فى صنع الأسلحة وإعداد ما يتطلبه الصراع المقبل من أدوات .. اقتلعوا بلاط الشوارع ، وهدموا كثيراً من البيوت وحملوا أحجارها إلى شرفات الأسوار، أذابوا مايملكون من أوان وتماثيل ذهبية وفضية، وقد كانت عزيزة عليهم حبيبة إلى نفوسهم .. طغى الشعور بالقومية الملتهبة والرغبة الملحة فى البقاء على العقيدة الدينية المتمكنة فى النفوس، فأحالوا « المعابد » مصانع يعدون فيها أسلحتهم وعددهم وما يحتاجون .. احتاجوا إلى أوتار للقسى لتقذف المزاريق وأعوزهم شعر الخيل الذى ألفوا استعماله فى ذلك، فسارع النساء إلى التبرع بشعر رءوسهن ولم يبخلن به وكان من أعز ما يملكن من مظاهر الزينة. ..كانوا يصنعون فى اليوم الواحد ألف مزراق وثلاثمائة سيف ومائة درع ..!

كل فرد فى الشعب قد استولى عليه شعور عميق يوحى إليه بالرغبة فى القتال ، وتسلط عليه هاتف يهتف

فى أذنه : إن نهاية الصراع المقبل حياة ممـــدودة البقاء موفورة الهنـاء ، أو اندحار لا راحـة وراءه...لا بل لا حياة بعده .

واستحالت قضية الـكرامة والمطالبة بالحرص على قداستها ، إلى قضيه دفاع عن حق البقاء واستماته لتقرير المصير . . وإذا كان فى الأمم من لا يحسون بضرورة الحرص على الـكرامة ، والتمتع بالاســتقلال وغسل الأهانة ورد العدوان والعيش فى ظلال الحرية ، فليس طبعياً أن يوجد فى أهل الأرض قاطبة فرد واحـد يتهاون فى بقائه ، ويستهين بمصيره ، ويتساوى عنده وجوده و فناؤه .

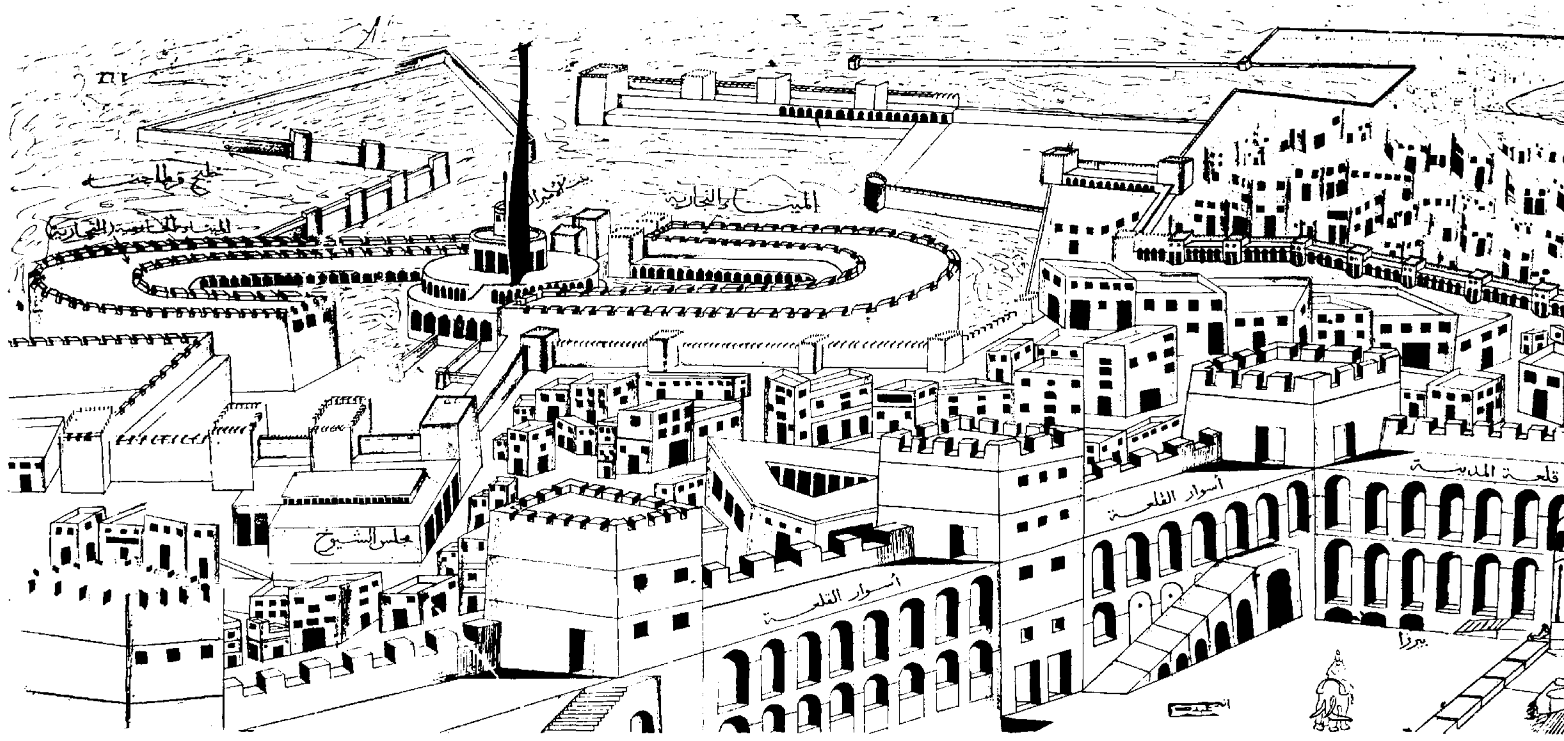
وبهذا استحال الشعب كله كتلة واحدة قوية البنيان رصينه اللبنات متماسكة الأجزاء، وامتزج أفراده شعوراً وفكراً وقاموا على بكرة أبيهم يتولون الدفاع ، ويستميتون فى مقاومة الأعداء .

وكان لقرطاجنه سور يبلغ محيطه ثمانية عشر ميلا وارتفاعه ستة وأربعين قدما وسمكه أربعة وثلاثين قدما . أما بروجها فكانت ترتفع فى الجو أربع طبقات . وكان

يكفى لحماية المدينة من ناحية البحر سور واحد ، لأنها تربض على شبه جزيرة كما أسلفنا القول . ومن الشمال والجنوب كانت تقوم على حماية المدينة ثلاث حوائط تتفاوت ضخامة وعلوا، وكان أقربها إلى المدينة أقلها قوة وضخامة .

أما موانى المدينة فقد أقيمت بحيث يسهل الاتصال بينها ويتيسر مرور السفن من واحدة لأخرى . وأعدت الميناء الخارجية للسفن التجارية ، وكان مدخلها من ناحية البحر مغلقا بسلاسل من حديد ، أما الميناء الداخلية فقد أعدت للسفن الحربية ، وكانت تقوم فيها جزيرة ، حولها وحول الميناء مكان فسيح يصلح لحفظ عشرين ومائتى سفينة، ويقوم على الجزيرة بيت أمير البحر وهو عال يمكنه من الاشراف على ما يدور حول المدينة عن بُعد . وبين الميناءين الخارجية والداخلية : التجارية والحربية سور مرتفع يسهل النظر من خارجه إلى ما وراءه. وللميناء التجارية مدخل من ناحية المدينة .وكانت القوات تتولى حراسة الميناء الحربية وتقوم على حمايتها .

(الخريطة فى الوجه المقابل)



قرطاجنــــه فى شتى مبانيها

ولما كانت المدينة تربض على شبه جزيرة فقد جنح مانليوس إلى حصارها برا ، ومال سنسورينوس إلى الهجوم على سياجها بحرا ، فتخير أضعف جوانبه وأسرعها إلى الانهيار ، وخاض إليه مستنقعا ضحلا ، وشرع فى اقتحامه وبذل الجهد الجهيد أملا فى انهياره . ولكن أهل المدينة صمدوا له واستماتوا فى الدفاع حتى كبدوا المحاصرين خسائر فادحة ، وأنزلوا الشر بالمهاجمين برا وبحرا ، وأبدا هسدروبال وضباطه من المهارة والحذق والنشاط ما انخلع له العدو واضطرب . وكان أظهرهم حماساً وأبرزهم إقداما وأشدهم بأسا : فامياس Himilco Phameas فاستجمع «سنسورينوس» قواه واستكمل عدته وهيأ لهدم السياج منجنيقين تولى أحدهما ستة آلاف مقاتل ، وقام بالثانى جمع غفير من البحارة ، وتيسر لهم بهذا الهجوم أن يبعثوا العطب فى جانب من السور ويحملوا عليه فاذا هو طلل مهدم . . ! وانبثق الأمل العريض فى الأفق أمام الرومان. وأحسوا بأن العدو لن يقوى على صراعهم بعد هذا النصر ... وأقبل عليهم الليل ونشر جناحه والطرب يستخفهم والأمل يغذى نفوسهم ، ثم أصبح الصباح فاذا الجانب المهدم مقام

كما كان . . ! ! وذهل الرومان لخفة العدو ونشاطه وسرعته ثم حملوا على المبنى الجديد ولاقوا من رصانة الدفاع المزبد فوق ما كانوا يتصورون . وهاجم الرومان فجوة فى السور لم تتناولها يد الترميم، وحصروا فيها جهودهم، ووقفوا عليها رجاءهم . ولكن أهل المدينة وضعوا فى الفجوة رءوسهم وحملوا إليها حياتهم . وتكاتفوا ثم دفعوا منها جهودهم، فردوا المهاجمين بعد أن دفعوا ثمن الحصار . . . وكان باهظا . . . وتقلص ظل الأمل فى رءوس الرومان، وأحس قائدهم «سنسورينوس» بأن ملاحيه قد قاسوا من قيظ الحر وضغط الصيف فوق ما تحتمل طاقتهم، فبارح المستنقع ونقل إلى البحر الواسع سفنه . وحرص الشعب الباسل على استغلال الفرص فما قامت الرياح وهيأت نفسها لخدمته حتى سخرها وأرسل على جناحها فيض شره وأجيج غضبه، وأطلق فيها سفنه لتنزل بالرومان عذابه . . وبدأ الأمل المتفتح يذبل، والعزم المتيقظ يهمد، والطموح الوثاب يضمحل . . وأعوزتهم النجدة فالتمسوها عند حليفهم القديم «ماسينيسا» وكانت علاقته بهم قد داخلها الفتور ودب إليها الجفاء، لأنهم أهملوا شأنه حين جنحت بهم الرغبة

إلى تدمير قرطاجنـه . وتمادوا فى إهماله حين مضـوا وحـدهم إلى تحقيق هـــذه الرغبــة ، فلما امتنعت عليهم المـدينــــة ونفــدت قوتهم على غير طائل، أرسلوا إليه فى طلب العون ، فوعد بتلبية رجائهم « بعد ، أن تقدموا به . . ! » وكانوا أكبر من أن يحتملوا هـذه الأهانة ، ويقبلوا المدد بعدهذا الجواب الجارح . ثم مات هذا الحليف فى التسعين من عمره . فتىّ النفس موفور النشاط . وانشغل سيبيو الذى التقت عنده ثقة هذاالرجل بتقسيم مملكةالملك وثروته بين أبنائه الثلاثة (الصورة ٢٣٣) وسرعان ما ائتلف أحدهم « جلوسا » Gulussa وانتظم فى صفوف روما وجدّ فى تحقيق مطمحها ، وأظهر نشــاطاً محموداً فى قتال « فامياس » ، ولـكن سيبيو استمال هذااليه وأغراه وحبب إليه الخيانة فاستخفته الوعود وحولت اتجاهه فاذا هو من سواعد الرومان المفتولة ، وأشـدها انتصارا لسياستهم وحماسا لتنفيذ خططهم . . !

ولم يتغير موقف الرومان بهذه الخيانة ، فاستبدلوا قنصليهم وتولى القيادة: بيزو Piso ومانسينوس Mancinus ولـكن كفة الشعب المستميت المتفانى ما زالت راجحة ،

وصيحة الدعوة لهدمه تعلو على غير جدوى ، ونشاطه يتناسب فى ازدياده تناسبا طرديا مع إخفاق الرومان واضمحلال جهودهم . . وقد امتنع هذا الشعب المحصور فى دياره على الرومان الذين يتسلطون على أوسع امبراطورية شهدها التاريخ القديم كله ، وقد لبث يهتف بالنجدة فلا يظفر بها ويلتمس العون فلا يعرف السبيل إليه . لأنه ضعيف ، والضعيف لا تتعاون معه الشعوب رحمة به أو إشفاقا عليه ، وإنما تتجنب الاقتراب منه وتتقى الاتصال به ، وقد تنفى عطفها عليه إن كان بينها وبينه صلات رحم أو وشائج مودة ، وإذا خطر لها التضامن معه والانتصار لقضيته كان ذلك حرصا على مصلحتها أو خوفا على كيانها . . . لا . . بل إن أعداء روما الذين كانوا يرجون لقرطاجنه النصر ، أو يخافون على مصيرهم بعد سقوطها لم يجرأ واحد منهم على الائتلاف معها يوم هب الرومان لحصارها ، وأطلقوا نذير الموت فى أهلها ـ ذلك لأنهم كانوا مطمئنين إلى ضعفها وخورها ، موقنين بسوء مصيرها ، ورغم أنها صمدت للدفاع وجازت الامتحان وأثبتت قدرتها على الكفاح فان القوم ما زالوا فى حيرة من أمرها



« ماسينيسا » ملك النوميديين
مسجى على فراشه وهو على أهبة
الموت : وقد جلس على كثب منه
صديقه « سيبيو » الذى عهد اليه
الملك بتقسيم مملكته بين أبنائه الثلاثة..

يخشون التضامن معها والانتصار لقضيتها . فأرسلت رسلها إلى ابنى ماسينيسا اللذين التزما العزلة بعد ممات أبيهما ، وكانا يُظهران للرومان المودة فى حيادهما ، والاستعداد لنصرتهم. وأقبلت رسلها على المغاربة المستقلين تنذرهم بالشر الذى يُنتظر أن يحيق بهم على أيدى الرومان إن سقطت قرطاجنه وخلا الجو لطغيانهم. واتصلت كذلك بالمقدونيين الذين كانوا فى حرب مع روما . فكان نصيب هذه المساعى كلها إعراضاً لا حدّ له.

وساءت العلاقات بين هسدروبال وقائد يحمل اسمه ويتولى الدفاع داخل الأسوار ، فاتهمه بالخيانة وأيد التهمة اتصاله بالخائن « جلوساً » فذهل الرجل لهذا الاتهام حتى وهن نشاطه واضمحل حماسه وضعف إقباله على القتال وخف حرصه على الدفاع . فاستدعاه مجلس الشيوخ ورجمه الأعضاء فى قاعته بالمقاعد حتى لفظ نفسه الأخير . . !

أما فى روما فقد كان الأهلون يتوقعون لقرطاجنه انهياراً سريعاً وتحطيما عاجلا.فلما صمدت للدفاع وأقامت على احتماله وأذاقت محاصريها الويل المرّ . وكبدتهم

الخسائر الفادحة ، أدرك روما الضيق والجزع . فاتجهت أنظار الناس فيها إلى الرجل الذى توج بالنصر الحاسم ماضيه ، ووضع حداً لحروب هانيبال الجبار .. إلى « سيبيو » الذى انعقدت عليه الآمال فى تدمير قرطاجنه ومواراة أهلها التراب .

فمضى سيبيو ليرشح نفسه لمنصب يتولى فيه الأشراف على التجارة والمالية والشوارع والمبانى والألعاب فى مكتب البلدية Office of Aedile وهو يتوقع لمقدمه نتائجه ، فالتف حوله الشعب وأحاطه بثقته وهتف له ونادى به قنصلا على روما ، يتولى أمرها ويقود جيشها ويأخذ مكان أحد القنصلين وكان عقد خدمته لا يزال ممتد الأجل ، فأعلن القنصل احتجاجه على امتهان كرامته وحيدة الأمة عن احترام القانون والحرص على حرمته . . وكان مما يقوى موقفه فى احتجاجه صغر سيبيو الذى لم يتخط السابعة والثلاثين من عمره ، والقانون لا يجيز انتخابه . ولكن الشعب قد ألح فى مطلبه ولج فى دعوته واشتط فى ثورته ، وكان الانتخاب حقاً من حقوقه يمنحه من يشاء ويمنعه عمن يريد . وتضامن الحكام معه فهددوا القنصل المحتج بايقافه إذا

أصر على منصبه ولم يخل الطريق لرجل الساعة . .فأذعن القنصل وتخلى عن مركزه كارهاً . .

واستهل « سيبيو » حياته الجديدة بأنقاذ مانسينوس من خطر تردى فيه . ثم قاد فيلقاً ومضى به إلى ناحية يعلوها الوهن فى سور قرطاجنه . وحمل عليها حتى تيسر له أن يتسلل منها إلى داخل المدينة . ولكن الشعب قد أقبل يترى للقائه ، وتكدست جموعه فى وجهه وصمدت لمقاومته ، وتفانت فى الدفاع حتى امتنع عليه التقدم ، وخشى على نفسه التقهقر ، فأرسل فى طلب زميله « بيزو » ليمده بالعون ويشد أزره ، ولكنه لبث فى مكانه لا يريم حتى بلغ سيبيو وهو فى «يوتيكا» رسالة من «مانسينيوس» يطلب نجدته ، فخف إليه وأمنه من خوف وقواه بعد ضعف . . ولكن اليأس قد عاد فاكتنف القنصلين وخيم الضيق عليهما ، فارتدا إلى روما حسيرى القلب مهيضى الجناح مطأطئى الرأس ، وأدرك سيبيو علة الهزيمة التى حطت عليه ولبثت فى صحبته على كره منه ، فتبين وجوه الفساد الذى لحق بالأمة فى عصر التراخى والأهمال الذى تولاه أسلافه . فأقام نفسه للعمل على إصلاحه وبعث

النظام فى صفوف جيشه ، وتطهيره من الكسالى والنفعيين الذين لا يدخلون المعمعة إلا أملاً فى الغنيمة ، ورغبة فى السلب وانتظاراً للنهب .

واطمأن بعد هذا الأصلاح إلى جيشه ، وداخلته الثقة بنفسه ، ومضى إلى المدينة يعالج حصارها ويقتحم أسوارها ، واعتزم أن يهاجمها من ناحية حى « مجارا » الذى تقيم فيه الطبقة الثرية المترفة ، لعله يقوى على تدمير العز الوارف بعد أن امتنعت عليه أحياء العامة وطغام المواطنين ، ولكن السور كان من الرصانة بحيث صد حملته ، وخيب أمله ورد رجاءه . . وكان يشرف على التحصين برج لبعض المساكن أقيم على غير حكمة فاحتله العدو وتسلل البعض منه إلى السور وانطلق إلى حى « مجارا » (الصورة ص ٢٣٩) وطار إلى إحدى البوابات وعالجها فانفتحت وهرول إليها سيبيو على رأس قوة من أربعة آلاف مقاتل حتى استقر بالمدينة . وثبتت على أرضها قدمه ، وخفق قلبه بغبطة يمازجها القلق ، فقد كان الحى لا يصلح للحركات الحربية لما انتشر فى أرضه من شجر وضرب فى آفاقه من مجارى الماء . ولكن

الجيش الذى كان يحمى ذمار المدينة خارج أسوارها قد انخلع قلبه لهذا الأمر ، وداخله الوهم بأن الوطن قد طار من يده ، وأن العدو قد ملك أمره وأصاب رجاءه ، فهجر معسكره وتقهقر إلى «بيرزا» Byrsa أو أعلى المدينة Upper City فاستاء هسدروبال وملأ الغيظ شعاب نفسه ، وطار إلى الأسرى الذين استقروا فى السجون وأعد لهم مذبحة من أفظع ما روى التاريخ من مذابح ، وحملهم إلى قمة السور واستحل دمهم فتولاهم بعذابه وصب عليهم انتقامه المزيد وغيظه المستعر حتى إذا أحس التعب فى تعذيبهم ألقى بهم أحياء من أعلا السور ، فهووا إلى الأرض واستقروا على سطحها بعد أن شجت الرءوس وتحطمت الأجسام وسالت الدماء وزهقت الأرواح وانقطع الأنين . . .
أما أهل المدينه فقد زايلهم بعد هذا أملهم فى عطف العدو عليهم أو إشفاقه بهم ، ولبث حبهم للحياة يطوف برءوسهم ويستثير الدفين من حماسهم ، ويمدهم بألوان العجب فى نضالهم .

فاما « سيبيو » فقد انطلق إلى المعسكر الذى هجره أهله حين فجأهم الروع وأشعل النار فيه ، وتهيأ له بذلك



ولبث الرومان يعالجون السور
حتى انحطم أحد جوانبه فتسللوا
منه الى داخل المدينه . . .

أن يستولى على عنق شبه الجزيرة التى تربض المدينة على أرضها ، فيمنع عنها المدد ويحرمها الغذاء الذى يفد عليها من ناحية البر . فأما ما تصيبه عن طريق البحر فالرجاء فيه ضعيف ، وأمره أهون من أن يقلق البال ويبلبل الخاطر

ثم هيأ « سيبيو » نفسه لضرب الميناء ، فبنى سوراً ضخماً عبر الفم . فتوهم الشعب أول الأمر إخفاقه حين بدت له ضخامة السور وعظم مبناه ، ولكن الجيش كان منشغلا به منصرفا إلى إتمامه ، مواصلا ليله بنهاره فى العمل على إنجازه فانتصبت قامة السور فى غير توان أو تباطؤ — مما روّع الأمة وأقلق بالها ، بيد أنه لم يزعزع رجاءها فى المستقبل ، ولم يضعف أملها فى النصر ، بل شد أزرها واستثار حماسها ، وأجج نارها وأطلق لرسم الخطط فكرها وللعمل يدها وللبذل جهدها وللمقاومة حماسها حتى إذا كان الرومان جادين فى حصارها مطمئنين إلى انكماشهما بعد أن أدموا بالطعنات قلبها ، وأحرقوا أسطولها وذروه رماداً على مرأى من أهلها ، إذ بأسطول جديد يأتلف من خمسين بارجة يطلع عليهم وقد ركب الماء فى قناة تمتد من الميناء إلى البحر لم تكن موجودة من قبل . . : ! متى

حفرت القناة . . ؟! متى أقيم هذا الأسطول . . ؟! حقيقة إن صوت المطارق كان يدوى فى آذان الرومان من غير انقطاع ، ولكنهم أهملوا التفكير فيه ولم يقلقوا عندما صافح أسماعهم ، لأن وجود أسطول فى يد الشعب لا ينفعه ولا يوسع له فى رحاب الأمل مادام البحر فى حوزة الرومان . . !

ثم قام القرطاجنيون فى سفنهم بحركات عسكرية وهم فى بهجة بالغة وغبطة مفرطة ، وعادوا أدراجهم مقتنعين باقلاق العدو وتشتيت الاطمئنان من رأسه ، ولو هاجموه وسارعوا إلى الاشتباك معه لربما كان من المحتمل أن يفقأوا عينه ويشجوا رأسه ويصيبوا بالعطب بعض مناحى جسمه - ولو إلى حين - فان أسطوله كان يكاد أن يكون مهملا لا ترعاه عين ولا يلحظه حارس . ولكنهم أساءوا استقبال هذه الفرصة التى عرضت لهم وفوّتوها فمرت بهم وكأنها آلت على نفسها ألا تعود اليهم . . !

ثم تأهب الرومان لهذا الخطر الداهم ، ونازلوا العدو بعد يومين وصارعوا بأسطولهم أسطوله، ولكن الحرب كانت بينهما سجالا . . فعادوا اليها فى اليوم الثانى ، واتجه

الرومان إلى الأسوار من ناحية البحر وأعدوا لها مناجيقهم، أملا فى أن تندك أمامها وتخر طللا دارساً . وأمطروها بوابل من ضرباتهم فهدمت جناحاً كبيراً منها . . بيد أن القرطاجنيين قد اندفعوا إلى المستنقع عراياً يحملون المشاعل المطفأة ، وخاض البعض حيث تيسر له الخوض وسبح الغير حيث علا الماء فوق قامتهم حتى إذا بلغوا الأرض أوقدوا مشاعلهم وهاجموا مبانى الحصار ، وأشعلوا النار فيها واستماتوا فى الدفاع عزّلا من كل سلاح إلا مما يعمر قلوبهم من إيمان بالحياة، واحتملوا البأساء راضين ، وكلما رأوا الموت يطيح برءوسهم ، ويعدو بين صفوفهم كبر حبهم للدنيا فتفانوا فى القتال وقويت آمالهم ، وتيقظ حماسهم حتى استظلوا براية النصر وردوا العدو خاسئاً وهو حسير . .

فأما سيبيو فقد أمر بذبح الفارّين من جحيم الموت وهو فى شدة الروع وهول الجزع . . ! وأخذه العجب لهذه الأمة التى كانت إلى الأمس القريب تخضع للذل وتستجيب للهوان عن رضا وطواعية . وحقّ له أن يعجب فى إسراف، فان هذا الشعب نفسه هو الذى سلم بالأمس القريب سلاحه ، وأرسل رسله إلى العدو تطلب الرحمة

وتلتمس الغفران .وتعلن استعداد الشعب لقبول ما يفرضه العدو من مطالب بالغاً ما بلغ الهوان بها . . !! وها هو ذا اليوم يقاتل أعزل من كل سلاح ولكنه موفور القوة مملوء بالتضحية لا يتوانى فى الدفاع ولا يتئد فى قتال الأعداء . . فيصمد لهم على قلة عدده وحاجته إلى السلاح ، ووفرة قوتهم وعظمة سلطانهم . . فما سر هذا إذن . . ؟ ؟

أمة تفنى
وتتوارى من التاريخ

منع الزاد عن قرطاجنه — الشعب يعتلى البيوت ويواصل القتال — الاستيلاء على المدينة بيتاً بيتاً — إحراق المدينة — يلتمس بعضهم الغفران — ٥٠٠٠ يتحصنون فى المعبد — يقومون باحراقه وهم فيه خلاصاً من الذل — « هسدروبال » جاث على ركبتيه يستغفر القائد الظافر — زوجته تصب عليه لعناتها وتقتل طفليها وتنتحر نجاة من ذل الرومان . . . مصير قرطاجنه . . .

فلما أقبل الشتاء اتجه بجنده إلى الأقليم الذى تستمد منه قرطاجنه الزاد وما تحتاج ، وبسط عليه طيلسانه ، ونشر فى جنباته سلطانه ، وقطع عن البلد الزاد ، وسلط عليه الجوع ، وأطلقه يتمشى فى شوارعه وينبث فى بيوته ، ويمتد إلى بطون أهله فى أمس الأوقات حاجة لاطمئنان البطن . .

ثم مال « سيبيو » بعد هذا إلى أعلى المدينة ليغزوها. ومضى إلى ميناء السفن الحربية ، وبدأ بالثانية وكانت مقاومة الأمة قد أدركها العطب وأصاب الانحلال جهودها ، فاخترقها ومضى منها إلى السوق المجاورة حتى إذا بلغ معبد « أپولو » بما توفر له من كنوز ثمينة أطلق فيه الجنود أيديهم بالنهب والسلب حتى قيل إنهم انتزعوا من التمثال والمعبد نحو ألف وزنة من الذهب ، ثم تقدم عن طريق السوق الذى أسلفنا الاشارة إليها فاذا ثلاثة شوارع تواجهه وينتهى به كل منها إلى أعلى المدينة.

وكانت البيوت فى هذه الطرق الثلاث ترتفع فى الجو ست طبقات . فاحتلها الشعب ثم أطلق منها ضرباته ووالى الدفاع فى غير انقطاع ، ولكن المقاومة حين تفرقت فى البيوت وتوزعت من غير قائد يتولاها ، ويشرف على تنظيمها ويحكم خططها ويرسم سبلها ، قد هان خطبها وتيسر للعدو لقاؤها واحتمال بأسها ، وتراءى له أن يستولى على المدينة بيتاً بيتاً . . ! وأصبح القتال بين جموع تبلغ الآلاف عداً ، وبعض الأسر التى لاذت ببيوتها وهاجت فى غرفها

على غير انتظام . فتقدمت الجند شاكية السلاح موفورة الحماس يعمر قلبها فخار النصر ، واستولت على الشوارع الثلاثة بيتاً بيتاً . . !

ولكن القتال لبث قائماً يتأجج ناراً فى شتى الطرق الأخرى فى المدينة ، والناس يخرون على الأرض صرعى ، وتهوى جثثهم مثخنة بالجروح ملطخة بالدماء حتى رفرف علم الرومان على جنبات أعلى المدينة . ولكن الراية لم تخفق حتى كانت النار تهرول فى المدينة وتعدو فى شوارعها ، وتجرى فى بيوتها بأمر القائد الظافر . . ! اندلع الحريق فى البيوت وكان قد لاذ بها النساء والأطفال والعجزة والمرضى ممن لا يقوون على حمل السلاح ومواجهة العدو ، واستقر هؤلاء جميعاً فى دورهم حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا . ! وها هى الآن تحترق ويستحيل من بها وما فيها رمادا . ! وسابق الهلعُ النارَ فى عدوِها ووثبها ، فألقى البعض بنفسه من النوافذ فلما هوى إلى الأرض تلقته سيوف العدو وغابت فى جسمه المحطم . ! ولبث البعض فى مكانه حتى أقبل عليه الدخان فخنقه ، وسارع

إليه اللهب لحرقه ، وأحاله قطعة من فحم هش غذت جوع النار وأطالت بقاءها ومدت حياتها . ! وتهدمت البيوت على البعض فدفنت جثثهم واستلت أنفاسهم ، وتركت البعض يعانى ثقل الأطلال التى هوت عليه ، وحطمت بعض أعضائه ، وخلفته لا يملك الأنين ولا يقوى على التأوه . . !

سبعة عشر يوماً بلياليها تولت النيران فيها الأجهاز على الأطفال والمرضى والشيوخ والعجزة وربات الخدور ممن ضلت سيوف الرومان سبيلها إليهم . . ! وقام اللهب بتدمير المدينة وهدم دورها ، وتهيئتها للبوم ينعق على أطلالها ، وللخراب يستقر على أرضها . . !

أما « سيبيو » فقد كان يواصل العمل من غير انقطاع ، فيختلس اللحظات القصار ليستريح فيها ، وكان النوم لا يقبل عليه حتى يفارقه رغم حاجته الماسَّة إليه . . والفرص التى ضنت عليه بالنوم قد بخلت عليه بلحظة يأخذ فيها حاجته للزاد . .!

وفى اليوم الثامن عشر أقبلت عليه الوفود تترى

من معبد Aesculapius إله فن الطب تستغفره وتلتمس عنده العفو عمن بقى من أهل المدينة، وتتوسل إليه أن يرحمهم فيؤمنهم من خوف ويشبعهم من جوع. كانوا يدافعون هذا الدفاع المجيد حرصاً على الحياة العزيزة، والآن أيقنوا أن الاستمرار فى الدفاع لن ينقذهم من الهلاك الزاحف عليهم من غير توان ولا اتئاد، فلا بأس من إيقاف الدفاع والمسارعة إلى التسليم واستجداء الرحمة من القوى الظافر، فان أدت هذه الطريقة إلى البقاء فهذا أعز ما يشتهون وإن أخفقت عند من بيده الأمر فلن يصيبهم أكثر مما كان ينتظرهم لو أقاموا على الدفاع وصمدوا فى كفاح العدو حتى الممات . . ولكن القائد الظافر قد قبل ضراعتهم .ونشر عليهم جناح رحمته وكانوا خمسة آلاف امرأة ورجل، بيد أنه قد ضن بعفوه على الهاربين والفارين، واعتزم أن تصلاهم ناره ويأخذهم عذابه. فلاذوا بالمعبد وتواروا فيه وكان بينهم تسعمائة رومانى و «هسدروبال» وزوجته وطفلاهما، فما استقر بهم المكان حتى ضعف رجاؤهم واضمحل أملهم ودنت ساعتهم، وباتوا ينتظرون نفخة الصور

وبداية الحساب العسير — وإن كان المعبد منيعاً يقوَى على حمايتهم من ضربات العدو فلن يقوى على حمايتهم من أهوال الجوع .. ! فملأ القلق الرءوس ، وساور اليأس النفوس وامتد الحرص على الحياة إلى هسدروبال — قائد قرطاجنه الأكبر — فحاول الهرب من رفاقه ، وألقى بنفسه فاذا هو جاثٍ على ركبتيه يلتمس العفو عند قدمى « سيبيو »!

وقبل القائد الظافر ضراعته ، وسار به يعرضه على أنظار الفارّين الذين تكدست جموعهم وتزاحمت أفواجهم فوق سطح المعبد .. فصبوا على الخائن لعناتهم وحصبوه بسخطهم . ووثب إلى نفوسهم عزم مبعثه اليأس ومصدره انقطاع الرجاء ، فأوقدوا فى المعبد ناراً ، وآثروها على الضراعة للقائد الظافر . وقبول الذلة والهوان حرصاً على الحياة . . . وبدا المعبد وكأنه سرادق من نار ، فتقدمت زوجة «هسدروبال» وقدارتدت أفخر ما لديها من ثياب ، وتحلت بأجمل ما تملك من أدوات الزينة ووضعت طفليها إلى جانبها والتفتت إلى « سيبيو » وقالت له فى مرارة اليأس وسورة الغضب وجنون الجزع :

أما أنت يابطل روما ونخر رجالها فلا أطلب إلى السماء أن تنزل نقمتها بك ، لأنك لم تفعل إلا ما اقتضته نواميس الحرب وسنن النزاع إذا اشتد واستعر ، أما هذا الهسدروبال، هذا الخائن لوطنه وآلهته وزوجه وولده، فانى أضرع إلى السماء ، أو إليك باعتبارك رسولا لها أن تنزل به شر عذاب وأصرم عقاب . ! !

ثم التفتت إلى زوجها وهى تصر أسنانها وقالت له والغيظ يطل من عينيها :

أيها الدنىء الخائن الجبان ، أأستقبل أنا مع طفلىَّ الموت بين ثنايا اللهب ، وتتخذ النار الحامية مقبرة لنا ، وأنت — قائد قرطاجنة العظيم — تتوج انتصار العدو بخيانتك ، وتكلل ظفره بهوانك ومذلتك ، !

ثم غيبت الخنجر فى جسم كل من طفليها وقذفت بجثتيهما إلى اللهب المندلع . . ! وفعلت بنفسها ما فعلته بهما . . وراحوا طعاماً للنار . . (الصورة ص ٢٥١)

***

وبهذا سقطت الامبراطورية الأفريقية بعد سبعة قرون حافلة بالمجد عامرة بالروعة والجلال — فما صافحت عين



« هسدروبال » جاث على ركبتيه يلتمس الغفران من « سيبيو » وزوجته على سطح المعبد مع طائفة من الشعب الذى آثر الانتحار على ذل الرومان وهى تصب على زوجها اللعنات . ثم تطعن بالخنجر طفليها وتلقى بهما الى النار . وتفعل مافعلته بولديها . . ! !

القائد المنتصر منظر اللهب ، وشهد الأطلال التى خلفها ، والنفوس التى أزهقها ، والأجسام التى أتى عليها ، والمتاع الذى طاح به ، والماضى الذى حاول وأده ، والعز الذى عالج دفنه حتى دبت الحسرة إلى نفسه ، وغالب الدمع عينه ، فجرى على خده وقد ذكر القدر الذى يبرم فى الممالك أمره ، ويجرى على الدول حكمه ، فيعز امبراطورية ويذل أخرى ، وهاله الأمر واشتد به الجزع حين طافت روما برأسه وتوقع لشمسها المغيب ، وإن طال شروقها ، وامتد إلى الأفق البعيد نورها . فراح يناجى نفسه بما أجراه « هومير » Homer على لسان هكتور Hector حين تنبأ لطروادة بالزوال .

ثم عاد « سيبيو » بعد هذه المأساة العنيفة إلى وطنه ، وهب الشعب كله لاستقباله والاحتفاء به ، وأقام له موكباً رائعاً تقدمته الموسيقى وسارت فى ركبه عجلات تحمل الأسلاب والغنائم ، وطائفة من أهل قرطاجنه الذين منعهم الحرص على الحياة من إيثار النار على ذل الرومان ، يسيرون فى الموكب وقد نكسوا رءوسهم حياء وندما ، ويلى هؤلاء البطل الظافر يصطحب عبداً يهمس



« سيبيو » بعد
أن وارى قرطاجنه
وأهلها التراب . .

فى أذنه طوال الطريق : « تذكر أنك لست إلا رجلا .. ! » وذلك حتى لا يداخله الغرور .. ! ووراءه أعضاء المجلس ورجال الجيش الظافر يسيرون مزهوين فخورين . . . (الصورة ص ٢٥٣)

* * *

توارت قرطاجنه من الدنيا . ونعقت غربان الدمار فوق أرضها ، تعلن خرابها وتنذر بالشر كل من فكر فى أمرها . وتقدم « جراكوس الصغير » The Younger Gracchus بعد مضى عشرين عاماً باقتراح يرمى إلى إعادة بنائها لتكون موطناً لستة آلاف نسمة . فتحرك فى القبر اسمها ، وطافت بالأرض ذكراها . تبعث الجزع وتنشر القلق حتى مات الاقتراح وهو وليد . . فجدد يوليوس قيصر هذا المطلب بعد نحو ثمانين عاماً ، ولكن رهبة الذكرى ردته حلماً يطوف بالخواطر فى غفلة من العقل المدبر . . ! وسبحان من له الدوام . . !

تحليل هذا الكفاح

رده إلى علله

تحليل هذا الكفاح

رده إلى علله

سيرة النهوض حافلة بأمم شاخت بعد شباب فتيٍّ تهيأ لها، زاخرة بدول عاودها الصبا بعد شيخوخة مضنية واحتضار قريب!. فكيف أدرك الشباب شعوباً كان يُعوزها ماء الحياة..؟ وكيف لحقت الشيخوخة دولاً كانت تهتز من فرط القوة ووفرة الصبا..؟ كيف استحالت قرطاجنه الرهيبة إلى ذكرى يحكيها التاريخ. وقد كانت ملء الأسماع والخواطر والأبصار..؟!

لقد كان حظها في الجهل رحب الأفق، ونصيبها في البداوة ملموس الجانب. فهل كان هذا مبعث اندحارها ومصدر عجزها عن صون كيانها..؟

إن تاريخ الأنسانية يقول إن اضمحلال الأمم لا يتناسب تناسباً طردياً مع الجهل والبداوة ، عكسياً مع العلم والحضارة .. وهاك روما أوسع إمبراطورية عرفتها الدنيا بأسرها فى العصور القديمة ، يقول عنها علماء الاجتماع : قد تهيأ لها إبان شيخوختها من بسطة فى العلم ووفرة فى المدنية وعلو فى مستوى المعيشة ، ما لم يتهيأ لها فى فتوة شبابها ومقتبل حياتها . فقد كان فيها يوم اضمحل عزها ومالت للمغيب شمسها : مئات الكتاب المجيدين والخطباء المفوّهين والمتفننين المهرة وغيرهم ممن لم يتوفروا لها يوم كانت تنشر طيلسانها فى مشارق الأرض ومغاربها، وتكتب الحياة أو توجب الفناء على ما شاءت من أمم الأرض وشعوبها . . ! ولم تستطع بهذا الغنى العقلى الذى تهيأ لها أن تدفع عن نفسها غارة البرابرة من قبائل الكلت والجرمان والهون والوندال وغيرهم ممن أصابوا من الجهل أوفر حظ ومن البداوة أعظم نصيب . ! ولم تكن مأساة سقوطها فذة فى التاريخ ، فقد تكررت المأساة — مأساة العلم — فى العصور الوسطى . إذ تمكن العرب من أن يفتحوا جناحاً فسيحاً من الدنيا ويقوّضوا

الدولتين : البوزنطية والفارسية ، ويشيدوا دولة من أضخم الدول التى مرت بالتاريخ ، وهم قبائل من بدو رُحَّل تمكنت البداوة من نفوسهم وتغلغل الجهل فى عقولهم . ! وعن الفرس والرومان ومن عاش فى ظلهم أخذ العرب الغزاة العلمَ والحضارة والمدنية . . ! ثم إن العرب كانوا يوم أفل نجمهم وتوارى عزهم موفورى الحظ من العلم والحضارة ، فلم يمنع هذا سقوطهم كما لم يمنعهم الجهل فى بدء حياتهم من وثبتهم الجريئة يوم دحروا الفرس واكتسحوا الرومان . !

بل إن من سوءات المدنية الخصبة أن تلازمها ـ فى الأغلب والأعم ـ رغبة فى الترف وميل إلى التنعم ، وهذا أظهر آيات الشيخوخة عند الشعوب . !

وإذن فلماذا تدب الشيخوخة إلى الدول الفتية ، أو يعود الشباب إلى الأمم الهرمة . ؟ أهو فرط الغنى عند الظافر والعوز عند المغلوب . . ؟

إن البرابرة الذين أغاروا على الدولة الرومانية فى العصر القديم لم يكونوا أوفر منها حظاً فى الغنى ، بل كانوا جياعاً فقراء ، وكانت على حظ كبير من الترف والنعيم . .

كذلك كان العرب ــ الذين دحروا الفرس والرومان فى العصر الوسيط ــ جياعا لا يملكون قوت يومهم ، وكان المغلوبون على حظ كبير من الثراء ، وحسبك أن تذكر كسرى وقصوره ، وقارون وماله ..!!

وها هو جنوبى إفريقيا غاص بالذهب، ولكن الغربيين يستعمرونه.. وأهل الاقتصاد يقولون إن منطقة «الترنسفال» تنتج فى كل عام ٥٢ ½ فى المائة من ذهب الدنيا بأسرها ، وفى وسعك أن تتصور روعة هذا الإنتاج المهول إذا عرفت أن الولايات المتحدة ــ أعظم دول الأرض المتمدينة إنتاجاً للذهب ــ لا تنتج أكثر من ١٣ فى المائة كل عام . . ! ويقولون إن منطقة كمبرلى أنتجت من الماس نحو خمسة وخمسين ومائتى مليون من الجنيهات فى أقل من نصف قرن . . ! ! بيد أن هذا الرخاء لم يمنع الغرب الجائع من استعمارها، وفرض الذل على أهلها . . بل لماذا نذهب بعيداً وأمامنا قرطاجنه ، كانت بلداً مثرياً يجرى الذهب فى أيدى أهله ، وكانت روما تنقصه ثراء ولكنها تمكنت من أن تواريه التراب . . !

وإذن فما مبعث الاضمحلال وماسر النهوض إن لم تكن وفرة الغنى أو بسطة العلم وازدهار الحضارة . . ؟

هو الخلق — فيما أعلم ويعلم جمهرة علماء الاجتماع — يقول « جوستاف لوبون » « سقط الرومان لأنهم أضاعوا المثابرة والعزيمة والجلد الذى لايعرف الوهن ، وفقدوا القدرة على التفانى فى نصرة المطلب واحترام القوانين إلى حد التقديس ، وتلك هى الصفات التى كانت سبباً فى عظمة آبائهم الأولين »

ويقول مثل هذا فى الدول الفارسية والبوزنطية والعربية وشتى الأمم التى أشرق نجمها وانتشر فى مناحى الأرض سلطانها ، ثم اضمحل مجدها وانكمش ظلها وأدركها الفناء..

ويقول : إذا تتبعنا الدول الساقطة والظافرة واحدة بعد أخرى سلمنا بأن هـذا هو ما يحكيه تاريخ الشعوب منذ فجر بداوتها حتى نهاية حضارتها ، وما يرويه عن انحدارها من شاهق قوتها حتى حضيض ضعفها.

وستعرف الآن أن « لوبون » وشيعته قد أنصفوا حين ردوا نهضات الشعوب وانحلال الأمم إلى « الخلق » وإن اكتفوا بذكر مظاهره دون أن يحاولوا تحديد قاعه

مما أدى إلى الالتباس فى تطبيق القاعدة على قرطاجنه ولا بأس الآن من أن نبدأ بتطبيق هـــذه القاعدة، أكان ضعف ضعف الخلق فى قرطاجنه مصدر اندحارها وسر تلاشيها . . ؟ ؟

سنلخص لك آراء الكتاب الذين يملأهم الأعجاب بها والرضا عنها والثناء على نضالها ، ويرونها المثل الأعلى لكفاح الشعوب التى تؤثر الموت تحت راية الجهاد على العيش فى ظلال الهوان ،حتى إذا فرغنا من تلخيص آرائهم، أخذنا فى نقضها والكشف عن مواطن الضعف فيها . فاليك ما يقوله هؤلاء المعجبون : يقولون إن هذا شعب لا يملك من أدوات القتال كثيرا ولا قليلا . اغتصبت منه سهامه ومزاريقه وقسيه وخناجره وسيوفه وحرابه ودروعه، وأحرق أسطوله على كره منه ، وفرت ممتلكاته الواسعة من يده . . . ضاعت إيطاليا ــ وفرت أسبانيا ــ وأفلتت منه صقلية ــ وتلاشت ممتلكاته فى شمال إفريقيا ــ ولم يبق له إلا أرض وطنه الضيقة يحاصرها عدو ظافر قوى باغ ، يملى إرادته يمنة ويسرة ، ويهتف فاذا القدر فى ركابه ، يلبى نداءه ويستجيب لمطلبه . فكافح هذا الشعب

الضعيف الأعزل كفاح الأبطال حتى فى عن آخره . فأين انحلال الخلق فى موقفه . . ؟ ؟ ماذا كان يضيره — لو كان يرجو الحياة أياً كان لونها — لو قبل مطلب عدوه فشدّ رحاله إلى الصحراء ، وأقام فيها وعاش فى آفاقها .. ! أو ليس شعبا تجاريا أخص مميزاته اجتناب للاستقرار وميل للارتحال ، ورغبة فى التنقل المستمر الذى يتطلبه السوق أينما كان . . ؟ فماذا عليه لو قبِل مشورة عدوه وبارح وطنه ، ولو كان فى هذا جور على شعوره وعدوان على حقوقه . . ؟ !

ثم ما حيلة الضعيف الكسيح الرجاء المنحل الأمل ، أمام القوى الجبار الذى لا يلين ولا يرحم . . ؟

ومع هذا فقد انفجر الشعب كله فاذا هو بركان يستعر ، لم يغذه خطيب ، ولم يقده زعيم ، ولم تكن مقاومته صدى لحماس قائد أو خيال حاكم أو خداع مخاتل . . وإنما كانت ثورته صدى لأحساسه ، ومقاومته تتفجر من ذاته ، وفورة دمه تنبع من قلبه . فكافح وقاتل حتى استشهد وهو شعب تجارى لم يشغل بالحرب نفسه . . فماذا تكون آيات الخلق الرصين إن لم تكن هذه آياته . ؟ !

ثم إن الكفاح بين هذا الشعب الأعزل ، والعدو الذى لا يجد فى الدنيا بأسرها منافساً له إذ ذاك ، قد استمر ثلاث سنوات طوال صمد فيها لأهوال القتال ، واستمات فى الدفاع عن كرامته ، وتفانى فى تحقيق مطلبه ، وصبر على مرارة الكفاح هذا الزمن الطويل ، ولبث يجود بالنفوس عن سعة ، لا يهوله مصرع أبنائه المعدودين بالعشرات والمئات ، ولا يخيفه الموت الزاحف ، ولا يروعه الهلاك المقبل حتى استولى العدو على البيوب بيتاً بيتاً ، وقطع رقاب أبنائه وأطلق النار فى أحيائه وبيوته ، لتأتى على من بقى منه عاجزاً ومريضاً وكهلا وطفلا وامرأة . ! والشعب ما زال موفور الأمل يجاهد عن عزم ويتفانى عن وفاء ويستميت عن إخلاص ويرجو عن سعة . ! فان لم يكن هذا هو الخلق الرصين من مثابرة وعزيمة وجلد لا يعرف الوهن وقدرة على التفانى فى نصرة المطلب ، فماذا يكون الخلق إذن .. ؟ !

لم يقل الشعب : لقد اعتدى العدو على كرامتنا وهو قوى مدجج بالسلاح ، ونحن ضعاف عُزل فماذا نصنع .؟ وإنما كانت صيحته التى تغلغلت فى نفسه ورجّت كيانه :

يطلب إلينا العدو أن نفارق وطننا . فيا لهول المطلب ويالشؤم الجشع . . ارخصى يانفوس وتقدمى يا ضحايا ، واستشهدى ياقرطاجنه . . ولا تسل يا شعب عن مصيرك ولا تستفسر عن مقرك فى هذا الجحيم الذى أوقدته بيدك ، وقذفت فيه بنفسك مرضاة لكرامتك وغسلا لأهانتك . وسر إلى حتفك طائعاً مختاراً ، فللموت الزؤام أهون على النفس الأبية من العيش تحت نير العبودية .

وإن الرءوس لتطيح ، وإن الجثث لتهوى ، وإن الناس ليستشهدون وليس فيهم من يسائل نفسه عن نهاية الشعب المحتومة أمام هذا الجيش القوى اللجب بعدده وأسلحته وذخائره .. ولماذا السؤال . والانتقام للكرامة من غير اعتبار لنصر أو هزيمة هو المطلب الأسمى الذى تتجه إليه النفوس أولا وآخراً . . ! ؟

لا نصر ولا هزيمة ، ولا أمل ولا يأس ولا حياة ولا موت ولا مقدمة ولا نتيجة . . إنما يملأ الخواطر كلها شيء واحد لا ثانى له : هو التفانى فى الدفاع انتقاماً للكرامة ، وليكن بعد ذلك ما يكون . . فاذا لم يكن هذا هو الخلق الرصين فماذا يكون إذن . . ! ؟

ثم إن حركة الجهاد قـــد حملت على جناحها الشعب بأسره ، فلم يتخلف عن الكفاح إلا صغـــار الأطفال وضعاف المرضى والواهنون من الشيوخ . وكانت الأمة كلها فرداً واحد يتفانى ويطلب الموت إذا عز العيش فى ظلال الكرامة ، وامتنعت الحياة فى كنف الحرية . . فلا أغلبية ولا أقلية . ولا حزبية ولا زعامة . . وحتى النساء كان حماسهن لنصرة الوطن أشد من حماس الرجال ، ولم تكن هذه الفورة التى شملت الأمة كلها بنت الساعة أو عفو الخاطر ، ولو كانت كذلك ما امتدت هذه السنوات الطوال فى حماس يزداد وقدة واشتعالا . . حتى السيدات والآنسات اللائى سارعن إلى شعر رءوسهن فقدّمنه أوتاراً للقسِى فى مستهل الحركة ، قد لازمهن الوفاء والحماس حتى استشهدت الأمة وتلاشى الوطن ، وإن كان الجزع قد أدركهن عند ما اغتصب العدو أبناءهن وأزواجهن وإخوتهن ليكونوا رهينة فى يده الأثيمة ، فان ذلك موقف يجلّ عن الصبر ، حتى ليعتبر احتماله اتهاماً للشعور وطعناً فى العاطفة . . فاذا لم يكن هذا الائتلاف الشامل لشتى نواحى الأمة فى هذا الظرف الدقيق هـذا الزمن الطويل

عنوان الرصانة فى أخلاقها فماذا تكون رصانة الأخلاق إذن .. ! ؟

يقول هؤلاء المعجبون بحركة الجهاد :

إن هذه الحجج كلها ناطقة بأن هذا الشعب موفور الحظ من رصانة الخلق فى شدة مثابرته ، وصلابة عزمه ودقة إحساسه وقوة جلده ، وحدة تفانيه فى نصرة المطلب . . . .

وإذن فلماذا دالت دولته وانحلت امبراطوريته إن صحّ هذا الدفاع عن كفاحه . . ؟ هل أخفق العلماء الذين أسلفنا الأشارة إليهم فى وضع قاعدة لانحلال الشعوب . . ؟ أو أن سقوط قرطاجنه وتلاشيها من الوجود ظاهرة يبررها الشذوذ . . ؟ !

لا شذوذ ولا استثناء — فيما نعلم — وإن القاعدة التى أقامها العلماء لتنطبق على قرطاجنه وغيرها على السواء . فلنمضِ إلى حجج الذين أعجبهم جهادها لنهدمها واحدة بعد الأخرى ، حتى إذا أتينا عليها أبنَّا عن سر الاندحار الذى لقيته قرطاجنه . ليعرف القارىء أن « لوبون » وشيعته قد اكتفوا بسرد مظاهر الخلق دون

أن يردوها إلى أصولها ، ويعزوها إلى منابعها ، ويفصلوا بينها وبين ما يشبهها من مظاهر أخرى :

عرفت أن قرطاجنه قد أذنت لعدوها أن يختار من أهلها ، ثلاثمائة فتى من خيرة أشرافها ، وأن سفنه قد حملتهم إلى روما أمام الأهل والصحاب والعشيرة وذوى القربى ليكونوا رهينة فى يد العدو . . ! فكان الأثر الذى خلفته هذه الطعنة الدامية لا يتجاوز الحزن ولا يتعدى التأسى ، ولا يفضى حتى . . . إلى مظاهرة . . !

وعرفت أن « هسدروبال » الذى كان يتولى قيادة قرطاجنه إلى مواطن النصر وساحات الفخار ، قد قبل صاغراً فى معاهدته الأخيرة مع « ماسينيسا Masinissa أن يمر وجيشه من ورائه أمام معسكر الأعداء عارين إلا من ثوب واحد يستر عورتهم . . ! وأن جريمته لم تكن خطأً فردياً أدى إليه انحلال خلقه ، فأن أمته قد وقفت من هذه الطعنة الأليمة موقفاً لا هوان بعده ولا ذلة وراءه ، فقد حكمت — إثر هذا الموقف الذليل — على قائدها ممثلة فى مجلس شيوخها بالأعدام . . ! لا لأنه لطخ شرفها وسوّد تاريخها ، بل إمعاناً فى ترضية روما

وإسرافاً فى الزلفى لأهلها . . ! لعلهم يغفرون لقرطاجنه إقدامها على قتال « ماسينيسا » من غير إذن منها . . !!

وعرفت أن الوفد الذليل الذى حمل هـذا النبأ إلى روما قد استقبل هناك استقبالا حافلا بالسخرية المرة ، وأن الوفود التى أعقبتـه فى استجداء الرحمة وطلب الغفران وإعلان التوبة ورفع الندم والتبرع بالاستعداد لقبول الشروط المجحفة بالغاً ما بلغ الهوان بها ، عرفت أن هذه الوفود المتعاقبة قد أرسلها مجلس الشيوخ القابض على زمام الأمور فى قرطاجنه ، وأنها لقيت فى روما ما تستحقه من سخرية فادحة ، ونالت عند مجلس شيوخها ما هى جديرة به من صغار واحتقار . . . وقد عرفت أن هذا الهوان الذى لا هوان بعده لم يكن له صدى ملموس عند هذا الشعب الذليل . . . ! !

وعرفت أن هانيبال كان أعظم قائد عرفته الدنيا فى عصره ، وأنه دوّخ أشد أمم الأرض بأساً وأكبرها خطراً ، وأنه كوّن لأمته امبراطورية رحبة الآفاق رهيبة الصيت ، فلما دالت أيامه سعت روما إلى طلبه ، وجدّت فى سعيها تلتمس الظفر به لتشفى غليلها منه ، فلم تتحرك

أمته لنجاته ، ولم تفكر فى ردّ روما عن مطلبها الآثم، بل كانت على استعداد لتسليمه إليها ، ومعاونتها فى الانتقام منه . . ! ! وعلمت أن البطل قد أحس بمدى تقديرها له وحرصها عليه ، فانطلق فى فضاء الأرض شريداً طريداً . يلتمس النجاة ويتطلع إلى نجدة الأغراب . . ! ! وأنباؤه تترامى إلى سمع قرطاجنه فلا تحرك فيها صوتاً لنصرته ، ولا لساناً يتولى إثارة الجمهور لحمايته ، حتى أقدم البطل على الانتحار نجاة مما ينتظره من ذل وهوان على يد أعدائه . . ! !

وعرفت أن قرطاجنه كانت أميرة البحر فى عصرها ، تنشر سيادتها على نطاق رحب فسيح ، وأن روما حين طالبتها بتسليم أسطولها البالغ نصف ألف بارجة قد استجابت لها من غير تردُّد ، وتنازلت عنه من غير جهد . وأن روما قد أوثقته بالشاطىء وأحرقته على مرأى من صحابه ، فلم تثُر فى البلد ثائرة الشعب لهذا التحدى الجارح، ولم يرتفع بالتبرم القوى صوت المعارضة بين جدران المجلس ، مع أن حزب المعارضة كان لا يزال صاحب رأى ، وهو وإن سكت عن إحراق الأسطول وتسليم

القِسىِّ والسهام والمزاريق . فقد أعلن استياءه الشديد فى قوة عند ما همَّ المجلس بالنظر فى تقرير الغرامة .. ! !

ففكر بالله فى هذه الفضائح كلها ، واستوحِ العدالة واحكم فيما تحمله من دلالات الخلق وآياته . أين كان الشعور بالكرامة طوال هذا العهد البغيض . . ؟ إن الجيل الذى احتمل هذا الصغار صابرا ، وتبرع باحتقار كرامته مختارا ، هو نفس الجيل الذى تولى الكفاح الأخير ، وصمد له وأبان عن قدرة وجلد وتفان لاحد له ، فهل من دلالات الخلق الرصين أن يبدو فى يوم منحلا واهنا وفى يوم قويا صلدا . . ؟ ! أيخضع الخلق القوى المتماسك للظروف ويتكيف بالمناسبات أم يتخطاها ويعلو عليها ويعيش فوق هاماتها . . ؟ أيؤثر صاحب الخلق القوى العيش تحت سماء الضيم يتنفس الذلة ويغتذى بألوان الهوان على الموت فى ظلال الشرف حتى تحدق الأخطار بحياته ، فتثير حرصه على البقاء ، وتسوقه إلى النضال لتقرير مصيره . . ؟ ! كيف يقال بعد هذا كله إن مردَّ هذا الكفاح إلى الخلق الرصين..؟ !

إن ما أبدته قرطاجنــــه من استهتار بالكرامة ، وامتهان لقداستها ، واستجابة لمطالب عدوها ، لا يبرِّره

شعورها بالهزائم المتلاحقة ، بل إن مَردَّه إلى الضعف المعنوى والخَوَر الروحى . فلا ينبغى أن يقال إن الشعور بالاخفاق المرير يُنسى الأمم كرامتها ويفقدها الأحساس بالاعتزاز والكبرياء، ويلقى بها إلى الرضا بالذلة والاستجابة للهوان ، وأن موقف قرطاجنه حيال هانيبال لا يفترق عن موقف فرنسا مثلا إزاء نابليون يوم نفاه الحلفاء . . . وفرنسا دولة حية تكبر استقلالها وتعتز بكرامتها . .

لا ينبغى أن يقال هذا ، فان فرنسا تخلت عن نصرة نابليون — بعد أن سقطت باريس فى يد الحلفاء — فترة من الزمان عادت بعدها إلى إجلاله والأعجاب بجهوده والدفاع عنه ضد جشع أعدائه . فقد شدت أزره حين عاد إليها من منفاه فى « إلبا » وحاربت فى صفه حتى انهزم فى « واترلو » ثم منعت « هدسون لو » من أن يكتب على قبره : هنا يرقد « الجنرال نابليون » وأصرت على أن يكتب « الامبراطور نابليون »

ولبث النزاع قائماً حول هذا اللفظ خمسة وعشرين عاماً ظل فيها المكتوب على القبر « هنا يرقد » حتى نقلت فرنسا جثة بطلها إلى أرضها بعد ربع قرن من وفاته باحتفال

مهيب رائع ينم عن تقديرها لبطلها ، واعترافها بخدماته ، وفخرها بتاريخه . فاذا كانت غيبوبة الهزائم تُنسى الأمم كرامتها ، فان ذلك أمر لا يطول أمده ولا يمتـــد أجله كثيراً .

ولو كان رجل كنابليون مكان هسدروبال حين طلب إليه أن يمر وجيشه من ورائه على معسكر الأعداء عارين إلا من ثوب واحد ، لرأيت كيف يرتفع الشرف العسكرى على الحيـاة ، وكيف تعـلو الـكرامة على لذاذات الدنيا بأسرها .

بل إن قادة نابليون قد نفضوا يدهم من نصرته وأعلنوه بذلك ، فهمّ بالمضى وحـــده إلى قتال الأعـــداء ليخلص شرفه العسكرى من العـــار لولا أن منعه أحـــد مُريديه وطالبـه بالتنازل عن العرش فى ســبيل فرنسا . أما هذا الجبان « هسدروبال » فان قادته وجنوده الذين لم يستشهدوا بميدان القتال قد لاذوا بمعبد واستأنفوا القتال بعد استيلاء روما على قرطاجنه ، ثم آثروا الموت بين ثنايا النار على إذلال الرومان فأحرقوا المعبـــد ، أما بطلهم هسدروبال فقد انطلق إلى القائد الظافر وجثا

تحت قدميه يلتمس الغفران على نحو ما عرفت من قبل !
فأين هذه الضعة من قداسة الكرامة العزيزة . ؟

سقنا لك هذا المثال لما ينطوى عليه من تباين واضح بين الأمتين . وإن كان « الظاهر » فى موقف كل منهما متشابهاً فى كثير من الوجوه .

***

ورب قائل يقول : عرفنا الآن ما تنطوى عليه قرطاجنه من ضعف معنوى وخور روحى ، ولكن ما سر هذه الرصانة التى مدت فى كفاحها الأخير ، وما مصدر استماتها فى الدفاع على هذا النحو العجيب . ؟ وما سبيل الرد على الحجج التى رويتها عن هؤلاء المعجبين بنضالها . ؟

فى الحق أن بواعث الجهاد الأخير لا يمكن ردها إلى الحرص على الكرامة أو الاعتزاز بالنفس أو غسل الأهانة أو غير هذا مما يؤلف نسيج الخلق الرصين .

وإنما مردُّ هذا الحماس العجيب الذى تبدّى فى نضالها الأخير بما لازمه من صبر وجلد وعزيمة لا تعرف الوهن . . إلى الحرص على البقاء وتقرير المصير . . ! وشتان بين الموقفين ، شتان بين من يثور احتراماً لكرامته .

ومن يثور حرصاً على حياته . الذود عن الكرامة مثل أعلى أوجده العقل ، والحرص على الحياة أمر تسوقنا إليه غريزة المحافظة على البقاء ، والعقل من شأن الأنسان وحده ، أما الغريزة فهى نصيب مشترك بين الأنسان والحيوان ، وما تؤدى إليه من حركة وطلاقة . ونضال وما يشبه ذلك لا فضل للانسان فيه ، لأنه مسوق إليه من غير تفكير ولا وعى . فقرطاجنه قد خفت إلى الدفاع الأخير مسوقة « بحيوانيتها » البحته « وغرائزها » الصرفة ، ولم تكن بواعث نضالها « إنسانية » يوحى بها اعتزاز النفس واحترام الكرامة وتقديس الشرف ، إذ أين كان هذا كله يوم اسرفت فى التنازل عن وجودها المعنوى ، إبقاء على وجودها الحسى . . ! إن سنة البقاء لا تأذن بالحياة لمثل هذا الشعب التعس ، يستطيع الفرد أن يجد فى الدنيا مكاناً يحيا فيه وإن فرّط طول حياته فى وجوده المعنوى مسرفاً فى هذا التفريط ، لأن النضال بين الأفراد أهدأ من النضال بين الشعوب ، ولأن لكل دولة قوانين ترعى الضعيف وتنصف المريض وتكفل الحقوق وتقيم العدل وتهيء للناس سبل العيش كرماء كانوا أو أنذالا ، أما

الشعوب فهى لا تخضع — ولعلها لن تخضع — إلى قوانين دولية تؤدى ما تؤديه القوانين الموضوعة للأفراد فى كل الشعوب . وها هى ذه عصبة الأمم تنطق بالأفلاس كلما شب النزاع بين بلدين ، وما عهد النضال بين الصين واليابان بصدد منشوريا ، ثم بين الحبشة وإيطاليا عنا ببعيد . .

وقرطاجنه قد سلمت فى وجودها المعنوى عن إفراط وإسراف ، فكان طبيعياً أن تنتهى إلى هذا المصير الذى آلت إليه . وإذا كان دفاعها الأخير رصيناً ورائعاً فان مردّ ذلك كما قلنا من قبل إلى « غريزة المحافظة على البقاء » التى يتساوى فيها الأنسان والحيوان فأنت لا تستطيع الهجوم على حيوان — بالغاً ما بلغ الجبن به — وتشعره بالخطر يحدق بحياته دون أن ترى منه حماساً فى الدفاع يبلغ أقصى درجاته ، واستماتة فى الحرص على حياته تصل إلى مواطن الأعجاب من نفسك ، ولكنك رغم ذلك لا تصفه برصانة الخلق بعد ما ترى من حماس بالغ وتفان عجيب .

ولكن المعجبين بهذا الجهاد يقولون : إن غريزة

المحافظة على البقاء لو كانت وحدها مبعث هـذا النضال العجيب لساقت أهل قرطاجنه إلى الرضا بمطلب روما الأخير ، فشدوا رحالهم إلى الصحراء وعاشوا فى فضائه على أى وجه كان. ولـكن هـذا الكلام مردود بأن قرطاجنه كانت تشبه الرجل البخيل الذى لا يفهم الحياة بغير المال ، فهو لا يجد غضاضة على نفسه فى احتمال أقصى درجات الذل ما دامت خزائنه ملأى بالذهب ، ولـكنه يتميز غيظاً ويتحرق أسى ويموت كمداً يوم تنقص كنوزه درهما واحداً ، وهو على استعداد للدفاع عن ماله دفاعاً مجيداً قد يفقد فيه حياته ، ويضحى فيه بوجوده ، فلا يقال إن هذا البخيل أدت به رصانة الأخلاق إلى التفانى فى الدفاع عن ماله ، بل يقال إن غريزة حب التملك قد قويت عنده حتى تغلبت على غريزة المحافظة على البقاء . . ! كذلك كانت قرطاجنه — تولت إمارة البحر وسيادة الدنيا بالتجارة ، ووقفت على جمع الذهب حياتها وجهودها، وقدسكنت قداسة المال قلبها حتى أصبحت لا تفهم الحياة من دونه . ألم تر إليها كيف تنازلت عن أسطولها وسكتت عن إحراقه ، وسلمت

فى أدوات قتالها من قسى وسهام ومزاريق ، ثم اشتعل الغضب فى رأسها ، وساور الضيق نفوس أهلها حين جاء ذكر الغرامة وطريقة دفعها .. ! مثل هذا البلد إذا طالبت أهله بالرحيل إلى الصحراء ومفارقة البحر الذى ورثوا حبه فقد طلبت إليهم أن يعيشوا أمواتاً : بل قضيت فيهم بالانتحار . ثم لا تنسى أنهم قد أقدموا على الثورة وهم على يقين بأن روما قد وطنت عزمها على أن تفنيهم عاشوا على الشواطىء أو فى فضاء الصحراء ، لأن المطالب المتلاحقة المتكررة بما تحمل من سخرية وسخافة كانت لا تنذر بغير هذا المصير . فلو أنهم استجابوا لهذا المطلب لطاردتهم روما فى الصحراء وشتتت جموعهم ، وراحت تتعقبهم فى حلهم وترحالهم حتى تفنيهم وتخلى الدنيا من جلجلة اسمهم . وللغرائز إلهام سريع لا يستغرق وقتاً ولا يتطلب تفكيراً ، فغريزة المحافظة على البقاء عند كل قرطاجنى قد أوحت إليه بهذا المصير وساقته فى التو إلى العمل على اجتنابه ، وفى هذا يتساوى الانسان والحيوان

والحياة لا تعطى بالها لشعب يستجديها ويطلب

عونها ، ولا تتئد فى مسيرها فتثقل رجلها لتنصت إلى شـــكاته ، وتحيل عجزه إلى قدرة وضعفه إلى قوة ، لأن النصر فى النهاية للأقوى والبقاء للأصلح . وما رأينا الضعيف ينتصر يوماً إلا لتلحق به الهزائم أياماً ، ولا يفر من وجه الأخفاق شهراً إلا ليدركه ويحط عليه شهوراً وأعواماً ، ولن ينتصر حتى تدب فى بواطن نفسه عناصر القوة ، ويسرى فى جسده ماء الحياة ، ويعرف كيف يسمو بمطامحه الروحية على مطالب الحياة الدنيا ، وليس للضعف عند الشعوب آية أنطق من آية التسليم بالوجود المعنوى إبقاء على الوجود الحسى . .

وإن كافة الحجج التى رويناها عن المعجبين بقرطاجنه لتذوب وتنحل إذا أقمت نظرتك إلى نضالها على أنه دفاع عن حق البقاء ، وذود يراد به تقرير المصير . فالقول بأن حركة الجهاد فى قرطاجنه قد شملت الشعب بأسره ، وأنها دامت حتى نعق بوم الخراب فى أرض الوطن ، وأن الشعب قد ثار لفوره دون أن يفكر فى نصر أو هزيمة ، فى حياة أو موت ، وأنه لم ينتظر الخطيب الذى يثيره ، والكاتب الذى يحفزه ، والقائد الذى يتولى أمره . . . . كل هذا مردود عليه بأن

الغريزة كفيلة بذلك كله ، ولو أنك حصرت فئة من الكلاب ونبهتهم إلى ما يحيق بحياتهم من هلاك زاحف لثاروا على الفور فى وجهك واستماتوا فى المقاومة . وتفانوا فى النضال عن أنفسهم ، واستهانوا بالحياة . . فى سبيل الحياة . . من غير خطيب يغذى حماسهم ، أو كاتب يوقد نارهم ، أو قائد يتولى أمرهم ، وهم يفعلون هذا كافة من غير أن يتهاون بعضهم ويكل أمر الدفاع إلى غيره ، فهو دفاع اليائس المستميت.. وكذلك كانت قرطاجنه . .

لعلك أدركت من هذا التحليل ، النقصَ الذى ينطوى عليه تفسير « لوبون » وأنصاره لمعنى الخلق، فقد تناولوا مظاهره فأحصوها واكتفوا بسرد أكثرها دون أن يردوها إلى عللها ويعزوها إلى منابعها ويفصلوها عما يشبهها من مظاهر ترجع إلى أصول ومنابع وعلل أخرى. . فقد عرفت أن « المثابرة والعزيمة والجلد الذى لا يعرف الوهن ، والقدرة على التفانى فى نصرة المطلب » عناصر قد توفرت جميعها فى المرحلة الأخيرة من كفاح الشعب القرطاجنى ، فلم تكن دليلا على رصانة الأخلاق عنده ، لأن مردَّها جميعا إلى وحى « الغريزة » التى يتساوى فيها

الإنسان والحيوان ، وليست تعزى إلى البواعث النفسية والمطامح الروحية والمثل العليا التي يؤلف العقل نسيجها . وتهيء « العاطفة » خيوطها ... مما يبرر إطلاق الخلق على مظاهرها ..

وإذن فقد سقطت قرطاجنه لأسباب نستطيع ردّها إلى انحلال الخلق ، وبذلك يتمشى سقوطها مع القاعدة التي أقامها أهل الاجتماع في سقوط الدول وانحلالها :

تقول سنن الجهاد عند الشعوب منذ فجر التاريخ إلى يومنا الحاضر إن البقاء للأصلح ، وليس الأصلح من تبلغ به الوداعة إلى حد التنازل عن كرامته ، والتهاون في عزة نفسه ، والاستكانة للذل والخضوع للضيم وقبول الظلم والاستجابة لمطالب العدو مهما بلغ إجحافها ، بل أصلح الشعوب للبقاء من رفع وجوده المعنوي فوق وجوده المادي ، وجودنا المادي لا يتطلب إلا الشراب والطعام والهواء والراحة — وفي طلب ذلك يتساوى الأنسان والحيوان ، ووجودنا المعنوي لا يستقيم بغير الحرص على الكرامة وصيانة الشرف من كل أذى يصيبه أو يحوم حوله ، ثم هو يعلو ويسمو حين يلازمه التبشير بمثل

أعلى، والاستماتة فى شأنه، وذلك من شأن الإنسان وحده. وقد تنازلت قرطاجنه عن وجودها المعنوى، فحرمتها سنن الجهاد حقها فى البقاء، وقضت فى أهلها أمرها بالفناء (١)

وقد كان من بواعث هذا التهاون فى الوجود المعنوى أن أهل قرطاجنه عباد مال، والذهب إذا تمكن

---

(١) والتاريخ حافل بما يؤيد هذا الناموس . ولا بأس من أن نسوق مثالا آخر يختلف لوناً وشكلا وان اتفق فى جوهر الموضوع الذى نحن بصدده : التنازل عن الوجود المعنوى وأثره فى الوجود الحسى :

دخل « نابليون » بولنده فى وقت قد انعقدت عليه آمال أهلها فى استقلال وطنهم: فالتفوا حوله وأحاطوه بهالات الأجلال والترحيب، وبينما كانت عربته تسير فى شوارع المدينة والورود والأزهار تتناثر عليه، لمح البطل سيدة فتانة الجمال مشرقة الوجه يملأها الحماس له والأعجاب به، تشق الصفوف مرحبة بمقدمه هاتفة بحياته ... وما عادت السيدة الى بيتها حتى كانت عيونه ورسله وراءها . ! تغريها بشتى الطرق وتعرض عليها أثمن الهدايا لتقبل الاتصال بنابليون . ! وامتنعت السيدة وازدادت الحاحاً فى الامتناع بألحاح الرسل فى مطلبهم . فاستعان البطل عليها بزعماء المدينة، ولم يتورع هؤلاء الزعماء عن قبول مطلبه والسعى لدى زوجها وأولى أمرها فى قبول هذا العرض.

وأخيراً قبلت « مارى فاليفسكا » تحت تأثير هذا السعى الملح أن تدفع عفافها ثمناً لاستقلال بولنده . !

تنازل أهل بولنده عن وجودهم المعنوى فى سبيل استقلالهم، فكانوا خليقين بموقف نابليون حيال مطالبهم . . وحق عليهم ناموس البقاء السالف الذكر . والأمثلة الشبيهة بهذا كثيرة لا يكاد يحصيها العد

من النفوس واستقر فى شغاف القلوب ، هانت فى سبيله أسمى المطامح وأنبل المثُـل . والشعوب إنما تحيا بمطامحها ، وتعـلو على جناح مطلب أسمى تؤمن به وتعيش له ، وتتفانى فى العمل على تحقيقه . أما الشعوب التى لا تفهم إلا لغة الذهب ، ولا تحترم إلا مظاهر المادة ، فمـآلها إلى انحلال ونهايتها إلى اضمحلال . .

وقد أدت بها قداسة المال إلى ضيق المطامح ، فأصبح كل مجد لا يدرّ الذهب معدوم التقدير عندهم. وقد عرفت موقف المعارضة من هانيبال فى مجلس الشيوخ بعد موقعة « كانى » ، وتبينت مدى تقديرهم لهذا السلطان الذى كان ينشره بطلهم فى مشارق الأرض ومغاربها ، ومبلغ إحراج « ماجو » أمام « هانو » ، زعيم حزب السلام . .

هكذا يرتفع صوت المعارضة فى المجلس ويعلو حتى يخرس لسان المندوب الذى أوفده هانيبال وهو فى أوج مجده وشاهق عزه ، ولا يجد المعارض من أنصار البطل من يعمل على إخفاته بالقوة إن عزّ إخفاته بالهدوء — كما ألِف القادة فى كل زمان ومكان . . ذلك لأن انتصارات الحرب رغم ما أسفرت عنه من مجد ساطع ، لم تمنع بطلها

من طلب العون ، ولم تدرّ على الوطن شيئا من الذهب...!
الذهب . . !

ولهذا الموقف وأشباهه دلالتها فى نفسية الشعب . وتقدير مدى طموحه ، ومعرفة فهمه للحياة . وكيف يعيش شعب لا مطمح له فى الدنيا إلا المال ، ولا مطلب عنده أسمى وأنبل من الذهب . . ؟! إن نواميس البقاء لم تخطىء حين قضت فى قرطاجنه بحرمانها من حق البقاء . .

على أنه ليس طبيعيا ما أصاب هذا البلد من مجد ، وما انتهى إليه من عظمة . فقد نال هذا كله بسلاح لا يملكه . استأجر الجنود المرتزقة ، ووكل إليها أمر الاستعمار ، واعتمد عليها حتى . .. حتى فى الدفاع عن كيانه . . !! وليس من رصانة الخلق أن تسلط الأشرار يهاجمون الناس ، ويمتهنون حقوقهم ويعتدون على أملاكهم ، فاذا همّوا بصدّ عدوانك ، وأخذوا فى قتالك ، انزويت فى دارك ، واستأجرت من يقوم بالدفاع عنك حتى لا تجد الأجر الذى تدفعه ، وترى الهلاك مقبلا عليك فاتحاً فاه يريد ابتلاعك ، فتأخذ حينئذ — وحينئذ فقط — فى الدفاع عن نفسك والذود عن حياتك متفانيا ، شأن اليائس المستميت . .

فقرطاجنه أصابت مجدها بسلاح غير سلاحها ، فلم تكن أهلا للاحتفاظ به ، ثم فقدته فكان فقدانه عن جدارة واستحقاق . . !

استبان لك من هذا أن قرطاجنه قد تلاشت من الوجود لأن جهادها قد أعوزته البواعث الروحية ، وأن ما بدا من جلادها وصبرها وتفانيها ووفائها مردُّه إلى الغريزة التى لا يمتاز بها أسمى الناس على أحط الحيوانات. وأنها لم تكن اهلا لهذا المجد الطارىء والعز الوارف وغيره مما جاءها به هانيبال وهملكار وهسدروبال ، وأنها استحوذت عليه بسلاح غيرها ، فسرعان ما فارقها إلى غير رجعة ، وفرّ منها غير آسف على عشرتها، وأنها لقيت ما ينبغى أن يلقاه كل شعب يضحى بوجوده المعنوى إبقاء على وجوده الحسى . .

ولا تهلعن للنهاية الأليمة التى صارت إليها قرطاجنه . ولا تحسبن أن الرومان كانوا وحوشاً حين واروها التراب، فتلك سنة النضال بين الشعوب ، وهذه هى نواميس التنازع فى البقاء : . فان الجريمة التى ارتكبها الرومان منذ

عشرين قرناً ونيف ، قد أقدم على ارتكاب ما يشبهها الساسة في العصر الحديث . . ! والقارىء يذكر ما استقر عليه رأى العصابة التي اجتمعت في باريس بعد الحرب العظمى لتسوية مشاكل العالم على أساس مبادىء « ولسون » الأربعة عشرة . . ! ويذكر الجريمة التي اشترك في ارتكابها ساسة الروسيا والنمسا وبروسيا في القرن الثامن عشر يوم أزالوا «بولنده» من المصور الجغرافي . . ! ، ويذكر موقف «عصبة الأمم» من نزاع الحبشة وإيطاليا، ثم من نزاع الصين واليابان

إن الطبيعة لا تعرف الرحمة في نزاع الجماعات ، وقانونها الذى لا يتغير قط ولا يصيبه التعديل أبداً :

إن النصر للأقوى . . والبقاء للأصلح

کشاف

كشاف

أهم ما ورد فى هذا الكتاب من أسماء الأعلام والأماكن مع استثناء الكلمات المنتشرة في أغلب الصفحات (كروما وقرطاجنه وهانيبال وإيطاليا)

ا

١٢٤ — يسير هانيبال إلى ترازمين عن طريقها .
١٦٥ — يتمرد أهلها (الأترسك) على روما .

أجاثوكل Agathocles :

٢٢ — يحاصرون قرطاجنه فتقدم للنار مائتى طفل و ثلاثمائة رجل قرباناً لمعبودها لعله ينقذها من شره ٤٣ — كفاحه فى صقليه ضـــد قرطاجنه ٤٨ — يفكر فى غزو قرطـاجنه بعد هزيمة جيوشها فى صقلية ٥٦ — مصرعه — استقلال قطاع الطرق الذين كانوا فى خدمته .

أجريجنتوم Agrigentum

٦١ — قرطاجنـــه تجعلها مستقر ذخائرها والرومان يحاصرونها ١٥٩ — هانيبال يرسل إليها كتيبة يقودها رجل ليس من خُلص القرطاجنيين فيتمرد الجيش . ويدخل الرومان المدينة ويمتهنون الطبيعة البشرية فيها .

أُرسطو :

٢٤ — يعرض فى كتاب السياسة لنظام الحكم في قرطاجنه ويثنى عليه .

أرشميدس :

١٥٨ — يقـــدم المعونة لسيراكوز حين كانت روما تعالج حصارها .

اريكس Eryx :

٨٢ — استيلاء الرومان عليها ٨٤ — هملكار يقوم منها بنجدة إلى «دريبانوم» ليحميها من أسطول روما الذى بناه أثرياؤها ٨٦ — المعاهدة بعد «إيجيت» تقضى بتسليم الجيش الرابض فيها

أسبانيا :

١٩ — انتشار أهلها فى شوارع قرطاجنه ٤٤ — بعوث قرطاجنـه تتوغل فيها للاستكشاف — توريد الفضة منها ٨٧ و ٩١ — إقامة امبراطورية بها ٩٤ — تفكير هملكار فى غزوها بعد حرب الثوار المتمردين ٩٥ — انتصارات «هملكار» فيها ٩ سنوات ٩٦ — قتل هسدروبال لأحـد زعمـاء قبائلها ١١٠ — أكثرية جيش سيبيو ترحل إليهـا ١٣٦ — بعض قبائلها فى جيش «كانى» ١٥٩ — ١٦٠ — انهزام جيش قرطاجنه أمام سيبيو فى أرضها ١٦٢ — فرارها من يد

اكونومس Economus :

٦٦ — بين الرومان والقرطاجنيين (فى جنوبى صقلية)

ألبالنجا Alba langa :

٢٦ — موت مليكها

٢٧ — يحمل اليها «ريمس» بعد وقوعه في كمين راعي الملك

اليسا (أى ديدو) Dido أو Elissa :

١١ — اكفهرار الجو بينها وبين أخيها قاتل زوجها ١٢ — مضيها إلى إفريقيا ١٣ — تسابق الناس فى الأعجاب بجمالها ١٦ — قربانها وانتحارها احتراما لذكرى زوجها

أمليوس Amelius (قنصل الرومان) :

١٣٤ — يشك في نتيجة «كانى» قبل البدء بخوض غمارها ١٣٥ — رسالته إلى روما ١٤٠ — مصرعه فى موقعة «كانى» نبله ووطنيته

أموليوس Amulius :

٢٦ — يتولى الحكم على كره من أخيه الأكبر «نوميتر»

٢٧ — اعتداء أحد رعاته على راعى «نوميتر»

٢٨٦ —الروسيا والنمسا وبروسيا تتفق على إزالة بولندة من المصور الجغرافى .

بيروس Pyrhus (ملك إبيروس Epirus إحدى مقاطعات الأغريق .) :

٣٨ — يلبى نداء تارنتوم فى الاستنجاد به ٤٠ — إخفاقه فى نجدتها أمام الرومان ٤٣ — كفاحه فى صقلية ضد قرطاجنه ٤٩ — مقاومة قرطاجنـــه له فى صقلية ٥٠ — إخفاقه أمامها — خواطره يوم جاء إليها — ٥٠ — على ظهر سفينته عائداً بعد إخفاقه — ٥١ — محاورته مع « سنياس» ٥٤ — يحدد مركز صقلية من قرطاجنه وروما عنـــد فراقه لأرضها

٨٦ — هزيمته أمام قرطاجنه

بيزو Piso

٢٣١ — روما توليه قيادتهـــا ليفنى قرطاجنه — ٢٣٦ سيبيو يستنجد به

ت

تارنتوم Tarentum (مدينه جنوبى إيطاليا)

٣٨ — تستعين بالأغريق على الرومان ٣٩ — صورة بيروس حين بلغهـــا لنجدتها ضـــد الرومانـــ ١٥٤ — عجز

ج

د

دريبانوم Drepanum

٨١ — انتصار أميرة البحر على روما فيها ٨٣ — هملكار يعسكر على كثب منها ٣ سنوات ٨٤ — أسطول يبنيه أثرياء روما يتقدم لحصارها ١٨٢ — عودة هانيبال إليها بعد هزيمة زاما

ر

رجيلس Regulus :

٦٩ — ينتصر على هملكار فى أفريقيا ٧٠ — يطلب الصلح متشدداً فى نصوصه فيرفض ٧١ — يلقيه اكزانتيب فى السجن ٥ سنوات - ينتدب بعدها سفيراً لمفاوضة قومه ٧٤ — يخطب فى مجلس شيوخ روما طالباً الحرب وهو سفير السلام (سمو الضمير ونبل النفس) ٧٥ — صورته وهو يخطب فى المجلس ٧٧ — صورته وامرأته تلتمس منه البقاء رحمة بها وبولد يها فيأبى ٧٨ — رجيلس بين المنطق والخلق ٧٩ — نبأ هزيمته فى أفريقيا يصل إلى روما

رميلس Romulus

٢٦ — ابن إله الحرب الذى عشق ابنة نوميتر ٢٧ — ينقذ أخاه ببسالة ٢٨ — جده يهيء له حياة سعيدة فيرفضها تشير الآلهة عليه ببناء روما ٣٠ — يغتصب مع رجاله نساء السابين ٣٢ — بين نصر وهزيمة ٣٣ — يحكم أربعين عاماً ٣٤ — يحمله أبوه (إله الحرب) في عربته إلى السماء — نصيحته لشعبه بعد أن بات إلهاً ٤٠ — تحقق نبوءته فى سيادة روما للدنيا بأسرها

ريمس Remus :

٢٦ — ابن إله الحرب ٢٧ — يقع فى كمين أعده راعى الملك ٢٨ — يرفض حياة سعيدة ٢٨ — يريد أن يطلق اسمه على المدينة الجديدة (روما) ٢٩ — يهزأ بسور روما فيقتله أخوه رميلس .

ز

زاما Zama

١٨٢ — هزيمة هانيبال بها ١٨٣ — صورة الفيلة فيها

س

السابين (قبائل) Sabine :

٣٠ — خديعتها فى مشاهدة حفلة « رمياس »

٣١ — اغتصاب نسائهم ٣١ — انتصارها على رمياس

٣٣ — خضوعها للرومان بعد شفاعة نسائها .

سردينيا :

٨٩ — يغتصبها المتمردون من هملكار ويقدمونها لروما

١٥٤ — فرارها من يد هانيبال .

سغنتم Saguntum

٩٦ — تستعين بروما على هسدروبال — معاهدته مع الرومان ٩٨ — هانيبال يحاصرها متخطياً المعاهدة — وفد روما عنده ثم فى مجلس شيوخ قرطاجنه — دفاعها ٨ شهور ١٠٠ — انتحار زعمائها خلاصاً من الذل ١٠١ — صورة هانيبال وهو يحاصرها ١٠٦ — هانيبال يعود اليها بعد غزو قرطاجنه الجديدة .

سيبيو البطل (ابن سيبيو) ويسمى الأفريقى :

١٦١ — انتخابه - ليخلف أباه يثير الضجة فى روما لصغر سنه ١٦٢ — يعلن برنامجه فى الظفر باسبانيا وقرطاجنه نفسها ١٧٦ — يقود حركة القتال مع ماسينيسا ضدسيفاكس وهسدروبال بن جسكو ١٨٦ — يأمر باشعال النار في نصف ألف بارجة ٢٠٠ — يحاول رد روما عن طلب هانيبال ٢١٢ — يتوسط بين ماسينيسا وقرطاجنه ٢٣١ — يقسم تركة ماسينيسا ٢٣٥ — توليته لتدمير قرطاجنه ٢٣٦ — يصلح الجيش ٢٣٨ — يعود للقتال ٢٤٠ — يبنى سورا ٢٤٢ — مذبحته للجبناء ٢٤٥ — فى أعلى المدينة ٢٤٧ — لا يجد فراغاً للاكل ولا للراحة ٢٤٩ — يستمع لزوجة هسدروبال وهى تلعن زوجها ٢٥٢ — يأسف لزوال قرطاجنه ويتأسى لمصيرها ٢٥٣ — صورته وهسدوبال يلتمس الغفران أمامه

سيراكوز Syracuse :

٥٦ — صراع حاكمها هيرو لقطاع الطريق ٥٧ — خوف روما من تسلط قرطاجنه عليها ١٥٨ — انقسام شعبها إلى حزبين بعد موت حاكمها

سيفاكس Syphax :

١٦٠ — يعلن الحرب على هانيبال ١٦٢ — سيبيو البطل

ص

ف

فابيوس Quintus Fabius

١٠٢ ــ يتحدى مجلس شيوخ قرطاجنه ١٠٣ ــ صورته في المجلس وهو يلقي بثوبه في وجوه الأعضاء ويعلن انفجار الحرب ١٢٩ ــ يعين دكتاتوراً لروما ١٣٠ ــ يلتقي بهانيبال في سهل فلارنيان ١٣٢ ــ يرتاع للثيران التي أشعل هانيبال العساليج في قرونها ــ ثورة خصومه على سياسته ١٣٣ ــ الشعب يطالب بتقسيم القيادة بينه وبين «منوكيس»

فارو Varro

١٣٣ ــ انتخابه قائداً ممثلا لحزب الحرب ١٣٤ ــ شوقه لخوض معركة «كاني» ١٣٥ ــ على معسكره يخفق العلم منذراً بمجزرة «كاني» ١٣٨ ــ قائد فرسان حلفاء روما في «كاني» ١٤١ ــ هربه بعد «كاني» بسبعين ألف فارس ١٥٠ ــ مجلس الشيوخ يقرر استقباله وشكره على جهوده رغم إخفاقها .

فاليفسطا (ماري) :

٢٨٢ ــ تضحي بشرفها في سبيل وطنها

فامياس Himilco Phameas

٢٢٩ ـ حماسه فى الدفاع ٢٣١ ـ خيانته

فرنسا :

٤٤ ـ وصول بعوث قرطاجنة إليها ٢٧٢ ـ موقفها من نابليون بعد أن نفاه الحلفاء .

فلامنيوس Flaminus

١٢٥ ـ قائد الرومان فى موقعة ترازمين

٢٦ ـ مصرعه .

ق

قادس

١٦٢ ـ لم يبق لقرطاجنه فى أسبانيا سواها ١٦٣ ـ استيلاء الرومان عليها .

قبرص :

١٢ ـ تبحر إليها « ديدو » فارة من أخيها قاتل زوجها وخالها ٤٤ ـ تستورد منها قرطاجنه النحاس .

قرطاجنة الجديدة Nova Carthago

٩٦ — يبنيها « هسدروبال » على شاطىء إسبانيا الشرقى
١٠٦ — عودة هانيبال إليها .

ك

كابوا Capua

١٤٣ — انضمامها لهانيبال بعد « كانى » — ثورة شعبها وانقسامه — انتصاره على الأشراف ودعوة هانيبال — مميزاتها
١٥٦ — حصار الرومان لها — اخفاق هانيبال فى نجدتها
١٥٧ — تسليمها للرومان — امتهان أهلها

كاتو الكبير Cato

٢٠٨ — يهاجم قرطاجنه فى مجلس شيوخ روما - انتدابه للنظر فى أمرها ٢٠٩ — صورته وهو يخطب في المجلس
٢١٠ — روما توافق على نصيحته فى إفناء قرطاجنه

كانى Cannae

١٣٦ هانيبال يعسكر على كثب منها ١٣٧ —خريطة تبين قوات العدوين فيها ١٤٢ — نتائجها على قرطاجنه

١٤٣ و ١٤٤ ـ سحرها فى الشعوب ١٤٥ ـ موقف التاريخ منها ١٤٧ ـ ماجو يخطب في مجلس شيوخ قرطاجنه ويصف روعة النصر فيها ١٥١ ـ أبناؤها تزعج النساء والأطفال فى روما ـ مجلس الشيوخ يقرر بقاءهم فى بيوتهم ١٥٣ ـ هيرونيموس بعدها ١٧١ ـ التاريخ يذكر همسة القدر بعدها ٢٠٧ ـ امتناع هانيبال عن غزو روما بعدها ٢٢١ ـ فى عرف التاريخ

كركينا (أو قرقنا كما يرويها الادريسى) Kerkina

٢٠٠ يفر إليها هانيبال حين يعتزم الهرب من روما

كمارينا Camarina

٨٢ ـ هزيمة الرومان على مقربة منها ـ لم يبق في سفنهم لوح من الخشب لم يتحطم .

كورنوول Cornwall

٤٤ ـ قرطاجنة تستورد منها الصفيح

ل

ليليبيوم Lylibeaum

٨١ ـ قرطاجنه تحاصرها بعد استرداد سيادة البحر ٨٢ ـ عودة الرومان اليها ٨٤ ـ بأسطولهم الذى بناه أثرياؤهم

ماسينيسا Masinissa

١٦١ — ينضم لهسدروبال فى قتال سيفاكس ١٧٥ — يفر بزوجته بعد فقدان مملكته إلى سيبيو ويصحبه إلى أفريقيا ١٧٦ — يتوسط بين روما وقرطاجنه ويشعل النار فى معسكرى العدوين ١٨٤ — يسترد في معاهدة زاما ما كان يملكه هو أو أسلافه ٢٠٨ و ٢١٠ — حروبه ضد قرطاجنه ٢١١ — رسل روما تقرر أخطاه حيال قرطاجنه — ٤٠ عضواً ينفيهم الحزب الديموقراطى فى قرطاجنه فيتصلون بماسينيسا ٢٣٠ — روما تطلب نجدته لحصار قرطاجنه ٢٣٣ — صورته مسجى على فراش الموت.

مالينوس Malinus

٢١٥ — أحد القنصلين اللذين وكلت روما إليهما إفناء قرطاجنه ٢٢٩ — يحاصرها براً.

مايلى Mylae :

٦٤ — أول المعارك البحرية بين العدوين ٦٧ — صورة المعركة.

مجلس الشيوخ فى كابوا :

١٤٣ ـ يقرر دعوة هانيبال بعد كانى ـ رغم أنف الأشراف
١٤٤ ـ ينعقد ويحضره هانيبال

مسينا Messana :

٥٥ ـ قطاع الطرق فى أرضها ـ اجتماع أهلها للمشاورة فى أمرهم ٥٦ ـ ينزل بها الأشرار بعد مصرع « أجاثوكل » ٥٧ ـ خوف روما من تسلط قرطاجنه عليها .

مصر :

١٨ ـ اتصال القرطاجنيين بهم ١٩ ـ ينتشر المصريون فى شوارع قرطاجنه ويتشبه بهم أغنياؤها ٢١ ـ حضارتها عند أغنياء قرطاجنه

المغرب :

١٣ ـ ملكه يسمع بجمال « إليسا » فيطلب الزواج منها ويهددها بالشر إن رفضت ١٤ ـ دعوى رسله عند الملكة

مقدونية :

١٥٣ ـ انضمام ملكها إلى هانيبال بعد « كانى » ١٧٤ ـ

هانيبال ينتظر اشتباكها مع روما بعد « مترس »
٢٠٧ - تتأهب لقتال روما

مهربال Maharbal :

١٤٦ - يطلب إلى هانيبال غزو روما بفرسانه بعد « كانى »
فيرفض البطل

مولوك Molock

٢٢ ـ معبود قرطاجنه الأكبر (Boal Hamman)



نابليون

١٩٢ ـ سر بطولته ـ أنوثته ٢٠٦ ـ خوف الحلفاء
من خليفته ٢٧٢ ـ موقف فرنسا منه بعد أن نفاه الحلفاء ٢٧٢ ـ
قبره بين فرنسا « وهدسون لو » ٢٧٣ ـ شرفه العسكرى
٢٨٢ - موقفه من مارى فاليفسكا حين دخل بولنده

ناى :

١٩٢ ـ يقسم للويس بأن يجيئه بنابليون فى قفص
من حديد

نومیتر Numitor

٢٦ ـــ أخوه الأصغر يغتصب منه الحكم ٢٧ ـــ راعيه يعثر بسلة فيها « رميلس و ريمس » ٢٨ ـــ يقيم « رميلس » مايكا على البلاد

النوميديون :

١٨٣ ـــ موضعهم في موقعة « كانى » ١٦٠ ـــ ملكهم سيفاكس يعلن الحرب على هانيبال

نيرو Nero

١٦١ ـــ يخلف سيبيو فى القيادة ١٦٥ ـــ روما تكل إليه هانيبال ـــ ١٦٦ عثورجواسيسه على رسالةمن هسدروبال إلى أخيه هانيبال ـــ ١٦٧ ـــ يسير إلى زميله ليفيوس متخطياً القانون ١٦٨ ـ يحمل رأس هسدروبال إلى معسكر هانيبال

هـ

هانو Hanno (زعيم حزب السلام) :

٩٨ ـــ يطالب المجلس بتسليم هانيبال إلى الأعداء

١٤٨ ـــ إعتراضاته فى المجلس على النجدة التى يطلبها ماجو

١٧٩ ـ سخط هانيبال عليه

هانو Hanno (قائد حربى)

٦٠ - يقوم من قرطاجنه لنجدة الأشرار المتمردين - تعذيبه بعد إخفاقه ٦٨ - يطالب مواطنيه بالتأهب للقاء العدو ٨٤ - فى دريبانوم ضد أسطول بناه أثرياء روما .

هدسون لو :

٢٧٢ - يكتب على قبر نابليون هنا يرقد ويريد إتمامها «الجنرال بونابرت» فرنسا تمنعه ٢٥ سنه

هسدروبال Hasdrubal (أخو هانيبال) :

١٦٠ - يسير إلى وطنه ليرد هجوم سيفاكس
١٦١ - ثم إلى إيطاليا فى صحبة هسدروبال بن جسكو وماجو وماسينيسا بعد قهر سيفاكس ١٦٥ - من أسبانيا إلى إيطاليا ١٦٦ - رسالته إلى أخيه هانيبال ١٦٧ - ١٧٠ معركة متورس وإستشهاده بها . ورأسه أمام هانيبال

هسدروبال بن جسكو :

١٧٨ - فراره بعد إحراق المعسكرين . زوجته تثير نخوته ٢١١ - يقود القتال ضد ماسينيسا ٢١٢ - يقبل معاهدة ماسينيسا الذليلة ٢١٣ - يقوم بتنفيذها - حكم أمته عليه بالأعدام

فهرس الكتاب

فهرس الصور

صفحة

صفحة

صفحة

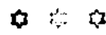
خرائط الكتاب

١ — حوض البحر الأبيض وفيها شتى الأسماء التى يحتاج إليها القارىء مقابل ص ٩

٢ — خريطة تبين مواضع العدوين فى موقعة « كانى » ص ١٣٧

٣ — خريطة تبين قرطاجنه في مختلف مبانيها بين صفحتى ٢٢٨ و ٢٢٩

(مع ملاحظة ان كلمة «سغنتم» فى الشاطىء الشرقى لاسبانيا تنقص بالخريطة حرف الميم)



والأولى قد تفضل برسمها على هذا الوجه الدقيق الأستاذ **محمود كامل حسن** مدرس مادة الخرائط بكلية الآداب بالجامعة المصرية . وأما الثالثة فقد قام برسمها وبذل الجهود المضنية في توضيحها : الأخ **أنيس أفندى عبده** .

ويرى القارىء فى ص ١٨١ صورة ناطقة بآيات الفن البديع تمثل هانيبال في موقف رائع حين كان عائداً إلى قرطاجنه بعد ستة وثلاثين عاماً قضاها فى ميدان القتال بعيداً عن وطنه. ولعل القارىء يدهش حين يعلم أن الفنان الذى تولى رسم هـــذه الصورة الممتعة مستمدا نسيجها من وحى الخيال : طبيب . . ! هو الفنان المبدع . « **الدكتور يوسف سلامه** » وقد تفضل برسمها بعد أن عجز عن تصوير فكرتها فئة من محترفى الفن فى مصر . . ! فلحضراتهم جميعاً أوفر الشكر وأجمل التقدير؟

فهرس الكتاب

اهم مصادر الكتاب

هذا أول كتاب عرفته اللغة العربية عن هـذا الموضوع الطريف ـ فيما نعلم ـ مع أن علماء الاجتماع وأهل التاريخ من كتاب الغرب قد تناولوه بمختلف الدراسات ، وكتبوا عنه فى شتى اللغات مئات الموضوعات . . ! ولا يعجبن القارىء لهـذا التقدير . فان روما ـ فيما يبدو لى ـ كانت أكثر بقاع الأرض موضوعاً للدرس عند العلماء ، وقد اطلعت في موضوعى هذا على عشرات المؤلفات.ولكن أكثرها لم يفدنى في شىء أكثر من سرد الحوادث التاريخية ، فرأيت ألا أذكر من المصادر إلا ما أعانني على تصوير « الجو المعنوى » الذى حاولت تهيئته فى كتابى هذا ـ إذ ليس الغرض من ذكر المصادر في مثل هـذا الموضوع هو « إحصاء » المؤلفات والمصنفات التى تناولته ، وإلا لكان الأمر هيناً لايستدعى قراءتها كلها ـ مادامت سرداً للحوادث التاريخية لاتتجاوزه ـ ولايتطلب أكثر من بضع ساعات يقضيها الأنسان فى دار الكتب أو في مكتبة الجامعة المصرية يخرج بعدها وفي يده قوائم مطولة بأسماء المراجع والمصادر . . . !

1. Mommsen (Theodore): The History of Rome
2. Church. (A. J.) & Gilman (A.) : Carthage.
3. Gilman (Arthur) The story of Rome.
4. M. Dureau de la malle : Carthage.
5. Berkley, (E.) A new History of Rome.
6. Baker (G. P.) : Hannibal.
7. Spenser Wilkinson : Hannibal's march through the Alps.
8. Universal History of the World (written by one Hundred & Fifty of western Authorities in all Branches of Historical knowledge and edited by J.A. Hammerton)Vol.III
9. Hallword, (B.L.) the Cambridge Ancient History (Rome & the mediterranean, edited by Cook, adcock& Charlesworth Vol. VIII
10. The Historians' History of the World. (Edited by Henry Smith Williams. L. L. D. and others.) Vols II & V.
11. Huchinson's History of the Nations Vols I&II
12. Pelham. Outlines of Roman History.

فى يوم الاربعاء ٤ نوفمبر سنة ١٩٣٦
تم طبع كتاب « قصة الكفاح بين روما
وقرطاجنه » بدار النشر الحديث
« مطابع أحمد الصاوى محمد » بالقاهرة
٧ شارع فؤاد الأول - تليفون ٥٥٤٥٥